

اقرا

قصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاء



دار المعارف بمصر

دار المعارف

obeykandi.com

إِبْرَاهِيمُ الصَّيْتِيُّ

صَرَاحُ الْحُبِّ وَالْعَبْرِيَّةِ

٣٩٦

اقْرَأْ

طَارُ الْمَعَارِفِ بِمَطَرٍ

(اقرأ ٢٩٦)

الناشر : دارالمعارف مصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

كلمة

إذا كان العبقري . مفكراً أم فناناً . يصبو إلى تأدية رسالته والانقطاع لفكره أو لفنه . فإن قلبه يصبو ولا ريب إلى الحب وينشد المرأة التي تلهمه بجمالها وتحفزه بحنانها وتشيره بصدها وإقبالها . فتوقظ خياله . وتذكى مواهبه . وتمده بالتجارب . وتجدد في نظره وجه العالم .

ولكن العبقري قوة . والمرأة قوة . والصراع لا بد أن ينشب بين القوتين . ذلك لأن العبقري يتجه بطبيعته نحو الأبد ، والمرأة تتجه بغريزتها نحو الدنيا .

فهو يحبها ويحب صبر الجمال ممثلة فيها وفي غيرها . ويريد في الوقت نفسه أن يعمل ويخلد في عمله . وهي تحبه وقد تبذل وتضحى لتعاونه وتخدمه . ولكنها تأبى ، والغريزة تدفعها ، إلا أن تضع الحب فوق الفكر ، وأن يدوم هذا الحب في عاطفة مطلقة تستغرق حياتهما معاً .

ومن هنا يحدث الصراع . وتختلف صورته باختلاف المنازعات والشخصيات . ولا سيما إذا كان العبقري قد اصطفى امرأة أخلصت لفكره واتجاهه ثم تحولت فجأة وقابلته بالقطيعة والخيانة والغدر .

على أن الوضع قد ينعكس ، فتكون المرأة هي النابغة أو العبقرية ، ويكون الرجل الذي تحبه هو الغريزة ودعوة الدنيا . فينشب بينهما صراع أبلى وأشد . إذ المرأة وهي تنشد التفوق في الفكر أو الفن ، لا تفتأ - في الواقع - تقاوم طبيعتها بوصفها أنثى . فتحاول إما أن تفر من ذلك الرجل الحسى الأناني الذي يستخف بجهادها ويزدرية ولا يطلب منها غير متعته ، وإما أن تصبر على ما تعانيه في صحبته من عذاب ، مستلهمة عذابها ، تتخذ منه مادة جمال وفن . وتجاهد في الوقت نفسه كي ترتفع

بأهواء الرجل وميوله إلى المستوى الوجداني الذي يتطلع إليه خيالها .
 فهذا الصراع بين العقل والقلب . بين الحرية والقيود ، بين الوفاء
 والغدر ، بين ما يسمو بالإنسان وما ينحط به ، هو ما حاولنا أن نصوره
 في هذا الكتاب ممثلاً في حياة طائفة من العباقرة والنوابغ بين رجال ونساء ،
 عاشوا هذا الصراع واكتروا بناره . فكانت هذه النار برغم انجذابهم العنيف
 إليها وعذابهم الشديد بها ، هي التي ألهبت فيهم قوى الإرادة والعزم .
 ودفعتهم إلى إبداع روائع الفكر والفن الخالدة . ١

إبراهيم المصري

موريس ماترلنك
أو

بين الحب والواجب اللعالي



سأحدثك أيها القارئ عن أديب فذ هو الكاتب والشاعر والروائي
البلجيكي « موريس ماترلنك » . وعن حياته الخاصة . وغرامه العظيم
بالمرأة العظيمة التي أستوحاها فكره وفنه مدام « جورجيت لوبلان » .

موريس ماترلنك شاعر ومفكر . شاعر رمزي ومفكر يمزج بين
الصوفية والعلم .

وهو ناثر بليغ . يستهويه أدق وأخفى ما يكمن في ظلمات النفس
ومجاهل القلب من أسرار . فيقبل عليها . ويتأمل فيها . وينظر إليها نظرة
فنية وفلسفية . لا من حيث علاقتها بأبطال قصصه فحسب . بل من
حيث علاقتها بالأبد واتصافها بجوهر الطبيعة الذي لا يتبدل .

وكانت « جورجيت لوبلان » قد سمعت باسمه . وطالعت مؤلفاته
الأولى ، وأعجبت بفنه ، فأحبهته ...

أحبهته دون أن تراه . أحبت فيه الشاعر الذي استطاع أن يعبر عن
آمالها وآلامها ، عن خلجات صياها ومطامح نفسها ، عن عنصر الفن
والجمال الذي أرادت أن تجعل منه هي أيضاً مادة فكرها وحياتها .

وكانت إذ ذلك في مقتبل العمر وشرخ الشباب ، على جمال رائع ،
مغرمة بالأزياء الصارخة الغربية . مفتونة بالعواطف الإنسانية الكبيرة ،
خيالية النظرة إلى الحياة ، تلتمس الشعر في كل شيء . وتتوثر الشعر على
كل شيء . كانت نزاعة إلى الحرية . تواقفة إلى المجد ، شغوفاً بتمثيل أدوار
بطالات الحب والألم والثأر والتضحية على مسرح الواقع . ملتبهة الأعصاب .
فؤارة المزاج . على حظ كبير من النبوغ في الكتابة والأدب . مثقفة
وذكية . تهوى الموسيقى والتمثيل . وتعمل جاهدة لتصبح ذات يوم مغنية
وممثلة يشار إليها بالبنان .

هذه المخلوقة العاصفة . رأيت في فن « ماترلنك » ما ناقض طبيعتها .
 الأنثوية رأيت فيه من الرصانة والتأمل والحلم ما استمواها وأشعرها بأن لا سلام
 إلا هنا . ولا استقرار ولا اتزان ولا اكتمال إلا في قرب هذا الرجل الفذ العجيب .
 وقدمها إليه ذات يوم بعض الأصدقاء . فما إن أبصرها الرجل حتى
 أحس هو الآخر أن ما ينقصه قد تمثل فيها . فأنعمت هي النظر فيه :
 فشاهدت رجلاً مديد القامة . مفتول العضل : صلب العود : صامتاً
 ونحجولاً . له نظرة محجبة بعيدة ، وقسمات جافة ، ويدان غليظتان
 كأيدي الفلاحين .

راعها منه اقتران القوة برقعة الحاشية ودمائة الطبع وعذوبة الفن ،
 فأنجذبت إليه ومضت تفكر فيه .

وتبدلت بينهما الزيارات ، وذهل « ماترلنك » لدخول هذه المرأة
 الفجائية في حياته . هذه المرأة الولوع بكل ما هو عظيم وجميل . المرأة التي
 تقصد المتاحف ، وتقف برسوم أكابر المصورين . ثم تحاكيها وتفصل
 أثوابها على غرارها . ثم تخطر بها في شوارع باريس كأنها أميرة من أميرات
 القرون الوسطى . عليها وشائح كوشائح الملائكة التي رسمها « جوزولى »
 و « فرا أنجليكو » و « بورن جونس » وأضرابهم ...

رأى فيها « ماترلنك » المثل الحي لما يجب أن تكون عليه عروس الشعر
 الملهمة المبتغاة . فاطمأن إليها . وتوثقت بينهما أواصر الحب ، وبدت
 حياتهما الحديدية ملحة نادرة من ملح التفاهم . بل معجزة خارقة من
 معجزات الصفاء والسلام .

وكانت « جورجيت » تحنو على موريس حنو أم على ولدها ، كانت
 تسهر على راحته ، وتكلمه بعين عنايتها ، وتيسر له سبل العمل ، وتتعهد
 شؤون بيته ، وتخلق له الجو الذي لا يستطيع بدونه أن يفكر أو يكتب ،
 جو الصمت ، الصمت الشامل الوارف العميق ، الصمت التابض بالحركة ،
 الزاخر بالقوة ، المثقل بالفكر ، ذلك الصمت الذي كانت تفهم

« جورجيت » أسرارها وكنوزها، وتحدث الشاعر عنه في رسائلها ، وتغريه
ببحثه وتحليله وتمزيق الحجب عن غوامضه .

وكان عقلها النابه يطر الكاتب أغرب الأفكار . وأدق الملاحظات ،
وأعجب الحقائق . في غير ما كلفة أو إعنات . أما هو فقد كان إنساناً
منكمشاً منظوياً عجيباً . كان برغم حبه الشديد لها لا يعرف كيف
يخاطبها ، أو يتودد إليها تودد الذكر للأنثى . أو يعبر لها عما تكنه نفسه
في أسلوب حار يوأم مزاجها العاصف .

كان يقف منها موقف المتفرج المشدوه . يستمرئ أحاديثها ، ويعب
في فيضها ، وهو مغرق في صمته ، راسخ في هدوئه . منطو على نفسه ،
بخشى الكلام لئلا يتبدد فكره ، ويخشى الإعراب عن حبه لئلا ينمو
الحب ، ويصبح شغله الشاغل ، فيصرفه عن واجب التفكير والعمل
والإنتاج ! كان حائراً بين حبه وعبقريته ، بين غرامه ورسالته ، بين قلبه
النزاع إلى الفوضى ، وعقله التواق إلى النظام ولكنه في رسائله إلى
« جورجيت » كان يفرج عن نفسه فيقول :

« بي خوف من رؤيتك مرة ثانية . على أنى لا أتمنى غير هذا ...
إني لأخاف على حبتنا أن يموت من فرط جماله نفسه . كل ما وقع لنا
يبدو لي جديداً وغير منتظر ، لم أتخيله لا في حلم ولا في الحياة » .

وكانت تقول هي في رسائلها : « أود أن أحقق لك السعادة ولو
تعارضت مع سعادتي . لقد أثرتك على نفسي منذ عرفتك ، لأنى لا أحب
إلا الخير الذى أستطيع أن أفعله . ولقد أدركت أن فى وسلك فعل الخير
أكثر منى ... إن حبتنا لنادر وعظيم . إنه لا يمكن أن يكون زهرة صغيرة
غرسها شهوتان ، إنه زهرة تنبعث من الأرض وتتجه نحو الشمس . إنه نفسه
أرض وشمس وسماء ! » . وكان يجيبها قائلاً :

« إني أحبك فى جنون ، أنت من أوفر الكائنات حياة . أنت مخلوق
من حياة ونور . كل ما تمسه يدك الناصعة يصبح نوراً . ليس فى وسعى

أبدأ أن أردد في قوة كافية كل ما علمتني إياه ! » .
 ولكن الغريب أن « ماترلتك » كان يكتب هذه العبارات ولا يتفوه
 أبداً بمثلها ... كان يبدى من الحب في رسائله أضعاف ما يبديه في حديثه
 ومظهره . كان يذكر الحب وهو بعيد عن المرأة خشية أن تطمع فيه .
 وتستبد به ، وتتسلط عليه . وتحل عبادتها في كيانه محل عبادة الأدب والفن !
 فالصراع بين الحب والفكر ، بين الجسد والعقل ، بين العاطفة
 والعمل ، كان متقدماً في نفسه مشتتاً في عزمه وإرادته ، يهيب به ألا
 يسلس قياده للمرأة التي كانت لا تفتأ تحوم حوله وتغريه .

وهكذا اصطدمت « جورجيت » بشخصية العبقرى الخفية ، وأدركت
 بسليقتها أنه أناني ، وأن قوته تنحدر من أنانيته . وأن هذه القوة التي أحبته
 من أجلها هي التي قد تهدد في النهاية حبها وتقتله ...

أحست بالرجل على حقيقته . رآته إنساناً متبرماً متجهماً مستوحشاً
 نفوراً ، يتذرع بالصمت ، لا لينمى في نفسه مشاعره وفكره فحسب .
 بل ليقصى عنه فضول الآخرين ، ليطرد عنه أفراح الناس وأتراحهم ،
 فلا تتسرب إليه شواغلهم ، ولا تعكر عليه في هدأة التأمل مجرى العمل
 الأدبي الأثير !

العمل الأدبي ! ... أجل ... ذلك هو دينه وغرامه وواجبه ! إنه
 يمثل الحب في قصصه أروع تمثيل ، ثم يعز عليه أن يلقي « جورجيت »
 بعبارة حب قوى واحدة ! ...

إنه يدخر الحب والعطف والرفقة والحنان وسائر الانفعالات البشرية
 للعمل الأدبي وحده ، العمل الأدبي الذي هو في نظره مبعث كل شيء
 وغاية كل شيء .

أجل .. إنه لا يعرف الحب الإنساني البسيط العنيف ، لا يحس
 لا بالقلق ، ولا بالحيرة ، ولا بالغيرة ، ولا بنعيم اللقاء أو جحيم الفراق ،
 أو جنون التسلط الكامل على من يحب .

إنه يحتقر كل هذا ويمقتة ... إنه يخاربه في نفسه وفي سواه . بل يجهد في أن يطهر منه صديقتة نفسها ...

ولكن « جورجيت » لم تستطع أن تتحمل . أصابها من فرط الخسرة شبه ذهول . بيد أنها كانت تحب الشاعر . وتود أن تسعده . وتتوق لأزدهار خصائصه الخالقة على يدها . وبلوغه الشهرة والمجد تحت تأثير وحيها . فنزلت على حكمه . وامتثلت لإرادته وأطاعته طاعة عمياء كبحت جماح عواطفها كما يريد . خنقت نداء حواسها كما يطلب . لزمت الصمت مثله . واعتادت العيش وفق هواه . بلا حب مشترك عميق صحيح . ساكنة هادئة عاقلة . آلة مسخرة لخدمة العبقري !

وكانت سعيدة بذلك لا تشكو ولا تتململ . تفكر فقط في حاجة الشاعر إليها . وفي جو الراحة الذي يلتصق منها . فتنصح الخادمة بتخفيض صوتها . وتأمرها بالتمهل في سيرها . وتصرف الدخلاء والمستطلعين . وتمشي على أطراف قدميها . وتفتح الأبواب وتغلقها في رفق . مخافة أن يفرع الرجل فيكف عن العمل . فيذهب جهد اليوم هباء !

ولقد ذهبت في التضحية إلى أبعد من هذا ... أرادت ألا تحمل الكاتب عبء الإنفاق عليها . فالتحقت بالمرح الغنائى . ومثلت في الأوبرات الكبيرة . وظفرت بالشهرة والمال هي أيضاً . ثم أنكرت نفسها في النهاية . وأبت إلا أن تنقطع لخدمة « ماترلنك » . فكتبت البحوث الأدبية عنه . وطافت بمختلف العواصم تلتقى المحاضرات عن أعماله . ثم تخلت عن فن الغناء . وطاب لها أن تندمج اندماجاً تاماً في فكر الشاعر فانصرفت إلى تمثيل الأدوار النسوية في مسرحياته الشهيرة : « مونافانا » و « مريم المجدلية » . وغيرهما .

وقد يتساءل القارئ . ما سر إخلاص هذه المرأة للكاتب الأنانى القاسى . أهو الحب ؟ ... نعم . ولكن في اتجاهين استبدا بالمرأة استبداداً عنيفاً ومطلقاً .

كانت « جورجيت » تحب موريس . ولكنها كانت قبل كل شيء تحب الصورة الشعرية التي صاغها منه خيالها . وتحب أسلوبه وفنسه . وما في أدبه العالی من نزعات مثالية . وتأملات روحية . وأخذات صوفية مشرقة وخارقة . هذا ما كانت تحبه فيه . وهذا ما أخلصت له من أجله . وما أنكرت ذاتها لإحيائه في عمله . ولكنها كانت في الوقت نفسه امرأة أحوج ما تكون إلى حب آخر . حب يحقق اثتلافاً وثيقاً . وتواصلًا عميقاً واندماجاً كاملاً بالجد والروح .

وكان أقصى أمانها أن يبادها « ماترلنك » هذا الحب . وأن ينزل بعض الشيء عن عبادته للفكر . وينظر إلى قلب المرأة نظرة هوى بشرى سليم . بيد أنه أعرض عن مشاعرها الأنثوية الحميمة . وأحبها كطيف من أطياف الجمال . واستخدمها أداة لوحية فقط . فارتدت عواطفها إلى أعماق نفسها وظلت تتجمع هناك متلهفة وصابرة . ثم انطلقت مذهولة ومحبولة تشهد مصرع أمانها وأحلامها .

وزاد في عذابها أن العبقرى كان فوق إعراضه عنها لا يتورع عن استباحة كل شيء جميل وثمين فيها . كان يستغل حسنها وصبابها وذكاءها . كان يقنص ثمرات روحها ومولدات ذهنها . كان يسرقها ... ولما كانت تبعث إليه برسائلها المليئة بالأفكار العميقة والخواطر الشائقة . كان لا يتردد في السطو على تلك الخواطر والأفكار ، وانتحالها لنفسه . ومزجها بمادته ، ودمسها بين سطور كتبه ، كأنها من بنات فكره ومن فيض عبقريته . والحق أن أبدع مؤلفاته : « الحكمة والقدر » و « كنز المتواضعين » و « أجلافيين وسيليزيت » فيها من آراء « جورجيت » وخواطرها ما عرف الكاتب كيف يفيد منه لنفسه ، ويطبعه بطابعه .

وعلى الرغم من كل هذا . فهو لم يستطع أن يحبها الحب الذي ظلت تنشده . لم يشفق عليها . لم يرث لحالها . لم يعترف لها يوماً بأى جميل . وما إن تقدمت به السن ، ولاحت في جو كهولته فتاة لم تناهز

العشرين كانت قد مثلت دوراً صغيراً في إحدى مسرحياته ، حتى افتتن بسحر شبابها ، وبدأ له أن في وسعه تجديد عقله وإحساسه وخياله في ضوئها . فرحب بمقدمها . وأنزلها من قلبه ومن داره منزلة النعمة المنقذة . وجمع بينها وبين « جورجيت » في بيت واحد ثمانية أعوام كاملة . ثم جعل يستمع لوشاياتها ، ويغض الطرف عن دسائسها ، حتى انتهى به الأمر إلى الخضوع لسلطانها ، والتزوج منها ، والاتصال عن « جورجيت » .. وبعد أن كانت « جورجيت » كل شيء في حياته أصبحت لا شيء . بعد أن كانت عروس الشعر الملهمة ، أصبحت المرأة المنبوذة التي هدم حبيبها هيكل حبا ، وشردها ، وسلط عليها أشباح الفقر والحيبة والشيخوخة تطاردها وتسمم ما بقي من أيامها !

وهكذا أقدر على مخلوقة ضعيفة ، حادة المزاج ، ملتبهة الخيال ، ساذجة القلب ، أن تقع بين مخالب عبقرى اتخذها وسيلة لا غاية ، فاعتصر حياتها ، وامتنص كل ما فيها ثم مجتها نفسه ، فألقى بها في عرض الطريق دون مراحة .

ولكن هل الذنب فيما أصابها ذنب « ماترلنك » ، وهل لنا أن ننتهمه بالشر المتأصل ، والجحود الفطري والقسوة المتعمدة ؟ كلا . إنها العبقرية تعيش لنفسها فقط لا لصاحبها ولا لأقرب المقربين إليه . وما العبقرى إلا نصف إله لا يستطيع أن يخلق إلا إذا سلب ... يأخذ من الطبيعة كل ما تصل إليه يده ، ليرده إلى الناس أصنى جمالا ، وأمتع لذة ، وأوفر غنى ! وهذه هي الأنانية الغيرية التي لا بد لنا من فرائس كى تعيش وتنمو وتزدهر ، ولقد كانت « جورجيت لوبلان » إحدى هذه الفرائس ، فتحطمت حياتها . ولكن ذكراها استظل على الأبد مجيدة ، لأنها كافحت وبذلت وضحت ، وأنكرت نفسها في سبيل ما جنته الإنسانية من آثار « ماترلنك » العبقرى !

الفريدو كاتالانى
أو

وثبة قلبت حرج



صحت الرسام « برناردو » لحظة . ثم تفرس في صديقه الموسيقى
الفريدو كاتالانى وقال :

— وإذن فأنت تؤمن بالحب بوصفه القوة الخالقة الكبرى . وتعتقد أن
الحب وحده هو الذى يمكن أن يلهب خيال الفنان ويضرم في نفسه الشعلة
المقدسة التى تدفعه إلى إبداع الروائع . أليس كذلك ؟
فقال الموسيقى وهو يشتف نفساً من سيجارته . ويرسل ذوائب دخانها
في الفضاء :

— لا ريب في أن الحب هو كل شيء بالنسبة إلى الفنان . الفنان
لا يستطيع أن يعيش في عالم مغلق شائع مألوف . الفنان لا يستطيع أن
يتحرك أو يتنفس وهو محبوس بين جدران قفص . الفنان لا بد أن يتجدد .
وهو إن لم يتجدد مات . والحب بما فيه من قوى التيقظ الدائم . والحركة
المطرودة . والانفعال المتعاقب . والكفاح المتواصل المحموم هو الذى يتعش
طبيعته . ويحدد وحيه . ويضاعف فيه إرادة الخلق والابتكار .
فصاح الرسام وهو يبتسم :

— ولكنك تصور الحب في شكل إعصار . فهل في وسع أى فنان
أن يفكر ويتأمل ويخلق وهو يعيش في شبه إعصار ؟ ...
فقال الموسيقى :

— إن إعصار الحب هو الحياة . وما دام الفنان قوياً فلا يجب أن
نخشى عليه ثورة الإعصار التى هى ثورة الحياة .
فلم يقنع الرسام وردد :

— أريد أن أفهم كيف يمكنك أن تخلو إلى نفسك وتصور الحياة
بفنك . وأنت تسمع زئير الإعصار . إن إعصار الحب قد يخلب لب
فنان ناشئ ، لأنه يزوده بالتجارب ، ويفتح أمامه أبواب الفكر والدنيا .

أما أنت . أنت الفنان الذى اكتمل وجرب الحياة . فمن واجبك أن تقهر
الحب وتقهر الإعصار . لتستطيع أن تصور فى هدوء الفكر انشابت الواعى
قوة الحب وقوة الإعصار ! لا .. يا صاحبنى ... الهدوء بالنسبة لك هو
الحافز على العمل . والسكينة هى الباعثة على التفكير . وراحة الضمير
والقلب أبلغ ألف مرة فى التأثير على نفس فنان مثلك من عاطفة الحب
المشوبة المضطربة . التى لا تعيش إلا فى عالم الجنون والفوضى .
واتأاد الرسام فترة أخرى . ثم انحنى على صديقه وقال وهو يتفرس فيه :

— لا تخدع نفسك . لقد عشت مع زوجتك « سيلفيا » حياة سعيدة
هادئة ، حياة مستقرة ناعمة . فاستطعت فى ظل تلك المرأة النبيلة العظيمة
أن تؤلف ثلاث مسرحيات غنائية ناجحة ومسرحية رابعة فذة هى « لوريلاى »
التي جعلت منك بين عشية وضحاها أكبر مؤلف موسيقى فى إيطاليا ...
والآن . . الآن وقد بلغت الثالثة والخمسين . تزهد نفسك فى الراحة ،
ويزهد عقلك فى الحكمة ، ويصبو فؤادك إلى الحب !! أجل أنت تحب .
تحب تلك المرأة . تحب « أدريانا » ، الممثلة المطربة التى حققت خيالك ،
وجسمت حلمك ، ومثلت فى مسرحيتك الدور الأول ... عشقتها ونسيت
زوجتك . زوجتك التى لولا حبها ورعايتها وإخلاصها المنقطع النظير
ما استطعت أن تخلق ذلك الفن الرائع الذى تقدمه اليوم هدية لسواها .
فاحذر ... احذر يا ألفريدو . أنت تغامر بعبقريتك من حيث تريد
ذا التالى والازدهار !

فصرخ الموسيقى :

— لم يعد فى مقدورى أن أبتكر نغمات أو أسجل لحناً وأنا أعيش
بعيداً عن « أدريانا » .
فقال الرسام :

— ولكنك تراها ، وتتصل بها ، ومع ذلك فأنت عاجز عن العمل . .
عاجز عن التفكير . لماذا ؟ . . لأنك مضطرب . . لأنك قلق . . لأنك

تحب ! أفى وسعك أن تنكر أنك أصبحت عاجزاً عن إتمام مسرحيتك الجديدة « وراء الأفق » ؟ لقد لحنت معظم مواقفها ولكنك أصبت بالشلل الذهني التام عندما أردت أن ترسم بموسيقاك ذلك المشهد الرئيسي الفاجع مشهد العاشق المعذب الذي خدعته معشوقته ، ومزقت بخيانتها قلبه وحياته . أجل . عجزت عن رسم هذا المشهد الذي هو دعامة مسرحيتك لأنك مسلوب العقل ، مشوش الفكر ، خاضع لسلطان الحب ممثلاً في تلك المرأة . فصاح ألفريدو :

— أنت واهم . أنا لا أشعر بالعجز عن الإنتاج ، وعن تلحين ذلك المشهد الذي يحيرني ويعذبني ، إلا لأنني في الحقيقة جبان !
— ماذا تقصد ؟ ...

فقال الموسيقي في صوت أجش :
— يجب أن أطلق زوجتي وأقترن « بأدريانا » . ومتى اقترنت بها استطعت أن أنتج وأبتكر وأجدد في وحياتي !
فهتف الرسام مستهولاً :
— تقترن بها ؟ تتخذ من تلك المرأة الغادرة المتقلبة اللعوب زوجة لك ؟
إنها الشيطان !

فغمغم ألفريدو :
— في وسع حبي أن يجعل من الشيطان الرجيم ملكاً كريماً !
فأمسك الرسام بكتفي صديقه ، وطفق يهزه هزاً عنيفاً ويقول :
— ثب إلى رشدك . ابق بجوار امرأتك . احرص على هدوئك وفكر في ذلك فقط . فكر في وضع ذلك المشهد الناقص من مسرحيتك ، ذلك المشهد الذي لو فشلت في تصويره ، فسينهار مجدك في لحظة كما تألق وازدهر في لحظة .

فقال ألفريدو وهو يرتجف :
— لا أستطيع .

فصاح الرسام وقد عيل صبره :

– إذن صارح امرأتك ولا تعذبها . أوبى لك أن تطلقها من أن تظل زوجها ثم تخدعها . إنها فى غرفتها تنتظر نتيجة مسعاى فنادها وخاطبها !
فشخص الموسيقى إلى صديقه مبهوتاً وقال :
– أكنما إذن على اتفاق ؟

ففتح الباب عندئذ فى عنف ، ودخلت الزوجة المخدوعة وهتفت :
– نعم . أنا ... أنا التى رجرته أن يتحدث إليك عماه أن يردك إلى صوابك . ولكنك مادمت تحب تلك المرأة إلى هذا الحد ، فاذهب إليها . حاول إن استطعت أن تفكر وتعمل وتخلق بجوارها . اذهب إليها وعش معها . ولكن امنحنى أملاً واحداً ، وعداً صريحاً ، هو ألا تفكر فى طلاقنا إلا بعد مضى ثلاثة أشهر . فإذا انقضت هذه المدة وشعرت بأنك لن تستطيع أن تجعل من ذلك الشيطان ملكاً ، كما قلت ، فعد إلى .. عد إلى يا ألفريدو وأنا أصفح عنك !

فذهل الزوج من هذا العرض العجيب وقال :

– لا أرغب فى أن أسومك مثل هذا الذل .

فقالت المرأة :

– ولكنى راضية بالذل والعذاب ، لامن أجلك أنت فقط ، بل من أجل فنك أيضاً ! لقد عشت معك عشر سنوات فشب عقلك أمامى ، وترعرع نبوغك بجوارى ، وأبذعت عبقريتك فى ظلى ، وبيات فنك قطعة من لحمى ، وجزءاً من دمى . على أن فنك يا ألفريدو هو أعظم منى ومنك . هو ملك الإنسانية لا ملكك . فأنا أحرص عليه كما أحرص عليك ، وأدود عنه كما أدود عنك . فاذهب إلى عشيقتك .. إلى دنيا الصراع والجنون والفوضى . وإذا أحسست أن الشعلة ما تزال متقدة فىك ، فابق هناك وإلا فعد إلى أضرم النار فى صدرك مرة أخرى !

وصمتت وهي تلهث ... وفجأة انبعث من غرفة مخدعها صوت شقيقها تدعوها لإرضاع طفلها . فاختلجت وأسرعت إلى المخدع ومكثت فيه قليلاً . ثم عادت وهي ترتعد . وما كادت تدخل الحجره ، حتى أبصرت زوجها وقد أشرق وجهه . وزايلته بغتة عوامل الخم والقلق يلقي معطفه على كتفه . ويبحث عن قبعته . ويهم بالخروج . فعدت إليه ملهوفة . وقالت وقد جحظت عيناها :

— أفي نيتك أن تذهب إليها الآن ؟

فتطلع الفنان إلى زوجته مستغرباً وقال :

— أليس هذا هو ما اتفقنا عليه ؟

فصرخت :

— الليلة لا ... لا تذهب الليلة ... أوشك الليل أن ينتصف .

فتمهل إلى غد فقط . أتوسل إليك ...

فحدق إليها ساخطاً متضجراً وصاح :

— ما معنى انقلابك هذا ؟ ..

فجثت أمامه وقالت وهي تحبس دمعها :

— ابق هنا ... إلى الغد ... إلى الغد فقط .

فلم يحفل بها ، ودفعها عنه في عنف ، واتجه نحو الباب وخرج .

فارتمت على صديقه ، وأمسكت به . وحمست في أذنه وهي تهذر وتنتفض :

— لم أذهب لإرضاع طفلي ... لقد نادتنى شقيقتي لتفضي إلى

بما أسره إليها الآن ابن عمي الذي كان هنا ، وأثر أن يذهب دون أن

يلتقي بزوجي . كنت قد عهدت إليه بأن يراقب مسلك « أدريانا » ...

فأنبأ شقيقتي أن المركيز دي مونتبي . عشيق « أدريانا » المفضل ، عشيقها

الشاب ، الشاب الثرى الجميل الذي تحبه وتخدع من أجله زوجي ، هو

الآن معها ! في بيتها ! فاسرع يا صديقي ولا تضيع الوقت . أسرع وإلا

تهور ألفريدو واندفع إلى ارتكاب جريمة ! اخرج بنا من هنا ... نحو هذا الشارع الخلقى .. يجب أن نسبق ألفريدو إلى هناك !

ودفعت بالرجل إلى الخارج . ثم جاشت عواطفها . فانطلقت متأبطة ذراعه . وانفجرت من عينيها اندموع .

وانطلقا في الشارع الكبير ، واخترقا أزقة ساكنة . ودروباً ضيقة ، حتى بلغا ميداناً فسيحاً في وسطه حديقة عامة . ينهض في طرفها منزل صغير هو منزل المغنية « أدريانا » وقد بدت جدرانها ناصعة البياض في ضوء القمر الساطع . فاتجها نحوه وقلباهما يخفقان . وأنفاسهما المتعاقبة تكاد تخنقهما . وإنهما ليتقدما صوب بابه ، وإذا بهما يبصران في إحدى غرف المنزل خلف ستار كبير أسدل على النافذة المفتوحة ، شبحتى رجل وامرأة يتعانقان . فأرسلت الزوجة المخدوعة صرخة ممزقة وهتفت :

— هاهما ... « أدريانا » وعشيقتها ! لقد صح ما قاله ابن عمي . ينبغي أن أراها . أن أسبق زوجي إليها . أن أحول بينه وبين ارتكاب جريمة يثار بها منها . وإما أن تتخلى عنه . وإما أن أصارحه بالحقيقة وأكشف عن وجهها النقاب .

وتحصلت الزوجة من ذراع الرسام . ولكنها قبل أن تعدو وتتجه صوب الباب ، كان ألفريدو قد برز من الشارع المواجه . فما إن أبصر زوجته وصديقه حتى ذهل وصاح :

— أنما هنا ؟ ... تقتفیان أثرى ؟ ... ولماذا ؟ ...

وحقق إليهما فألفاهما صامتين حائرين مرتبكين . فساورتها الشكوك بغتة . فأجال الطرف حوله ناقماً ، وهمز كتفيه . وهم بأن ينطلق نحو البيت وإذا ذلك رفع رأسه . فلمح الشبهين المتعانقين يتماوجان خلف الستار في ضوء القمر . فضل عقله واندفع مستهولاً . فارتمت عليه زوجته وصاحت :

— لا تدخل . إنها في صحبة رجل ... علمت الساعة أنها تخونك ،

فجئت مسرعة لأنفاسك . إن كبرياءك قد تذهب بلبك وتوردك مورد
الملكة . فلا تستسلم لحبك وغيرتك . لا تغامر بحياتك من أجل غانية .
عد معنا . عد معنا إلى البيت !

وتشبثت به ، وطفقت تضمه إلى صدرها وتقبل يديه وهي تتوسل
وتبكي . فثار ثائره ، وزجرها في غلظة وقسوة ، وتحول نحو الباب . فلحق
به صديقه ، وحاول جهده أن يثنيه عن عزمه . ولكن ألفريدو دفعه في
عنف . وهرق من الباب ، فتبعته زوجته ، وانطلق صديقه في إثرها .

وصعد الموسيقى الدرج وثباً ، ومضى يدق باب منزل المرأة وهو تائه
محموم ، لا يشعر بمن حوله ولا يحس إلا بسورة الحقد والكراهية التي
كانت تسوقه ، وتضرم في خياله نية القتل والانتقام .

وفتح الباب بعد لحظة وبرزت منه « أدريانا » مستنكرة ومذعورة .
فما إن رأت ألفريدو وزوجته وصديقه حتى بهتت وتراجعت وجمعت
أطراف غالاتها على صدرها العاري ثم قالت في صوت خشن أجش :
— ما تعودت أن أستقبل إنساناً في مثل هذه الساعة ، ولا أعتقد أن
من اللياقة أن يتزاور الناس بعد منتصف الليل .

فلم يكثرث ألفريدو لكلامها ، ونحاها عن طريقته ، ودخل البيت
متبوعاً بزوجته وصديقه . فاشتد سخط المرأة وصاحت :

— اخرجوا !

فعض ألفريدو على شفثيه وصرخ :

— إنه هنا ... إنه في مخدعك !

وانقض عليها كوحش ، وأوشك أن يقبض على عنقها ليخنقها .
ولكنها تملصت منه ، ووقفت تجاهه منصوبة القامة ، عالية الرأس ،
وقالت في صوت يمج غضباً وكبراً وتحدياً :

— أجل . إنه هنا . في مخدعي . وأنا أحبه . أتفهم . لقد عطفت

عليك ولكني لست حمقاء لأكتفى برجل مهدم مثلك . هو الذي أحبه



لا أنت . ولو اجتريأت وخطوت إلى الخدع خطوة واحدة . فأنا التي سأردك على أعقابك محطماً ومهزوماً قبل أن تلحق به أى أذى !
فلم يصدق الموسيقى سمعه . وترنح تحت وقع الإهانة . أحس أن ذهنه يروج . وعقله يختلط ، ودمه يغلي . والصراع بين الحب والكبر . وبين الحب والغيرة . يُرجف أعصاب يده المتوترة المتحفزة . ويدفعه إلى انتزاع مسدسه وإفراغ ناره في صدر المرأة الغادرة .

وهوى تحت وطأة الصراع ، واستدار وتحسس جيبه . فلمحته زوجته وصرخت . ولكنه غافلها وانتزع المسدس بالفعل ، واتجه صوب المرأة . فتطلعت إليه « أدريانا » شاحخة مستكبرة . وقالت وهي تبسم ابتسامة ظافرة وتومئ بأصبعها إلى مخدعها الذي انبعثت منه في تلك اللحظة حركة عنيفة طارئة :

-- أسمع يا ألفريبدو ... لن تصل إليه ! لقد وثب من النافذة ونجا !
فاقتلني . اقتلني إذا شئت . ولكن اعلم أنى سأموت سعيدة لأنى أنقذت الشاب الذى أحبه .

فتمزق قاب الموسيقى . سحقه الكمد والذل . ولأول مرة في حياته ، لأول مرة منذ أن عرف هذه المرأة وأحبها ، أحس عذاباً مبرحاً ، عذاباً جارفاً ، عذاباً مهلكاً ومديبياً لم يحس به أبداً . فنظر إلى نفسه ، ونظر إلى المرأة ، ثم نظر إلى المسدس الذى كان يتطوح في يده ، وأطرق برأسه وتحول ... تحول فجأة ... تحول بالرغم منه ... تحول تحت تأثير قوة لا تقاوم ... تحت تأثير سيل دافع من الصور والأفكار والأخيلة . احتل ذهنه ، وغمر كيانه ، وملك عليه كل عاطفة وكل شعور . فألقى بالمسدس جانباً وتقدم ، تقدم بخطى وثيدة ، تقدم كمن يمشى وهو نائم ، واتجه إلى هناك .. إلى أقصى البهو ... إلى حيث ينهض المعزف الكبير الذى اعتادت « أدريانا » أن تعزف عليه أدوارها الغنائية للتمرس بها .

جلس ألفريبدو إلى المعزف ثم فتحه في عنف ، وشرع يعزف

عليه في لطفة وحماسة وشبه جنون ... شرع يعزف القطعة الموسيقية المنشودة :
 القطعة الموسيقية التي كانت تنمّص مسرحيته الأخيرة . القطعة الموسيقية
 التي انتزعها الآن من قلبه . والتي كان يريد أن يصور فيها عذاب
 عاشق مخدوع . والتي ظل الأشهر الطوال يعالج وضعها على غير
 جدوى ...

وبدل أن تُسمع في الغرفة طلقات رصاص . اندفقت أنغام متأججة
 كالنار . مدوية كالعاصفة . ممزقة كاليأس . متحشجة كالموت .
 رائحة في صدقها ونبضها الحي روعة تأخذ بمجامع الأبواب . فوجم الكل .
 وأقبلوا على الموسيقى مأخوذون . ولكنه لم يحفل بهم . وانطلق يعزف وإلهامه
 يخفزه . وفنه يخلبه . حتى كلت يداه واستنفدتا في النهاية عصارة قلبه
 وعبقريته . فمهن كمنجبول ولم يتكلم . لم يتلفت . لم يلق على المرأة الغادرة
 نظرة . بل اتجه نحو الباب . ومشى أيضاً كما يمشى النائم . وخرج متبوعاً
 بزوجته وصديقه وهو يترنح كالشارب التمل .

وقبل أن يبلغوا البيت . التفت الموسيقى إلى صديقه الرسام وقال :
 - أرايت يا برناردو ؟ . هذا هو فعل الحب يا صاحبي . واوانى لم
 أعشق وأخذع . لما استطعت أن أحس ألم الخديعة ، وان أبداع هذا
 الألم في القطعة التي كانت تنقص مسرحيتي . ومع ذلك فأنت على حق .
 وليس في مقدوري أنا الكهل أن أعاود هذه التجربة . وإلا انسقت إلى
 ارتكاب جريمة ... يجب أن أعيش منذ اليوم لفني فقط . على أن أستمد
 من آلامي وتجاربي وحدها مادة لهذا الفن !

وتحول نحو زوجته . ولاطف خدها بأنامله . ثم تأبط ذراعها ،
 وتناول يدها المرتعشة ، وانحنى على تلك اليد التريهة المخلصة الوفية ، وضمها
 إلى صدره ثم قبلها !

obeykandl.com

ليون تولستوى
أو

العبيد في مجاه زوجته



كان تولستوى شقيماً بزوجته ، كما كان سقراط من قبل ... لم تؤمن زوجته يوماً بتعاليمه ولم تفهمها . فاعترضته في تأدية رسالته . واجتهدت في أن تحول بينه وبين تحقيق مبادئه . وأوغرت صدور أبنائه عليه . وجعلت من أفراد أسرته أعداء له ...

كانت امرأة مثقفة . ولكنها كانت متعصبة لتقاليد بيتها . مفتونة بحب العظمة والشهرة والمال والجاه العريض . فلما خرج تولستوى على وسطه الأرستقراطي وأهم بحياة الفلاحين . واندمج فيهم . وشاركهم في فلاحه الأرض وفي مختلف الأعمال اليدوية المرهقة . وانقسم عليه مريده . فريق يؤيده وفريق يعارضه . ذعرت الكونتس ، واستهولت من زوجها هذا التحول . ورمته بالذوس والجنون . ولما كتب وصيته المشهورة التي نزل فيها عن جميع حقوقه في مؤلفاته للشعب ، نغصت المرأة عليه عيشه ، وسعت إلى سرقة وصيته .

والواقع أن الكونتس تولستوى ، عندما نشرت مذكراتها ، أرادت أن تبرر مسلكها ، وتثأر من زوجها . وتمثل ذلك الرجل الوديع الطيب السمح في صورة الإنسان الأناني المتكبر المتعصب القاسي . ولكن من ينعم النظر في مذكراتها يحس على الفور أنها أخفقت في انتقامها ، وأنها لم ترسم صورة صادقة من زوجها ، بل رسمت في الحقيقة صورة مروعة منها هي . فهي تعترف أنها لم تكن في يوم من الأيام سليمة الأعصاب ، متزنة العقل والعاطفة ، بل كثيراً ما كانت تفكر في الانتحار عقب كل مشادة تقع بينها وبين زوجها . ولقد كانت فكرة الانتحار هذه مستولية عليها منذ صباها ، تراود ذهنها ، وتحتل خيالها وتبتليها بنوبات متعاقبة من الهستيريا . والعجيب في أمر هذه السيدة المثقفة ، أنها لم تستطع أبداً أن تسيطر بثقافتها على فكرها وأعصابها . فكانت لا تفهم كيف يمكن لزوجها أن

يظهر في بيته وأمام الناس بمظهر انبساطية والبهجة والفرح ثم يخفى في الوقت نفسه حقيقة شخصيته . ولا يحفل البتة بالأثر الخضير الذي تحدثه أفكاره وتعاليمه في محيط أسرته .

كانت لا تفهم أن هذا التناقض في مسلك تولستوى . بل هذا الازدواج في شخصيته . يرجع إلى طبيعة عبقريته التي كانت تفرض عليه احتمال الحياة في بهجة ومرح وهي تضطره رغم ذلك إلى التثبيث بفكره . وسر هذا الفكر المتمرد الثائر خلف مظاهر الرقة والنباشة التي يحتمها عليه مركزه بوصفه رب أسرة لا تشاظره آراءه ولا تعاونه على تحقيقها . وهكذا أهمته امرأته بالأنانية والقسوة والتناق . لم تفهم أن بشاشة العبقرى الظاهرية التي تتعارض مع صرامة أفكاره . ليست قسوة ولا نفاقاً . وإنما هي رغبة نبيلة في مسالمة خصوم يمتون إليه بأوثق الصلات . أو هي منصرف يُلطف من ألم التفكير . أو هي اطمئنان إلى الحقيقة التي انتهى إليها العبقرى ، أو هي فترة مهادقة يعقدها العقل لمصلحة العمل ...

ومما يدل على مبلغ تحامل الكونتس على زوجها : أنها قد أهمته أيضاً في مذكراتها بالصلف والاعتداد بالنفس والظماً الجنوني إلى الخجد ، بدون أن تدلل على ذلك ببرهان واحد أو بحادثة واحدة . وهي فوق ذلك تنتقص في مذكراتها من قدره ، وتعلي من شأنها هي . فتقول عنه بالحرف الواحد : « إنه مخلوق قادر تنبعث من جسده ويديه رائحة كريهة » . ثم تقول عن نفسها : « أنا امرأة مولعة بالطهارة ، وكل شيء ظاهر هو شيء مقدس لدى . وإني في أعماق نفسي أؤثر الفنون والآداب والقيم المعنوية العليا على كل ما هو قافه ووضع مما تهتم به معظم النساء .. » وفي هذا ، وفي غيره ، تميظ الكونتس اللثام عن وجهها . وتدلل على أنها كانت مزهوة بفضيلاتها . فخوراً بذكائها . غيراً من زوجها . تعتقد أنها مساوية له في التفوق ، وأنها مصدر وحيه وباعث عبقريته ...

على أننا نشعر في أقوالها بشيء من الصدق عندما نتحدث عن حب

تولستوى الشديد لها . بيد أنها في هذا الجانب الوثيق الصلة بأنوثتها ، كانت أيضاً مغرورة ، وكانت واهمة . لأن تولستوى كان يحبها بجسده ويكرهها بقلبه . كان يندفع إليها بحيويته الجثمانية المتدفقة لا بفكره ولا بوجوده . كان كمعظم الأزواج الأقوياء يتلهف على امرأته ، فتمن أن المرأة أن هذا التلهف الحسى المجرد هو الحب الكامل العميق . فتأخذها نشوة الاستبداد والكبر ، فتحاول أن تمتلك زوجها ، وتحوزه ، وتخضعه . وتسيره وفق مشيئتها . ولكن الزوج لا يكاد يرتد إلى عقله حتى يرى امرأته على حقيقتها . فلا يتردد في محاسبتها على أخطائها ونقائصها حساباً عسيراً .

وهذا ما كانت تسميه الكونتس أيضاً تناقضاً . إذ لم يكن في وسعها أن تدرك أن تولستوى الذى أحبها بجسده كان يريد في الوقت نفسه أن يعجب بها بعقله . كان يريد لها مخلصاً لفكره ، أمانة على رسالته ، حريصة على مبادئه ، مشجعة له على توضيحاته ، تشاركه في مطالب العقل والروح كما كانت تشاركه في رغبات الحس والبدن !

وهذا الخلاف بل هذا الصراع هو الذى حفر الهوة العميقة بينه وبينها ، تلك الهوة التى نشعر بعمقها في هذه الرسالة القذة التى كتبها تولستوى إلى زوجته :

قال الراوى :

« لن أرجع إليك هذه الليلة يا عزيزتى . سأمكث في بيت صديقى « فيدور » حتى أطمئن إلى مستقبلنى معك ، وأثق بأن كل شىء فىك قد تغير .

وقد تدهشك منى هذه الجرأة وهذا العزم . ولكن ما حيلتى ، لم يعد فى وسعى أن أحتمل . إن حياتى بالقرب منك أصبحت بليدة خاملة بحيث بت أخشى منها على شخصيتى . وعلى عملى ، وعلى كل ما كنت أحلم به من عظمة ومجد .

وأرى من بواجبى فى هذه الساعة الفاصلة أن أشرح لك كل شىء ،

وأصارك بالسبب الذى من أجله عقدت عزمى على مغادرة البيت ...
 أنت يا عزيزتى امرأة مصابة بجنون الحب والغيرة . لم يكد القدر يحقق
 أحلامك ويجعل منك زوجة لى ، حتى اضطرب عقلك ، واستعرت عواطفك
 وخيل إليك أن الزواج لم يخلق إلا ليكون وسيلة مشروعة يجب أن تسخر
 لخدمة الحب والغيرة .

قال فى نظرك ، ولاسيما الحب المتقدم غيرة وشكاً ، هو المجهود الفرد
 الذى يجب أن تبذله المرأة فى ظل الزواج ، وهو الغاية الوحيدة التى من
 أجلها تتزوج ، وهو المتعة الدائمة التى يجب أن يقدرها الرجل ، ويعب
 فيها ، ويعيش منها ولها .

وهكذا أحببتى بعد زواجنا حباً صاخباً عاصفاً ، زين لك خيالك
 الجامح أنه لا يجب أن يضعف ، ولا يجب أن يفتر ، ولا يجب أن يسبقه
 شىء ، أو يعترضه شىء أو يقف فى وجهه سيلاً الجارف أى شىء ...
 وكنت أنا أحبك أيضاً وما زلت أحبك . ولكنى شعرت ، وأسفاه ،
 أنك تحبين حبك وغيرتك أكثر منى ، وتحبين ملذاتك ونزواتك أكثر من
 صحى ، وتحبين غرائزك أضعاف حبك لواجبك البيئى .

على أن واجب البيت عندك هو الحب . فالعناية بشئون زوجك
 لا تهملك ، وتربية أطفالك لا تهملك ، ومسئوليتك حيال عملى وجهادى
 لا تهملك أيضاً . كل هذه الواجبات المقدسة يخضعها جنونك لعاطفة الحب
 المقرونة بالغيرة . ومادامت هذه العاطفة مشتعلة فى صدرك ، فأنت
 مبهجة ، وأنت سعيدة ، وأنت معتقدة بل مؤمنة بأن زوجك هو الآخر
 لا بد أن يكون مبهجاً ، ولا بد أن يكون سعيداً ، ولا بد أن يكون مثلك
 مؤمناً بأن ملذات الحب وآلام الغيرة ينبغى أن تظل فوق مصلحة العائلة ،
 ومصلحة الأبناء ، ومصلحة العمل ، وقانون الحياة بأسرها . تلك هى
 نزعتك الطائشة . ذلك هو شيطانك . أنت عاشقة لا زوجة ، أنت أنى

لا امرأة ، أنت غريزة تسعى لا مخلوق اجتماعى عاقل متزن يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات .

وإني لأصارك هنا بأن حبك العاصف الغيور المحبول أرهقنى وأضجرتى ولفنى فى شبكة مروعة من البلادة والكسل والحمول والظلام .
والحق أنى بت أنحث عن نفسى فلا أجدها . وأفتقد عقلى فيفتر منى ، وأهيب بإرادتى فلا أقع إلا على أعصابى الخائرة . وقواى المحطمة .
وعزى المسلوب !

نعم .. إن عدواك سرت إلى .. فأنا اليوم خائف منك وخائف من نفسى ... خائف منك على شخصيتى وعبء ريتى وعملى . وخائف من نفسى أن أطاوعك فأجهز بيدي على أحلامي ومستقبلى . وهذا الخوف المزدوج هو الذى دفعنى إلى الرحيل ... إذ كيف يمكن أن أعيش مع زوجة تآبى إلا أن تمثل طوال حياتها دور العاشقة المفتونة الغيور ؟ ...

إن الحب يا عزيزتى جميل . ولكنه ليس كل شىء فى الحياة . وأروع ما فى الحب هو التضحية . فإذا لم تضحى ببعض حبك من أجل أسرته وأولادك وزوجك ، فأية قيمة لهذا الحب وأى نفع منه ؟ ... إنه ليتحول إذن إلى أنانية جنائية لا بد أن تدمر الأسرة ، وتقمضى على الحب نفسه شر قضاء !

وأنا أحس أن حبنى لك سيموت من فرط عنف حبك وغيرته وجبروته المتسلط الأعمى .

فتوبنى إلى رشدك وفكرى .

أنعمى النظر وافهمى . افهمى أن على الرجل فرضاً آخر غير الحب . وعملاً آخر غير العاطفة ، ورسالة أخرى غير الفناء والموت بين أحضان امرأة .

الرجل يعيش للبيت والعالم ، للقلب والعقل ، للأسرة والإنسانية . فلا تحبسه بين جدران قلبك ، لا تسجنه بين حنايا ضلوعك ، لا تقتليه

في حيوانية بدنك ! ...

إنك إن أطلقت الرجل كسبته . وإن حررته أنقذته ، وإن تعففت

عنه ولو فترات ، سموت به وقويته وشجوعته وأغريته بعظام الأعمال .

فاطلميني من ربة حبك المحزون وإلا أطلقت نفسي . طهريني من
لؤثة غيرتك الوحشية ، وإلا طهرت نفسي . مكنتني بتضحيتك في سبيل
أولادك وبيتك من أن أضحي أنا الآخر ببعض قوتي وشبابي في سبيل إنقاذ
نبوغي وتوكيد عبقريتي وخدمة العالم .

إن مجد المرأة لا يتمثل في حب الرجل : بل في استخدام حبها وحنانها
لخلق الرجل ! ... فاخلفيني بحبك بدل أن تقتليني . أنقذني البقية الباقية
من قوتي بدل أن تجهزي علي . ولكنك لو استرسلت في غيك : وأبيت
إلا أن تتبعي شيطان حبك وغيرتك : فسيثبت لك الزمن أن في مقدوري
أن أدافع بمفردى عن شخصي ، وأدافع بمفردى عن عملي . وأستغني آخر
الأمر عن حبك كما استغنيت أنت عن التفكير في مصلحتي ! ..

هذه رسالتي إليك فاقريها بإمعان وفكري ... فكري ولا
تنتظري أن أعود إلى البيت قبل انقضاء شهر على الأقل . . . فإذا عدت
ووجدتك المرأة الطائشة نفسها ، العاشقة نفسها المفتونة الغيور : والزوجة
المستهرة نفسها ، فسأقبل يدك شاكراً ، وأعتمد بعد الله على نفسي وأودعك
الوداع الأخير ! ...

• • •

وأحدث هذا الخطاب أول الأمر أبلغ الأثر في نفس زوجة تولستوى .
فهذبت بعض الشيء من أخلاقها ، ولطفت من غلواء حبها وغيرها .
ولكنها عادت فاستبدت بالرجل مما اضطره في نهاية حياته إلى هجر بيته
مرة أخرى ، والموت وحيداً شريداً بائساً في غرفة عارية بإحدى المحطات ...

obeykandl.com

هیلینا سیکورسکی
أو

النور الحفت-قد



كانت « هيلينا سيكورسكى » الشاعرة البولندية الفذة تجهل مواهبها ،
ولا تفكر إلا في العاهة التي ابتلاها بها القدر ... فهاهى ذى تتوكأ الآن
على عصاها ، وتمد ذراعها اليسرى ، وتضرب بها الهواء ، متحسنة طريقها ،
متلمسة أوراق الشجر . مشرّبة بعنقها إلى القناة الكبيرة الممتدة تجاه
حديقة البيت .

كانت تسير مرفوعة الرأس ، متشدة الخطى ، محذقة إلى السماء بعينيتها
السوداوين الواسعتين اللتين لم تعرفا نعمة النور منذ تفتحت أجفانهما على
ظلمة الدنيا .

كان وجهها مشرقاً ، وشعرها الثائر الجميل متناثر الخصلات على
خدها الناضر ، وابتسامها العريضة تورق وتزدهر على شفيتها الحمراءوين .
وظفت تمشي حتى بلغت القناة . فألقت على الأرض بعصاها ،
وارتمت فوق الحشائش ، ولبثت فترة طويلة ساهمة شاردة ثم حنت رأسها في
لوعة وإعياء ، وتقلص ظل ابتسامتها الساحرة ، وتحدرت على خدها دموع .
وعادت فالتقطت عصاها ، وأخذت تنكت الأرض وتفكر ...

لماذا قذفت بها الأقدار إلى هذه الدنيا ، وفي سبيل أية غاية مجهولة
ولدت عمياء ، وقدر عليها أن تعيش هكذا ، والناس جميعاً يمرحون بمتهجين
في فسحات الشمس والنور ! ... إنها بنت أعظم وأغنى رجل في هذه
القرية .. فلماذا لم يهبها والدها نعمة البصر ، وما جدواها من نعمة الجاه
والثراء ؟ ... كان أجدر بأبيها أن يحنقها في المهد من أن يصب عليها لعنة
هذه الحياة !

واحتاجت أعصابها ، وضاق ذرعاً بحظها . ولكن الجو ترفق بها ،
وأرسل إليها فيضاً ندياً من النسمات . فتأوهت من أعماق نفسها ،
ونخيل إليها أنها تسبح في عالم من القبل . فاستسلمت بجمع كياناتها لقبلات

النسيم . وسرعان ما سكنت ثورتها ، وقرت أعصابها ، وأمنت بالله .
 واستشعرت رحمته ، وذكرت النعمة الكبرى التي أسبغها عليها .
 وتطلعت أساريرها ، وأشرق وجهها البديع ، وهتفت : « كارل ! ..
 أين أنت ؟ .. »

وتلقت حوضاً كمخبولة ، ورفعت ذراعيها وعانقت الفضاء ، ثم مرغت وجهها
 في لحة النسيم الناضر ، وطفقت تلمسه كأنما هي تغمر وجه كارل بالقبلات ...
 ومضت هيلينا تنكت الأرض بعصاها ، وهي مطرقة برأسها : منظوية
 على حلمها ، تحديق إلى منطلق صوت الماء .
 وفجأة سمعت وقع أقدام خفيفة تدب على الحشائش . فهبت واقفة ،
 مدت يديها الحائرتين ، وصاحت : « كارل ! .. » .

فوثب إليها الشاب ، وتلقاها بين ذراعيه ، وضمها إلى صدره في رفق ،
 وعمغم وهو يقبل عينيها وجبينها : هأنذا ! .. هأنذا يا هيلينا ...

وأجلسها على العشب الأخضر الناعم ، وتربع بجوارها . فأمالت
 رأسها إلى كتفه ، وتصاعدت أناملها المرتعشة وجعلت تتحسس في لطفه
 وشوق وجه حبيبها .

وكان صامتاً وإجماً ، فتطلعت إليه مستغربة وقالت : ما بك اليوم
 يا « كارل » ؟ ...

فاستضحك وقال وهو يشيح بوجهه كأنه يخشى أن ينعم النظر فيها :
 لا شيء .. لقد بذلت جهدي في خدمة والدتك ثم أعددت لها ...
 لسيدتي .. طعام الإفطار ... ثم غافلتها وأسرعت تواء إليك ! ...
 فانبسطت أسارير الفتاة ، ورفت أهدابها غبطة وفرحاً ، وطوقت
 الشاب بذراعيها وقالت :

— لم نتم الدرس بالأمس يا « كارل » ويجب أن نعود إليه اليوم ...
 فتكلم ... أجبني ... إن النور أبيض ، أعلم ذلك .. ولكن ما هو البياض
 يا كارل وماذا يشبه ؟ ...

فأجاب الشاب :

— البياض يشبه الصفاء يا هيلينا ... يشبه الحلم الهادئ الجميل ...
يشبه السعادة التي نستمتع بها الآن ! ...
فقلت :

— والشمس .. الشمس الدافئة تارة والمتقدة أخرى ؟ ... أعلم أنها
حمراء ، ولكنى لا أفهم اللون الأحمر ... فحدثنى عنه ... أشعر أنى أحب
هذا اللون من دون الألوان جميعاً ! ...

فقال كارل وهو يرتجف :

— وأنا أحبه مثلك فهو كل الحياة ، وفي وسع إبصيرتك أن تراه .
أن تلمسه . فى نفسك ، فى صدرك ، فى شيابك ، فى قوة هذا الحب الذى
يجمع بينك أنت الفتاة العظيمة وبينى أنا الخادم الفقير الوضيع !
فقلت :

— إذن فاللون الأحمر هو الحب ... هو حب الشمس للأرض ،
وحب الرجل للمرأة ، وحب الإنسان للخير ؟ ..

فغمغم كارل :

— وللشر أيضاً ! ...

فبهتت الفتاة وقالت :

— كيف يجتمع الخير والشر فى لون واحد ؟

فأجاب الشاب :

— كما يجتمع الحب والغيرة فى قلب واحد يا هيلينا !

فقطبت الضريرة حاجبيها ، وضمت الشاب إلى صدرها ، وقالت :

— أذا أفهم الغيرة تماماً يا كارل ، وأشعر أن فى وسعى أن أقتلك

لو حدثتك نفسك يوماً بخيانتى !

فقال :

— وهذا هو الشر يا هيلينا ... هذا هو اللون الأحمر الصارخ الشبيه

بلون الدم ! ... ولكنى لن أخدعك أبداً يا هيلينا ! ...

فصاحت الفتاة وهي تقبله :

— وأنا لن أكون أبداً لسواك ! ... أنت كل حياتى ! ..

فحلق إليها فترة ، ثم قال :

— ومع ذلك فتمد تنصرفين فى غد عنى ! ... إن الطبيب المشهور :

العالم الفرنسى الكبير ، ذلك الرجل الذى حدثتك عنه والدتك بالأمس :

سيكون هنا بعد لحظات ... وقد تقع على يديه المعجزة ... المحجزة التى

يتوقعها الجميع ... قد يشفيك .. وقد تبصرين .. فترين النور ، وترين

الجمال ، وترين الرجال ، وتريننى أنا ... وعندئذ ...

فصرخت :

— اصمت ! ..

واستطردت فى صوت أجش :

— أجل . أنت على حق . وأنا مثلك . أنا خائفة من الحياة . خائفة

من المعجزة . خائفة من النور . أود أن أبصر ، وأخشى لو رأيت النور

أن تحدث فاجعة .

فصاح وهو يكاد يبكي :

— أرايت ؟ ! .. أنت منذ الآن ترتعدين ! .. أنت منذ الآن تشعرين

أن النور قد يعقبه ظلام ، وأنه لو قدر لفتاة مثلك أن تنعم بالنور بعد

ظلام فلا يمكن أن تكون هناك أبداً بسعادة بل شقاء .

فتأوت هيلينا وهتفت :

— إذن ليتنى لا أشفى أبداً !

ولم تكذ تم عبارتها حتى دق جرس باب الحديقة الخارجى . فأجفل

كارل وصاح :

— هذا هو الطبيب !

وارتمى على الفتاة ملهوفاً ، وعانقها عناقاً حاراً ثم نعمم : سيشفيك .

أحس أنه سيشتد عليك وأناك ستسنييني ! . . . لتكن مشيئة الله . . . إلى اللغد . . . عسى أن يكون في مقدوري أن أراك غداً . . . خذى طريقك من هنا ! . . . على مهل ! . . .

وتخلص من بين ذراعيها ، واندفع وسط الأشجار . وعندئذ وفيما هو يركض ، ليدخل القصر قبل أن يفتن أحد لتغيبه . تراجع مذعوراً ، وخفق قلبه إذ أبصر نفسه فجأة أمام سيدة القصر والدة هيلينا وجهاً لوجه . وارتبك وحاول أن يتكلم ، ولكن السيدة العظيمة أهابت به وهي ترعد :
- قف ! . . . أين كنت ؟ . . . على حافة القنطرة . . . في صحبة ابنتي ؟ . . .
أليس كذلك ؟ . . . ما شأنك بها أنت الخادم الأجير الوضيع ، ولماذا غادرت القصر فجأة وجئت إلى هنا ؟ . . . ليست هذه هي المرة الأولى التي تحاول فيها الاتصال خلصة بابنتي . لقد أثرت شكوكي ، فربصت بك اليوم ، وهأنذا أفاجئك معها ! . . . أسرع . . . أعد حقائبك حالا . . . وسيصرف لك الوكيل مرتبك على الفور . هيا ، وإياك ومحاولة الاتصال ثانية بهيلينا ! . . .

فامتقع وجه كارل ، وغشى الدم عينيه ، وتعم وهو يومي بأصبعه إلى باب الحديقة مستجدياً .

- ولكن الطبيب أقبل يا سيدتي . . . وهو سيعالج ابنتك وقد يشفيها . . .
فألتمس منك بل أتوسل إليك ، أن تصفح عني ، أن تبقيني في القصر ولو بضعة أيام أيضاً ، بضعة أيام فقط أطمئن فيها على سيدتي الصغيرة ! . . .
فصرخت ربة البيت في غضب :

- أعد حقائبك حالا وارجل .

فثارت نائرة كارل ، وهتف متحدياً :

- لن أرحل ! . . . سأمكث هنا ! . . . بجوار القصر ! . . . في كوخ أحد الفلاحين ! . . . وسأنتظر حتى يتم العلاج وأطمئن على سلامة سيدتي الصغيرة ! . . .

فرشقة السيدة بنظرة مستنكرة ، ثم هزت كتفها في احتقار وقالت :
- أنت وشأنك .

واستدارت وزدهبت لملاقاة الطبيب .

أما هيلينا التي كشفت لنا كارل عن عالم الأوزان والأضواء ، وهداها
إلى عاطفة الحب ، وبصرها بمعنى الخير والشر ، فقد أحست بغتة وعلى
دهش منها أن شيئاً عميقاً يستيقظ فيها ، وأن قوة طارئة عجيبة تستبد بعقلها
وخيالها ، وتأتي إلا أن تتدفق من ذهنها وتفيض . فلم تكذب تخلو بنفسها في
حجرها حتى شرعت تكتب بطريقتة « برايل » هذه القصيدة الشائقة التي
كانت أولى قصائدها والتي تغزلت فيها بطيف حبيبها ، وتغنت بربيع الحب
وربيع الحياة :

« هذا هو الربيع اليانع المشرق .

فإذا أريد اليوم وماذا أطلب .

الأشجار أزهرت . والورود تفتحت . والسماوات تألقت ، ومن
غصن كل شجرة تهطل ثمرة ، وفي لب كل وردة تحوم نحلة ، وعلى كل سماء
يتمزق غيم وتسطع شمس ! ..

أريد أن أضع قلبي على قلبك ، وشفتيك على شفتي ، كي أحس
قبلائك تنفرط في نفسي كأوراق الزهر ، وتترقرق في روعي كزرقة
السماء .

دع أناملك تتحرك في بطن كهمس الأسرار ، وتنساب في ليونة
كليونة قوارب النجاة ، وتحتضن أناملي ، كي تصب في عروقي الحامدة
سيل الربيع وعصارة الحياة .

أى معنى للشجرة المزهرة بدون جسدك ، وأية قيمة للوردة الناضرة

بدون خدك ، وأية لذة للثمرة الشهية بدون فمك ، وأية روعة للسماء الصافية بدون جبينك الناصع الوضاح .

• • •

هو ذا العالم يندمج في جمالك اندماج البذرة في الأرض . ويسرى في كيائك مسرى الفكر في العنقل ، ويتغلغل في صدرك تغلغل الحب في القلب ، ويتسلل في دمك تسلل النار في النار . وما دمت أنت رجوع صدى الكون ، فلا بد أن أكون أنا رجوع صدك !

• • •

فتعال وخذنى ... خذنى إلى هناك ، إلى مدينة الأحلام ، إلى حيث النسيم يهمس ، والظل يحضن . والشجر يحنى ، والطير العاقل يسخر من الورد الزاهر ، ويفتح أجنحته ثم يطويها علينا يا حبيبي ! ..

• • •

وفي صباح اليوم التالي أجريت العملية هيلينا ثم عصب الطبيب عينيها وأرقدتها على الفراش في حجرة ساكنة مجللة بأستار سوداء . واستبد القلق بنفس الفتاة ، وتلهفت على معرفة مصيرها : ومكثت أسبوعين طويلين ممددة على فراشها ، سابحة في ظلام وحدتها ، تفكر في كارل ، وفي المستقبل المجهول الذي ينتظرها ، بدون أن يخطر على بالها لحظة واحدة أن حبيبها قد انتزع منها ، وطرد من البيت .

وفي ذات صباح ، فتح باب حجرتها ، ودخل عليها أبوها وبنات عمها يصحبهم الطبيب .

وتقدم إليها الطبيب ، وحل العصاية عن عينيها . فرفت أهداب الفتاة ، وانفتحت أجفانها ، وطفقت عيناها الجاحظتان تحدقان إلى الفضاء الحالك في شبه حيرة يخالطها ذهول ...

خيل إليها أن الناس حولها تتراقص كالأشباح ، فجعلت تنظر حتى استشفت الوجوه والقامات غائمة بعيدة كأنها تسبح خلف ضباب . فهبت

من فراشها مذعورة ثم وقفت في وسط الغرفة تجيل الطرف في أهلها وترتعش . وعندئذ وثب الطبيب : ومد يده ، وشرع يجذب الأستار في ببطء . فصرخت هيلينا من أعماق قلبها وهي تفتح عينيها لتستقبل النور :
- أماه ! ... إني أرى ! ...

فأرسلت الأم صيحة مدوية . وهلل الأب والفتيات ، وانهمرت من عيونهم الدموع . أما الطبيب فأسرع يسدل الأستار مرة ثانية . ولكن هيلينا أمسكت به ، ونحتمه عن النافذة ، وأندفعت صوبها وفتحت مصراعها في عنف وتركت النور يندفق إلى وسط الغرفة .

ولبثت واقفة تحديق إلى السماء الزرقاء ، إلى النور الأبيض الساطع ، وهي مسلوبة الحول . طائرة اللب ، تكاد تصرعها الحيرة ، ويخنقها الفرح .

وتلفتت حولها كمن يفتقد شيئاً . وما لبثت أن اربدت وجهها ، وغام بصرها ، وصاحت بغتة في صوت ممزق :

- النور أبيض ! ... النور جميل ! ... ولكن يخيل إلى أنه كان بالأمس أجمل ! ... لم يعد يشبه الصفاء والحلم والسعادة كما كان يقول كارل ! ...

وحذقت إلى السماء فرة وهتفت :

- والشمس ؟ .. إنها حمراء ولكنها مخيفة ! ... ليس في لونها ما يشبه الحب كما كان يقول أيضاً كارل ! ...
وانتفضت وأردفت :

- وهذا النسيم ... لا أرى فيه شيئاً ! ... أين قبلاته ؟ ... أين روحه ؟ ... أين سحره الشائق العجيب ؟ ...

وصرخت :

- أماه إني أرى النور ، ولكني لا أرى الحياة ! لا أرى الجمال الذي طالما حلمت به والذي كان يتفجر من صوت كارل مدوياً مجلجلاً

كالينبوع ا... المعجزة لم تقع يا أماء فانقذيني... أنقذيني من هذا النور المهلك ، وابعني إلى بكارل ! ...

فامتقع وجه الأم ، وخشيت على ابنتها وقد أبصرت ، أن تعود فتقع تحت تأثير حبها الوضيع . فصاحت بها توقظ عقلها وتستنهض كرامتها :
- عار عليك أن تعشقي مثل ذلك الرجل ! لاسيا الآن .. الآن وقد أصبحت مبصرة . لقد طردته ! ... طردته ! ...

فغرت هيلينا فاها كبلهاء ، واحتقنت عيناها ، وشخصت إلى أمها ولم تتحرك .

وفجأة مدت ذراعيها كما كانت تفعل بالأمس ، وضربت بهما الخواء ، واتجهت صوب اليااب وصرخت :
- إذن فالوداع !

ثم استجمعت قواها ، وغافلت الجميع واندفعت نحو حديقة البيت وهي تردد كعتوهة :
- كارل ! ... كارل ! ...

وانطلق الجميع في إثرها حتى جاوزت الحديقة وبلغت القناة . وهناك بين الأشجار الباسقة ، وحول العشب الأخضر الناضر ، وعلى حافة القناة الكبيرة ، أبصروها تنف فجأة . ثم تلطم صدرها بقبضتها ، وتبكي بكاء مرًا ، وهم بإلقاء نفسها في الماء . فأحاطوا بها وحاولوا ردها عن عزمها . وإذا ذلك اصطفت أغصان إحدى الأشجار ، وبرز من خلالها كارل واندفع نحو الفتاة وصاح :

- أنا كارل يا هيلينا .. لقد طردوني ، ولكني بقيت معك ! ... بجوارك ! ... في كوخ أحد الفلاحين .. حتى علمت اليوم أنك شفيت فأسرعت وانتظرتك هنا ! فلماذا تنشدين الموت وقد ردت إليك نعمة البصر والنور ؟ ! ...

فتحولت إليه وتأملمته وهي ترتجف . تأملت كل شيء فيه : جمال الرائع

هيباه الساحر : عينيه الزرقاوين الفاتنتين ... وراعه هو الآخر جمالها
الجلاب وإشراق عينيه المبصرتين . فجثا عند قدميه وردد : لماذا تطلبين
الموت يا هيلينا ؟ ..

فغمغت قائلة وهي تتأمله :

- لأنى كنت رغم المعجزة ما أزال عمياء ! كنت ما أزال فى حاجة
إلى نور القلب يا حبيبى ... أما الآن .. الآن وقد رأيتك يا كارل ...
وعقد الفرع لسانها ، فالتفت إلى أمها وقالت ، وقد انفجرت من
عينيه الدموع :

- أعطنى . أعطنى كارل يا أماه ! ...
فتمزق قلب الأم ، وذابت كبرياؤها تحت تأثير حنانها فهتفت من
أعماق قلبها :

- خذيه يا ابنتى فهو زوجك !
فارتمت هيلينا على حبيبها ، وانكشمت بين ذراعيه وطفقت تحديق
إليه وتقبله فى نشوة وجنون .
وعندئذ ، عندئذ فقط ، وقعت المعجزة الحقيقية ، وارتد إلى
الفتاة بصرها ، ورأت فى ضوء الحب فتنة النور ووجه الحياة !

وهذه هى القصيدة البديعة التى كتبها هيلينا سيكورسكى بعد أن
اقرنت بحبيبها كارل . وهى قصيدة تمجد فيها الحياة الزوجية متى جمعت
بين قلين مخلصين طاهرين :

«لم أعرف سواك فى حياتى يا حبيبى .
كنت زهرة على وشك الذبول ، فضممتنى إلى صدرك ، وعمرتنى
بعطفك ، وأغدقت على حناناً كالندى ، وحباً ساطعاً كشعاع الشمس .
كنت حبيبى ، فأصبحت حبيبى وزوجى وأخى ! ...

يا لنعمة الأخوة تؤلف بين قلبين في ظل الزواج !
 إني لأشعر بأن أفكاري . وعواظي ، ودمائي ، وكل شيء ينبض في .
 قد استقر فيك يا زوجي . وبات قطعة من فؤادك يا حبيبي ، وشطراً من
 روحك يا أخي ! .. يا أخي في القلب والجسد . في البؤس والفرح . في
 الظلمة والنور !

ولقد اخترتك وحدك لنجتاز معاً طريق الزهر والشوك !
 وهأنذا أسند رأسي الضعيف إلى كتفك ، وأضع يدي الصغيرة في
 يدك ، وأحذق إلى المستقبل المجهول بعين لا تعرف الخوف !

وكيف يمكن أن أخاف وأنت معي ، وفيض إخلاصك يملأ ضلوعي
 وسحر ماضينا الجميل يتصاعد كالنغم العذب ، ويدوب في قرارة أذني ؟! ..
 إني لأستمع إلى هذا النغم العظيم ، ولا أستطيع أن أحبس دموعي ! ..
 لتهمر الدموع صلاة شكر لله على سعادتني .

هذا هو دمعي الطروب وهذه هي نعمة صلاتي :

يا إلهي ، لقد وهبتني رجلاً بحميني ، وعقلاً يرشدني ، ونفساً ترعاني .
 وفراشاً أبيض طاهراً يضم جسداً تقياً أنا له وهو لي ، وأذا منه وهو مني ! ..
 ذلك هو زوجي وحبيبي وأخي . زوجي للعمر كله وللحياة بأسرها ،
 ولما بعد العمر ، وبعد الحياة ، وبعد الموت أيضاً ! ..

فاحفظه لي يا إلهي ، واحفظني له حتى نلتقي .

وسنلتقي معاً في لحظة خاطفة أمام وجهك الرائع يا إلهي . سننفض

أكفاننا معاً ، وننفض ترابنا معاً ، ونتقدم إليك هاتفين مهالين !

فامنحنا في تلك اللحظة الخاطفة نصيبنا . امنحنا في تلك اللحظة

لفاصلة ثوابنا . وجد علينا وعلى أولادنا بنعمة الخلود الأبدى في حبك
 الأسمى ، وفي ذاتك السرمدية يا الله !

ایزادورا دنکان
أو

بین خریف سے وریساع



كان ذلك في باريس . في ليلة من ليالى عيد الميلاد . وفي منزل
روائي وكاتب مسرحي .

كان هذا الروائي قد أقام حفلة شائقة دعا إليها طائفة كبيرة من
أصدقائه معظمهم من الأدباء والشعراء والرسامين والممثلين . وكانت زينة
الحفلة وبهجتها الراقصة الذائعة الصيت « إيزادورا دنكان » التي خلبت
الباب الباريسيين في ذلك العهد برقصاتها الرائعة المستمدة من فن الرقص
عند الإغريق ، ونزعته إلى تمثيل مختلف ظواهر الطبيعة . وشئى انفعالات
القلب البشرى في حركات دقيقة وبسيطة وحررة ، يقصد بها تمجيد الحياة
سواء أكانت رحيمة أم قاسية ، سعيدة أم شقية .

• • •

لم تكن إيزادورا امرأة خارقة الجمال . ولكنها كانت امرأة ساحرة ،
في نحو الخامسة والأربعين ، ذات عينين واسعتين ملتهبتين ، وجبهة عالية
ناصعة . وأنف صغير ، وفم عريض ، واتقاد في الحركة والإشارة
والكلام ، يقترن بليوننة عجيبة في الأعضاء وانسجام كامل في تقاطيع البدن .
وكانت عبارات الثناء تنهال عليها من كل صوب ، وآيات الإعجاب
تطرح عند قدميها أشبه بالقرايين ، وزفرات الحب والهيام تتصاعد إليها
من صدور رجال الأدب والفن ، فلا تظفر منها بغير ابتسامة لطيفة ،
أو رزوة رقيقة . أو عبارة تفيض بالجمالة بدون أن يزاوطها طابع الكبر المتأدب
والتحفظ الحريص .

ودارت على المدعوين كؤوس الشراب ، ولعبت برؤ وسهم نشوة الخمر .
فشرعوا يغنون ويرقصون ، وإيزادورا تشاركهم في طوهم ومراحهم ، فآثرة
ساهرة حاملة ، تغشى وجهها سحابة خفيفة من الكآبة والضجر ، تحاول أن
تخفيها بابتسامتها المشرقة ، وضحكها الرنانة التي لا تكاد تنطلق من صدرها



حتى تنفرط كهتد من البلور . وفجأة ، وفي نحو الساعة الثانية صباحاً ، أعلن خادم الدار مقدم الشاعر الروسي العبقري « سرجى إيسينين » . فهتف المدعوون وهللاوا ، وأحاطوا بالشاعر الروسي مرحبين ، وأبوا إلا أن يشرب بعد « إيزادورا » من كأسها نفسها ، مبالغة في تكريمه ، وإشراكاً للشخصيتين العظيمتين في إعجاب واحد وصداقة واحدة ومجد واحد . وكانت هذه هي أول مرة يلتقى فيها الشاعر بالراقصة ، وأول مرة تقع فيها عين الراقصة على الشاعر .

ورمقته « إيزادورا » بنظرة . فراعها منه جماله الشاحب الحزين . فشخصت إليه فترة ، وتولتها رعدة خوف طارئ عقلت لسانها ، وأشاعت في نفسها إحساساً غريباً بالحيرة والوجوم .

وكان الشاعر فتى في نحو الثانية والعشرين ، مديد القامة ، أهيف القد ، ينعقد شعره الأشقر حول جبينه كإكليل من ذهب ، وتضطرم في عينيه الزرقاوين شعلة النبوغ ، وتستعر في خديه الضامرين الغائرين شبه نار تدل أبلغ الدلالة على أن الشاب يشكو مرضاً عضالاً يبرح به ، ويثير حسرته على نفسه ، ويضاعف جماله بهاء وفتنة .

وكان وديعاً ، رقيقاً ، عذب الروح ، حلو الحديث ، جم الفكاهة ، يخفى آلامه العميقة في ضوء ابتسامته ، ويخفى حسرته الدفينة في أطواء حلمه ، ويخفى مصيره الفاجع الذي لا يفتأ يطارده ، في تصورات وتأملات تساوره وهو بين الناس ، فيضم عليها عقله وروحه ، كى يرسلها في وحدته قصائد تختلج بحب الصحة وحب القوة وحب السعادة وحب الحياة .

ولمحتة « إيزادورا » يسعل سعالاً جافاً يزعزع صدره ، ويهز كيانه من الأعماق . فأيقنت أنه مصدور . فلم تغفر منه ، بل على النقيض أشفت عليه ورثت لحاله ، وأحست كأن المرض يخرج به عن الدنيا ، ويجعل منه مخلوقاً رائعاً في جماله ، شاذاً في مظهره وروحه ، يلتقى فيه الضعف بالقوة ، والشباب بالألم ، والمجد بالحسرة ، والحب بالموت .

وكانت « إيزادورا » امرأة ذات قلب عامر بأسمى العواطف وأنبهها :
 قلب يسعده أن يحتو ، ويسعده أن يخلص ، ويسعده أن يبذل ويضحى .
 فعشمت الشاعر عشقاً مازجت فيه بين الرغبة الحسية الطبيعية ، وبين
 مشاعر العطف والرعاية والحنان وإنكار الذات .

وفن الشاعر منها سحر نضوجها ، وعمق طبيعتها ، ووفرة ثقافتها ،
 وتلك الحيوية المتقدة الكامنة في أعضائها اللينة المتوثبة ، وفي عينيها
 السوداوين الملمهبتين ... فتقرب إليها ، ولاطفها ، وانصرف عن الجميع
 وأقبل عليها ، وطفق يحدثها في نغممة طويلة عذبة حديثاً مبتكراً خالِباً ،
 مفعماً بالصور الباهرة ، والأنحيلة النادرة ، والاستعارات والحجازات العجيبة
 التي تبتدعها العبقرية الشعرية في لحظة . فاشتد انجذاب المرأة إليه ، واشتد
 ولعها الطارئ به ، وراحت تتأمله وهي تسبح في شبه غيبوبة وتفكر في
 رقصة جديدة تستمدّها من وحيه ، وتستلهمها من عذابه ، وتصب فيها
 عصارة هذا الحب الغاشم الذي عصف بها ، وضربها فجأة في صميم كيائها
 كما يضرب البرق الشجرة بالصاعقة فيحرقها .

ولم يكد يطلع الفجر ، وتنتهى الحلقة ، حتى كان الشاعر والراقصة
 قد تآلفا وارتبطا ، في عالم زاخر بالمنطام والآمال والأحلام ...
 وقدم إليها ذراعه ، فرافقته وهي ترتعش . فخرج بها شامخاً ومعتزلاً .
 تجول معها في الشوارع ، وشاهد في صحبتها ضوء الفجر البنفسجي ، وهو
 يتبدد شيئاً فشيئاً ، ويطلق من صدره المتمزق وهج النهار ... ولما ارتد بها
 إلى بيتها وحياتها ، ضغطت على يده ، ودعته لزيارتها في يوم من الأسبوع
 التالي . فلم يصدق سمعه ، وأفقده الفرح صوابه . فانحنى وقبل يدها .
 ثم خشى أن تحونه قواه فيطفر الدمع من عينيه ، فقبل اليد الغالية مرة
 أخرى ، ثم أسرع واستدار ، وانطلق يمشى في الشوارع على غير
 هدى .

وأحرزت للرقصة الجديدة التي ابتدعتها « إيزادورا » من وحي حبها

وأسمتها «الحريف الناضر» نجاحاً منقطع النظير . فازدادت هياماً بشاعرها ، ولكنها رغم ثقتها المطلقة فيه ، و يقينها الراسخ من صدق حبه ، أرادت أن ان تميحنه أيضاً قبل أن تهبه البقية الباقية من حياتها . فأقصته فترة عنها . فإزداد الشاعر تعلقاً بها ، ورغبة فيها : ثم اهتمجت عواطفه وكتب إليها هذه الرسالة الرائعة الشبيهة بقصيدة من الشعر الخالص .

« ... أنا لم أعرفك إلا منذ شهر واحد .. ومع ذلك فأنا أحس أنى قد التقيت بك منذ سنين ، وعشت معك قبل مولدك ، واتصلت بروحك فى دنيا غير هذه الدنيا ، وفى عالم كله شمس وأقمار وأشجار وبساتين ! .. أنكون حقاً قد تعارفنا فى كوكب غير هذا ؟ .. أم هو الحب الساحر خلاق المعجزات يولد فى نفس المحب أحلاماً لا تمت بصلة إلى الواقع ومنطق الحياة ؟ .. على أنى أهزأ بالمنطق وأسخر بالواقع ، ولا أومن إلا بصوت القلب ... وقلبي لا يفتأ يقول لى إنك كنت حبيبى منذ الأبد ، وإنى عرفتك فى أول يوم من أيام الحياة ، ورأيتك فى نفس اللحظة التى نفع الله فيها من روحه ، فدبت الحركة فى الدنيا واستحالت فوضاها إلى نظام وجمال . هو ذلك .. لقد اصطفيتك نفسى منذ بدء الخليقة ، ووجد فىك خيالى مثل المرأة الأعلى . ولقد أحبيتك لأنك امرأة لا كبرياء فى نفسها ، ولا خبث فى عقلها ، ولا دهاء فى قلبها ، ولا خلاعة فى أخلاقها ، بل رقة كرامة الورد ، ودمائة كدمائة الماء ، وعدوية كعدوية أروع الشعر ، وسداجة كسداجة الأطفال أحباب الملائكة والله ! .. فهببى القوة أنا المريض ، قوة الفكر الثاقب ، والقلب الطيب ، والروح الخافزة . هذه القوة التى أراها ممثلة فىك ، مستقرة فى أطواء نفسك استقرار الآلىء النادرة فى أعماق بحر عظيم ... فتعالى إلى وطهرى نخلتى ونفسى ، إذ فى مقدور المرأة أن ترتكب جريمة ، كما أن فى مقدورها أن تصنع معجزة . فى مقدورها أن تقتل الرجل ، كما أن فى مقدورها أن تخلق الرجل . فاصنعى المعجزة وابعثينى ، ابعثينى ، فى ظل روحك للطاهرة ، فقد كنت حتى

الساعة ميتاً مكفناً في غلائل ضعفى ومرضى ، أنخلس هبثاً يوم النشور
ولحظة الخلود ! .. وأنا فى انتظار يدك يا حبيبى ، أنحنى فى خشوع ،
وأقبل يدك الناضرة التى أسرتهى ، واتى أرجو أن تطوق فكرى وقلبى
وروحى مدى الحياة ! .. » .

وكانت هذه الرسالة هى عروة هذا الغرام الوثقى . فاندماج العاشقان
بالروح والجسد ، وغادرا باريس وراحا ينشدان الحب فى وكر أعدته
« إيزادورا » فى ضاحية ريفية نائية .

وهناك بعيداً عن العالم ، وفى هدأة الطبيعة الكبرى ، وبين الحقول
الشامسة والمروج الخضراء ، أمضى الحبيبان ثلاثة أسابيع كانت نعمة
من الصحة والتموة أسبغها الحب على الشاعر ، وفيضاً من الفرح والبهجة
أغدقها على الراقصة المفتونة التى لم تعد تذكر أنها فى مهبط العمر وفى
عامها الخامس والأربعين .

ونسيت « إيزادورا » مفاخر الشهرة والمجد ، وأضواء المسرح ، وهتاف
الجماهير ، ولم تعد ترقص للناس ، بل لحبيبتها . فكانت تغافلها ، وتدخل
عليه فجأة وقد تجملت بأبدع أثوابها التمثيلية ، ثم تأخذ فى الرقص أمامه ،
وهو جالس يرقبها ، مشرب العنق إليها ، مستنزلاً وحيه من روعة التعبير
الحى المائل فى حركاتها ، حتى إذا ما سكنت وهدأ وقع خطاها ، عكف
هو على نظم شعره ، ممتلىء النفس بها ، مفهم الروح بإدامها ، منتشياً
بقوته الخالقة التى استمدتها منها ، والتى تمثلت فى قصائد شائقة ، كانت
تذهله وتبهره كأنه ليس هو صانعها ومبدعها .

وهكذا اقترن الفن بالحب ، وأضرم الحب شعلة الفن ، فأخرج
الشاعر ديوانه الخالد « نبع الحياة » الذى استفاضت شهرته بين يوم وليلة .
ولكن القدر كان واقفاً بالمرصاد يأبى إلا أن يكشف عن وجهه الساخر ،
ويمد يده الغادرة كى يصب السم فى كأس الحبيبين .
تحرك الداء الحبيث الذى كان قد تقلص أول الأمر فى عمرة الصحة

الزائفة التي أذهبها الحب والفرح ، وعاد فاستبد بالشاعر الشاب . فضمير وجهه وشحب لونه ، وساورته الحمى . وانتابته نوبات السعال الشديدة العنيدة متعاقبة لا ترحم .

وفي ذات صباح ، أبصرته إيزادورا ، وهو يبصق الدم في منديلته . فاقشعر بدنها وارتعدت فرائصها . لم تستطع أن تتصور أنها يمكن أن تفقده ، فأبت أن تكون له حرصاً على صحته . فعادت به إلى باريس . وأرغمته على ملازمة الفراش ، وآلت على نفسها أن تودع الدنيا وتنقطع لخدمته . وأن تجاهد وتبذل المستحيل كي ترد عنه عادية المرض وتنقذه .

وكانت لا تفارقه لحظة واحدة . كانت تسعفه بالدواء في الميقات ، وترقب سير حرارته ، وتعنى بتغذيته ، وتغسل يديها مناديله المملوطة ببقع الدم ، وتسهر عليه الليل بطوله بدون تبرم أو كلل . وراعه صدق حبها وعظيم إخلاصها وعمق تضحياتها . فعاونها بصبره وامثالها وطاعته ، وبذل هو الآخر جهد المستميت كي يقاوم المرض من أجلها .

وشيئاً فشيئاً ، وعلى مر الزمن ، دبت فيه وقدة النشاط والصحة ، وتمائل للشفاء . فجننت المرأة فرجاً ولم تعد تسعها الدنيا . أحست أن حبها قد انتزع الحياة من بين براثن الموت ، ورد إلى حبيبها نعمة العافية والقوة ومتمعة الحركة والانطلاق . فأيقنت أنها انتصرت ، وأن أيام الهناء قد عادت وأن في وسعها بعد جهادها الطويل أن تطمئن وتسعد . بيد أن القدر ، القدر نفسه ، القدر الذي كان قد استخفي فترة ليضحك ، عاد فكشف عن وجهه الساخر ، وطاب له أن يطعن « إيزادورا » في الصميم ...

* * *

حدث أن فتاة فقيرة من هواة فن الرقص تدعى « بلانش فلورى » جاءت لزيارة الراقصة مساء يوم ، وطلبت إليها أن تدرجها على بعض فنون الرقص التي استحدثتها « إيزادورا » .

وكانت « بلانش » فى نحو العشرين من عمرها ، ذات وجه أبيض مشرب بالسمره . وعينين زرقاوين لعوبين . وخدين شهيين موردين . وابتسامه ناضرة . وأعضاء وطيرة . وبين غض . وكانت ضحاكة صخابة ، يمشى المرح فى زكائها ، وتضفى عليها الفتوة المعتزة حلة رائعة تفن القلب والعقل .

كانت هذه الفتاة هى مشرق النهار ، وأما « إيزادورا » فكانت غروب . . . كانت « بلانش » هى الربيع بسماؤه الساطعة ، وأزهاره اليانعة ونسماته المسكرة ، وعصارتها البكر الزاهرة بالحياة الحسية والأمل العريض . وأما « إيزادورا » فكانت الخريف بسماؤه الغائمة . وأزهاره الذابلة . وأوراقه اليابسة ، وانكماشه المتعب الحائر القلق الحزين .

واستجاب الشباب لنداء الشباب ، وأحسن الشاعر بانرغم منه أن قلبه يهفو إلى « بلانش » ، وأنه يضطرب أمامها ، ويجزع لمراها ، ويصد عنها ثم يسعى إليها ، يفر منها كى يتعقبها عامداً ويطاردها . أحس أن صورتها تجل فى خياله رويداً رويداً محل تلك الصورة التى كان يعتقد أنه لن يقدس أبداً غيرها . فملكه الذعر ، وكافح جهده الإغراء . حاول أن يقاوم ، أن يبتعد ، أن يكون مستقيماً وصريحاً ، أن يكشف « إيزادورا » بالعاطفة التى استولت عليه ، ويلتمس من المرأة أن تطرد الفتاة الدخيلة وتنقذه منها . ولكن طبيعته كانت أقوى من إرادته . فلم يستطع . . .

لم يستطع وهو الشاعر أن ينقطع لحب امرأة واحدة ، أن يمثل الدنيا كلها فى امرأة واحدة ، أن يجمع الجمال ويحصه كله فى امرأة واحدة . كان لابد له أن يجدد وحيه ويجدد خياله ويعب فى نبع الشباب ليحس بالقوة التى ارتدت إليه ، وبالشباب الذى عاد يضطرم فى عروقه . فتأقت نفسه إلى أفق آخر ، وعالم آخر وفتنة طريفة لا عهد له بها .

على أن الصراع كان محتتماً فى نفسه . كان يجب « إيزادورا » ويتعذب . لم ينس إخلاصها ، لم ينس تضحياتها ، لم ينس أنه مدين لها

بحياته . ولكن هذا الدين بالذات كان يشعره بحدوده فيشيره على نفسه ،
ويضاعف حبه للفتاة الساحرة ، تأججاً واشتعالاً . وهكذا كان يحب
ويكتم ، يتعذب ويصمت ، يهجم ويحجم . يشرد ويتأمل ... كان
يشنق على « إيزادورا » ، بل يتمزق لتصور عذابها ، ويتمزق لشعوره بأنه
هو الذى سيعذبها . وهو الذى سيشتقيها ، وهو الذى سيتمضى فى نفسها
على آخر حب وآخر أمل وآخر عزاء ... ومع ذلك فقد قسا قلبه ، وغلظت
عواطفه . وتفاقت بغته أنانيته . فبدأ يفكر فى الفتاة فقط وفى الإقدام
على طالب يدها . وفى متعة الزواج بها ، وفى انتهاء فرصة تمكنه من التحرر
من « إيزادورا » مع الإبقاء على صداقتها فى جو لا تشوبه الحسرة ولا
يكتنفه العذب ...

وأما المرأة المسكينة فقد تنهت ... تنهت ولاحظت وأدركت
كل شيء .

شاهدت نية الغدر تهرق فى عيني حبيها . شاهدت روح الخيانة
تستأثر بعقله ، وتذهب بلبه ، وتدفعه إلى نبذها فى غير ما وازع من عاطفة
أو ضمير . شاهدت الرجل الذى منحته الحياة ، يصدف عنها ، ويقدم
هذه الحياة هبة لغيرها ، فى قسوة وحشية وعدم اكتراث مروع .

هالما ختام غرامها الفاجع . عز عليها أن ينهار صرح أحلامها فى أقل
من عامين . كبر عليها أن يقابل إحسانها بالإساءة ، وأن تجزى تضحياتها
باللؤم ونكران الحميل . فتقطع فؤادها لوعة وأسى ، وأسودت الدنيا فى
عينها ، وكادت تختبل وتفقد صوابها شعوراً منها بأنها كهلة ، وأنها غير
جميلة ، وأن الشباب أقوى منها ، وأن إعصاره الجارف يوشك أن يكتسحها
اكتساحاً ويسحقها .

بيد أنها أبت أن تنهار ، بل أحست أنها لو انهارت فلا بد أن ينهار
فنها معها . فاستبد بها الذعر ، ولم تستطع أن تتصور الهزيمة بعد الحمد .
فأهابت بروح الفن الرابضة فيها ، واستمدت من عذابها قوة ، وراحت

تبدع رقصة جديدة تمثل فجيعة الكهولة عندما تبطش بها أنانية الشباب .
 وكانت رقصتها « خريف وربيع » من أبدع رقصاتها .
 ومع ذلك فهي قد عجزت بنمها عن التغلب على حبها . كان حبها في
 تلك الفترة أعمق من فها ، وغرامها أبلغ من حقدتها ، وإخلاصها أشد من
 غيرها . فخنقت الألم في صدرها ، وأخذت ما استطاعت ثورة غضبها ،
 ولم تطرد الفتاة ، بل تركت حبيبها يستمتع ويهنأ بحبه الطارىء الجديد .

كانت تخشى عليه الانفعالات النفسية العنيفة . كانت تخاف عودة
 المرض إليه لو واجهته بثورتها وسخطها . كانت تود أن تسعده ولو على
 أنقاض حبها ، ولو على أطلال نفسها . أما هو فكان منصرفاً عنها ،
 يجلس إلى الفتاة على مشهد منها ويحادثها ويغازلها ويبتسم لها وينهل من
 محاسنها ، غير حافل بذلك القلب الكبير الذى كان يتفطر على مقربة
 منه ، ويقطر دماً دونه ذلك الدم الذى كان يقطر بالأمس من رثى
 الشاعر المصدور .

على أن عذاب « إيزادورا » لم يلبث أن ظهر وتجلي في صورة لم تدع
 للشك سبيلاً . غاض ماء وجهها ، وانطقاً سحر عينيهما . وخبث وقدة أعضائها ،
 ودب فيها الهزال ، واستحالت إلى هيكل بائس للحزن واليأس والحسرة .
 وعندئذ تأثر الشاعر وتنبهت فيه حاسة الضمير . واجه الجرم الشائن
 الذى اقترفه . أشرف على الهوة السحيقة التى توشك أن ترتطم فيها ضحيته .
 فتوزع وتخبط ، وأصبح قلبه ميداناً لمعركة عنيفة يتقاتل فيها الماضى
 والحاضر ، والواجب والحب ، والإنسانية والأنانية .

وكاد أن يرحم . كاد أن يقطع . كاد أن يطرد بنفسه الفتاة ويتخلص .
 ولكن الفتاة التى ألهمت عواطفه أول الأمر باصطناعها التحفظ والتجاهل
 والسذاجة والإعراض ، أقيمت فجأة عليه ، وبادلته حباً بحب ، واتصلت
 به خارج بيت « إيزادورا » ، ولوحت له باستعدادها للزواج منه لو حزم
 أمره وتشجع ، وقطع كل علاقة له بالراقصة .

وأذهل الشاعر إقبال الفتاة ، وخلبه اتصاله الخفي بها ، فعاوده إعجابه وولعه بازدهار جمالها . ومرح شبابها ، وفيض حيويتها . فاستسلم لها . وعاهدها على الزواج ، ولم يجد بداً من مكاشفة « إيزادورا » بعزمه على الانفصال النهائي عنها .

ورزحت المرأة تحت وقع الصدمة . أصابها منها شبه ذهول . فكفت عن الرقص واعتزلت العالم . حبست نفسها في بيتها ، وطفقت تتجول في حجرات البيت ، مشوشة الذهن ، منهوبة العقل ، مشيوبة التصور والحيال ، تذكر حبيبها ، وتمثله ، وتناجيه ، وتدعوه ، فلا يجيبها سوى الصمت الجامد الأصم . فتعصف بها الحسرة الآكلة ، فتصرخ صراخاً يائساً مستغيثاً ، وتظل تبكي ولا راحم ولا مغيث .

وكان الشاعر في غضون ذلك تائباً عن نفسه . مستغرقاً في فرحته وأمله ، منصرفاً بكليته إلى حبه وحلمه ، يعد معدات العرس ، ويتهيأ ليوم الزفاف . ولكن الفرحة ظلت مجرد لطفة ، والأمل مجرد رغبة ، والسعادة مجرد حلم .

وقع شيء جديد أهول وأفجع مما وقع من قبل .
ظهر على مسرح المأساة رجلان ، أحدهما كهل عريق في الحسب والنسب ، موفور الجاه والثراء ، يبلغ الستين من عمره . والآخر مصور مشهور يبلغ الأربعين ويدعى « ريتشارد » طيب القلب ، نبيل النفس خدعته زوجته فطلقها وتاق إلى امرأة تكون فنانة مثله في مقدورها لو تزوجته أن تحنو عليه وتأسو جراحه .

والتقت « بلانش » بالكهل الثرى في إحدى الحفلات قبل ثلاثة أسابيع من موعد زواجها بالشاعر . فافتتن الكهل بها ، وغازطها ، وأثارها من طرف خفي على خطيبها ، وانطلق يحوم حولها ، ويستدرجها بماله ، ويزين لها الحياة في قربه ، زاخرة بالألوان من الترف والنعيم لم تكن لتحلم أبداً بها . أما « إيزادورا » ، فقد كان المصور معجباً غاية الإعجاب بفنها

يشخصيتها . فلما تراه إليه نبأ اعتكافها عقب الصدمة التي أصابتها ،
 ألح في طلب زيارتها . ثم اقتحم بابها . ثم أبدى لها من ضروب الود
 بالمعطف والاهتمام ما أدهشها . فأصبح هو الرجل الوحيد الذي يتردد
 كل يوم على دارها ويستفسر عن صحتها ؛ ويخدمها في نهافت
 وإخلاص . كما كانت هي بالأمس تخدم وترعى الشاعر الغادر
 المصدور .

واستفانق الشاعر ذات يوم ، وإذا بخطيبته الوفية ، خطيبته التي
 نوثك أن تصبح زوجته ، تتنكر له فجأة ، وتصعد عنه ، وتصارحه في غير
 ما خجل أو أسف أو تردد أنها قد عدلت عن الزواج به ، واعتزمت أن
 تبذل المستحيل كي تتزوج الكهل الثرى .

وسقط التماح عن وجه « بلانش » الفاتنة ، وبدت على حقيقتها .
 بدت فتاة لا قلب لها . شيطاناً في زي ملك ، شتاءً بارداً قاحلاً في زي
 ربيع ، نفعية وصولية طماعة ، ملؤها الختل والنفاق ، تضرب رجلاً بآخر
 متى وجدت في الرجل الحديد إنساناً متفوقاً في الجاه والعز ، في وسعه أن
 ينقذها من فقرها ، ويرفعها بماله وجاهه إل مصاف السيدات المترفات .

• • •

والعجيب أن هذه الفتاة التي كانت في نظر الشاعر عنوان السداجة
 ورمز البراءة ومثال الطهر والنقاء لم تغضب عندما رفض الكهل الثرى أن
 يتزوجها بل ارتضت أن تكون خليمة له ، على شرط أن يمنحها قطعة من
 أرضه يسجلها باسمها ، وأن يستأجر لها مسكناً فخماً ، وأن ينفق عليها
 وعلى أهلها في كرم وسخاء ...

وانهار حلم الشاعر ، وتبعثرت أطلاله ينخر فيها الديدان . فاختبل
 بدوره وتخبط .

وكما عذب هو بالأمس « إيزادورا » ، عذبتة اليوم « بلانش » ، كان

جزاؤه من جنس عمله . أصيب في مقتل من كبريائه وعزة نفسه . نهشته الغيرة ، وافترسته الحيبة ، وسحقته اليأس والعجز والنذل والاستنكار . ومع ذلك فقد تهالك على الفتاة . تشبث بها . هدها بالقتل إن لم تعد إليه . ولكن « بلانش » هزأت به ، وسخرت منه ، وتحذته . فأحس أنه ما يزال يحبها . بل ما يزال يعبدها . وأنه أضعف من طفل أمامها . وأن ليس في مقدوره أن يلحق بطرف بناتها الذاعم أى أذى . فناء عليه الكمد والحلق . واحتوته سورة العجز واليأس . وجرفته هو أيضاً مرارة النبت والإعراض . فاستوحش وانطوى . ولم يستطع أن يتخلص من ألمه حتى في فنه . فاقشعر بدنه إذ أبصر عتله يتوزع ، وذمته يتبلد . وخياله الجوامح المتدفق يجف يوماً بعد يوم . ويستحيل إلى أرض قاحلة لا تنبت غير الشوك والعذاب ! ..

خييل إليه أن عبقريته قد ماتت فاشتدت حسرته ، واشتدت لوثته ، وعز عليه أن تخفق في المهدي روائح ذهنه الخارق . فلم يجد ملجأ يهرع إليه غير المرأة التي شفته وأيقظته وكان إلهامها العظيم هو الذي عقد على رأسه إكليل الشهرة والمجد .

واستجمع قواه ذات صباح ، واستقل سيارته الصغيرة التي كان قد أهداها إليه جمع من الأدباء المعجبين بشعره وأنجحه بها صوب منزل « إيزادورا » .

وكانت المرأة في فراشها ، ما تزال مجهدة وعليلة . فما إن رأت الشاعر حتى قفز قلبها بين ضلوعها . فتمضت شبيهة واثبة وارتمت عليه . ارتمت عليه بالرغم منها . فأبرقت عيناه واعتقد أنه قد وجد الراحة بعد التعب ، والملاذ بعد التخييط ، والهواء المنعش المحي بعد ريح السموم الغاشمة الفاتكة . ولكن المرأة ما لبثت أن تراجعت ، ... تراجعت وارتعدت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . أرادت أن تضم الشاعر فلم تستطع . أرادت أن تقبله فلم تستطع . جمدت في مكانها وتأملت لحظة . تأملت هذا الفن القابغ

الغد الذى كان بالأمس كل حياتها . ثم أوحى له بيدها تلويح
محبول ، وعمغت والحب ييضنيتها ، والأواجب يحفزها ، والعقل يهديها ،
والشفقة تقطع نياط قلبها :

— محان ! ... لقد ارتبطت ... أعطيت كلمتى للرجل الذى أخلص
نى فى محنتى وخدمنى .. سأ تزوج المصور ريتشارد ! ..
والتقطت أنفاسها ، وأردفت وهى تتلوى :

— أنت شاب .. وحرام على أن أشقيك .. لن تقنع أبداً بخريف
بعد ربيع .. ستكرهنى غداً بأشد مما كرهتنى بالأمس .. ستغدر بى مرة
أخرى .. هذا أقوى منك .. لقد أحببتك أنا كامرأة وأم . أما أنت فقد
أحببتنى كأم فقط ، ثم لم تكفك المرأة فى ولا الأم فنبذتنى . ومضيت
تطلب الأنثى ... فاذهب إليها . وافرح وتزوج . وابتعد عنى يا حبيبى
ولا تلوث حرمة الذكرى !

فجن جنون الشاب وارتمى عند قدميها ، توصل وطفق يبكى .
ولكنها لم تتحرك . لم تتأثر ، بل قطبت حاجبيها ، ورفعت رأسها ،
ورددت فى صوت حاسم المخارج قاطع النبرات :

— لقد أعطيت كلمتى . ! .. فصمت الشاب وحمق فيها . حمق فيها
ثم تطوح . ثم عصف به السعال بغتة ، فارتج صدره كأنه ينخلع .
فأسرع وأطبق على فمه بمنديله ، وإذا به يبصر المتديل ملطخاً بالدم .
فارتاعت « إيزادورا » وصرخت وانحنى عليه . بيد أنه أقصاها فى عنف
وهو يلهث وانصرف .

• • •

وانقضت ثمانية أيام . وفى مساء اليوم التاسع ، وبينما « إيزادورا »
فى بيتها تنهياً للرقص فى أحد المسارح ، وتفكر فى الشاب الذى علمت
أنه قد سافر إلى روسيا وتمثل على الرغم منها طيفه المحبوب ، دخل عليها

صديق من أصدقائه ، وأبلغها أن الشاعر قد انتحر في أحد الفنادق
بمدينة ليننجراد . فذهلت المرأة وانسحقت تماماً، وجعلت تضرب صدرها
وتصيح كمتوهة :

— أنا ... أنا التي قتلته ! ...

... ..

ولم تستطع « إيزادورا » أن تحتمل وجود المصور ريتشارد، فأحلت
نفسها من عهدتها له وصرفته ... ولما أضناها العذاب وبرزت بها الذكرى،
لم تجد في غير الفن عزاء لنفسها . فأبدعت رقصة أخرى كانت هي أيضاً
من أروع وأشهر رقصاتها ، وأسماها : « أشجان الغروب » !

فردريك نيتشه
أو

بين الإرادة والقوة وسطورة الحب



ليس بين كبار المفكرين والشعراء من كان أشد جرأة وكبرياء من
الفيلسوف الشاعر الألماني فردريك نيتشه ، فقد حاول هذا الرجل أن يهدم
الأخلاق والآداب المستمدة من نزعة الرحمة ، وأن يبشر في حماسة وشبه
جنون بعميدة القوة . وأن يؤكد أن القوة المعنوية والحسية هي رأس الفضائل :
وأن المجتمع الأرسطراطي القائم على تمجيد هذه القوة هو خير مجتمع يمكن
أن تصدر عنه أفضل حضارة .

ومع ذلك فالحب أذل هذا الرجل وأخضعه لسلطانه ، وأشعره أن
العواطف شيء ، والأفكار المجردة شيء آخر . وأن الإنسان قد يكون
عقرياً ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يكون سعيداً في هذه الحياة الدنيا .

• • •

كان نيتشه مخلوقاً حساساً إلى أبعد حد ، غزير العاطفة ، قوى
الخيالة ، واسع أفق التصور ، ولوعاً بالعزلة ، ميالاً إلى دراسة الحياة وفهمها
عن طريق خيال الشاعر وعقل الفيلسوف ، أكبر مما كان ميالاً إلى
دراستها عن طريق ملاحظة الحقائق اليومية الحية الماثلة في حوادث الأيام
وأخلاق الناس .

كان يعتقد أن المرأة إنسان ثانوي ، وأنه من الخير للمفكر أو الفنان
الذي يصل حياته بحياتها ، وأن يعرف كيف يأمن شرها ، ويتقن نزواتها :
ويتخذ منها عند الضرورة أداة لبقاء النوع فحسب . ومن أشهر ما قاله
عنها : « المرأة راحة الجندي بعد المعركة » . أي جزاؤه ومتعته لا غير .
وقد فات نيتشه أن المرأة معركة تضاف إلى معركة . وأن هذه المعركة التي
تنشب بين الرجل والمرأة قد تكون أقسى من معركة الحياة الكبرى بل قد
تكون هي معركة الحياة الكبرى نفسها .

وهذه المعركة هي التي استعر ضرامها في قلب نيتشه ، وهي التي

فاجأته وهو شارد محير : فاضطر أن يخوضها على الرغم منه .
أحب فتاة عذراء حياً عاصفاً مبرحاً : تبع من عقله . واستقر في
وجدانه . فألح عواطفه . وعذبه شر عذاب .

التقى بها في إيطاليا ذات صباح . وكانت تدعى « لوسالوميه » .
فما إن رآها حتى راعه منها فيض شبابها : وسحر جمالها . وتوقد ذهنها :
واكتمال ثقافتها ، واقتران الأنوثة فيها بجاذبية الفكر الراجح المتزن العميق .
أعجب بها الإعجاب كله . . أحس وهو ذاهل مبهور أن تأثيرها
أقوى في كيانه من قوة إرادته نفسها . فمضى إلى داره محتل الذهن بها .
مستغرقاً في التفكير فيها . باذلاً قصاره لإقصاء طيفها عن خياله . ولكن
على غير جدوى .

كان يراها في نفسه : وفي وحيه : وفي شعره : وفي شتى ألوان الجمال
المائلة في الطبيعة والتي تقع عليها عيناه . كان يسمع في الوحدة رنين
صوتها ، ويخيل إليه أن فراغ حجرته ملئ بها ، وينصت إلى حفيف
الأشجار فيجفل ويختلج ويذكر حفيف ثوبها .

واستولت عليه وتمكنت منه . فكبر عليه أن ينكر عقله ، وينكر
إرادته ، وينهزم أمام طيفها . فكان ، كما يؤكد المؤرخ الدكتور كابانيس ،
يعمد إلى سكين يحز بها أصابعه ، كى يقهر ضعفه . ويقهر حواسه ،
ويروض نفسه على الصبر والتجلد واحتمال الألم .

وكان مصاباً بصداع مزمن ، تخلف فيه من وراثته ملوثة . فكان إذ
يتقابه هذا الصداع ، يعجز عن الكتابة . فيسلم ذهنه لطيف الفتاة ،
ويظل بين وطأة الصداع وملازمة الطيف ، متخبطاً في عواطفه ، مغمماً في
هواجسه ، لا يعرف الراحة . ولا يقوى على النسيان ، ولا يستطيع أن يجد
الحلاص المنشود في السكين التي يحز بها أصابعه !

وكانت « لوسالوميه » مأخوذة به ، مسحورة بروعة ذكائه ، وعمق
تفكيره ، وغزارة ثقافته . ولكنها كانت في الوقت نفسه مفتونة بعبقريته

خصمه وعدوه اللدود الموسيقي الكبير « ريتشارد فاغنر » .
 وكان « فاغنر » رجلاً ألمانياً الأول في ذلك العهد . وكان نيتشه قد
 تأثر به ثم انقلب عليه . وراح يهاجم فنه الموسيقي ، وينعته بالضعف
 والفوضى ، وينعى عليه نزعته الصارخة إلى المبالغة والطين الأجويف ،
 وعبوديته للعقائد الدينية الرجعية ، ويصفه بأنه فن ضبابي خائق كثيف ،
 لا شمس فيه ولا دواء ولا قوة ولا فرح .

وكانت « لوسالومية » موزعة الفكر والقلب بين فلسفة « نيتشه » وفن
 « ريتشارد فاغنر » . كانت تتأرجح بين الرجلين ، وتضطرب بين
 العقليتين ، وتبحر في أيهما تفضل : رجل الفكر والقوة ، أم رجل الفن
 والجمال ...

وكانت تخالبها من « نيتشه » جرأته وكبرياؤه ، وتفتنها من « فاغنر »
 روائع أحيائه ، وعظمة أساطيره ، وجلجلة ألقانه . فلبثت حائرة مترددة ،
 تستطلع طلع نفسها ، وتحرص جاهدة على استقلال فكرها ، وتأبى أن
 تخضع لأحد من الرجلين .

ولم يكن نيتشه على علم بالصراع الذي يدور في نفس الفتاة . فاعتقد
 أنها خالصة العقل من كل تأثير ، وأنها ما تزال عجيبة رخوة في وسعه أن
 يصوغ منها اللدنية التي يشتهي . فأمعن في حبها ، وظل يلاحقها ،
 مستعظماً ملتصقاً متوسلاً ، أشبه بالفتى الغر في أول عهد الشباب .

ولما كان مولعاً بحياة الإغريق ، ينشد الصحة والطلاقة والمرح ،
 مقترنة بالفكر الحجة اللامع الوثاب ، فقد خيل إليه أن « لوسالومية »
 تمثل الروح الإغريقية الأصيلة . فطفق يداعب الآمال ، ويبني القصور ،
 ويحلم ببعث هذه الروح في زواج مثالي يصل بين حظه وحظ الفتاة .
 ونما الخيال في نفسه وترعرع ، واتقدت العاطفة في قلبه واضطربت .
 فكان يرتجف لمقدم الفتاة وينخلع ، ويجزن إذا غضبت ، ويضحك إذا
 ابتسمت ، ويعض شفثيه حتى يدميها إذا تبرمت به ، أو أعرضت عنه ،

أو شعر أنه يوشك أن يفتضح وتتفجر من عينيه الدموع .
وأحسن . وهو رسول الإرادة والتفوق والقوة ، أنه لا يراجع ويستضعف
حيات القوة ، بل أمام المرأة : أمام رمز الضعف ...
أحسن وهو نائر مستنكر ، أنه واهن العزم ، لا يكاد يصارع نفسه
ويغالب حبه ويقصى عنه طيف الفتاة ، حتى يشتهيها مخلوقة من لحم ودم .
فيسرع إليها بالرغم منه ، خجولا حياءً متردداً ، يرتبك لأقل شيء .
ويجزع من أي شيء ، وهوله الهفوة البسيطة تفلت منه في لحظة ضئيلة
فتهدم قصر أحلامه ، وتقوض صرح مستقبله كله .

ولم يكن واثقاً من حب الفتاة له . فخشى إن هو عرض عليها الزواج
أن تقابل عرضه بالرفض ، فاحتدم في نفسه الصراع . فكان لا يعرف
كيف يكاشفها ولا يعرف كيف يستدرجها ، ولا يعرف كيف يميظ
اللثام عن حقيقة نفسها . وهكذا اصطدم لأول مرة في حياته بامرأة
الأبدى . فدعر واختبل ، وبرح به العذاب .

والعجيب أن حبه أفقده في تلك الفترة وعيه ، وجرده من سلطانه على
عقله ، وردده إلى طور الطفولة . فكان إذ يخلو إلى نفسه يعكف على رسم
عدة صور تخطيطية « للوسالوميه » ، ويكتب على أوراقه الحرف الأول
من اسمها والحرف الأول من اسمه متشابكين متعانقين ، ويطلق اسمها على
أحب الزهور إليه ، وينظم الشعر متغزلاً فيها ، ويسخط عليها تارة ،
ويهلل للوحى الخابط منها أخرى ، وهو ذاهل عما يفعل ، سابع في نشوة
دونها نشوة المجد الأدبي الخالد الذي يحلم به .

وكانت لوسالوميه تستشعر بغريزتها النسوية المشرقة ، أن الفيلسوف
يحبها . ولكنها كانت قد بدأت تضطرب وتنكمش وتخاف . كانت تخاف
على نفسها عثرة من عثرات الإعجاب ، أو كبوة من كبوات العاطفة ،
أو سقطة من سقطات الجسد . كانت تحس أن الحب المتأجج في صدر
الفيلسوف يهب عليها كالنار ، ويكاد يحرقها . فكانت تفكر ، وكانت

تقاوم ، وكانت تعلم علم اليقين أنها لو تزوجت نيتشه : فيجب أن تودع الشباب وداع الأبد . ويجب أن تحب الفكر والعزلة . والتأمل والصمت : والزهد والتجرد . أكثر ألف مرة مما يجب أن تحب الفيلسوف نفسه وتحب الحياة ... ومع ذلك فقد كانت تتمنى لو أن في مقدوره أن يفهمها . لو أن في وسعه أن يتغير ويتحول ويبدل جوهر فلسفته من أجل الحقيقة ومن أجلها .

وكانت في غضون ذلك . قد أنعمت النظر في كتبه . وتعمقت فلسفته . وأنصتت إلى رزين روحه . فها لها دوى صوته الذى يرتفع فوق كل شىء . وضوء عقله الذى يمزق كل شىء ، وجبروت إرادته الذى يتحدى كل شىء . وقدرته الذهنية الشيطانية على تحطيم كل ما آمن ويؤمن به البشر من فضائل الطيبة والرحمة والحنان والتضحية والمساواة والإخاء .

ها لها هذا كله ، فازدادت تراجعاً ، وازدادت تحفظاً ، وانطوت على نفسها . وأصرت على أن تلزم جانب الإعراض والصمت وعدم الاكتراث . وروع نيتشه إعراضها . ونحشى أن يفقدها . فحزم أمره ذات صباح . وذهب إلى صديق يدعى « بول رى » وكاشفه بحبه . ورجاه فى حرارة وحماسة أن يطلب له يد الأنسة لوسالومييه ... وكان نيتشه لفرط ما تعذب وكافح تحت وطأة الصراع . قد زايله تردده واشتعلت فجأة كبرياؤه . فارتد إليه إيمانه بنفسه ، وبات يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الفتاة لا بد أن تحرق صعقة أمام رغبته ، ولا بد أن تهرع إليه شاكرة ومبهجة ومترامية عند قدميه .

ولكن الفتاة رفضت رفضاً باتاً قاطعاً صريحاً . رفضت بدون إبداء أى سبب . رفضت الزواج كما رفضت أن تقابل الفيلسوف . عندئذ تاه عقل نيتشه . كبر عليه أن يسعى فيرد ، وأن يتكرم فيذل ، وأن يتفضل فيجحد فضله ، وتمهن كبرياؤه . فصغرت نفسه فى عينيه ، وهان الفكر فى نظره . وخالجه شعور مر بأن عقله القذ لا قيمة له ، وأن ليس فى وسع عبقريته

الخارقة أن تجعله سعيداً ...

وحل به عذاب لم يحل قط بإنسان . فاستجمع قوته وعزم أن يقطع كل صلة بالفتاة . ولكن حبه كان أقوى من عزمه ، وأمله أقوى من سخطه ، وفضوله أقوى من عقله . فأراد أن يعرف على وجه التحقيق لماذا رفضته الفتاة ، وهل هي تحب رجلاً آخر . فكبح جماح كبره ، وتغلب جاهداً على لوعة ذله ، وكتب إليها يقول : « ليس من حتى أن أعترض مشيئتك . إن إرادتك مقدسة عندي ، بل أنا أحب أن تكون لك إرادة لكي تكوني على الدوام قوية فيزداد إعجابي بك . على أن من حتى أن أسألك لماذا رفضتني زوجاً لك ؟ ... كان يخيّل إلى أن فكرك قد استجاب إلى فكري ، وأن قلبك قد خفق لقلبي . ولهذا أحببتك ... فهل كنت واهماً ، هل كنت مغروراً ، هل ختمت كبريائي على بصرى فأعمتني عن رؤية الواقع الذي يذهلني اليوم ويكاد يذهب بلبى ؟ ... إني أحبك ، فصارحيني بدخيلة نفسك . ومهما كان حكمك قاسياً وفظيحاً ، فسأعرف كيف أحتمله لأني أعتقد أن كل ما لا يقتلني يقويني ! »

وبعد بضعة أيام ، تلتني نيتشه من الفتاة الجواب التالي : « لقد أعجبت بك ، ومازج إعجابي شيء كثير من العطف عليك ، وكدت أخضع لك وأستسلم . ولكنني استيقظت والحمد لله قبل فوات الوقت .. أتعلم لماذا رفضت الزواج منك ؟ .. لأن عميقة القوة التي تدعو إليها تقلقني وتخيفني . أنا امرأة ، وكل امرأة تحب القوة وتنشدها . والقوة في ذاتها شيء عظيم ، ولكنها شيء ناقص . القوة تخلق الفكر ، وتخلق الحضارة ، وتنظم المجتمع ، ولكن الحرص على الفكر ، والحضارة والمجتمع ، لا يمكن أن يتم في عرى بدون محبة ... فالمثل الأعلى في نظري هو اقتران القوة بالمحبة ، أي اقتران فضائل الإرادة والعمل والسيطرة والاستعلاء التي يمتاز بها الرجل المتفوق ، بفضائل الطيبة والرحمة والحنان والتضحية الكامنة في نفس المرأة المتفوقة ... ومن مجموع هذه الفضائل تتكون الحقيقة الإنسانية الكبرى ! ولقد كنت

أعتقد عندما عرفتك أنك إذا كنت تمثل القوة فأنا أمثل الحب ، وأن في وسعي بفضائل المحبة الكاملة في نفسي أن أستكمل النقص الملحوظ في قوتك ، بحيث نحقق معاً تلك الوحدة الإنسانية المبتغاة ! ولكني أدركت أنك تضع القوة فوق كل شيء ، وتؤمن بأن القوة وحدها قادرة على كل شيء . لهذا رفضت الزواج منك ، وأصبحت أثق أنه من المستحيل علينا أن نتفاهم يوماً ونتحاب . فامض في طريقك ، فأنا لست لك ، وأنت لست لي ولا لغيري ، بل للفكر المجرد الذي تعتقد أن في مقدورك أن تفرضه عنوة واقتداراً على حقائق الحياة ! .. » .

ولم يكن نيتشه ليتوقع أبداً من الفتاة مثل هذا الخطاب الجريء ، ولم يكن ليتصور أنها يمكن أن تقف منه موقف المعلم . فاستشاط غضباً وسخطاً ، وأبت عليه كرامته أن يعود فيتوسل ويستجدي . ولكن اعتراض الفتاة على تعاليمه أثار فيه حنق المفكر ، واختلط هذا الحنق في نفسه بعاطفة حبه التي ألهبها الإعراض والصد . فتخاذل بالرغم منه ، وأبى إلا أن يجرب أيضاً حظه . فكتب إلى الفتاة مرة ثانية ، لا ليبيها غرامه ، بل ليشرح لها فلسفته ، ويحاول أن يقنعها بأن المحبة ضعف ، وأنها هزيمة ، وأنها تجرد القوة من خصائصها الخالقة ، ولا تحافظ على الفضائل والحيرات التي تصدر عنها ، بل على النقيض تعصف بها ، وتدمرها تدميراً ...

وأمعن في تمجيد رسالة القوة ما شاء له إيمانه ، وما شاءت له رغبته في التأثير في الفتاة وإقناعها :: ثم بعث إليها بالرسالة ولبث ينتظر .. انتظر أياماً ، أياماً طويلة . ولكنه لم يظفر من الفتاة بأى رد . فثار تأثيره عليها ، وفكر في طردها من حياته والتخلص منها . ثم عزاً عليه أن يفقدها . فأراد أن يذهب إليها . غير أنه أشفق في النهاية على البقية الباقية من كبريائه وآثر أن يحتجب أيضاً وينتظر ::

ولكن « لوسالوميه » كانت قد تحولت شيئاً فشيئاً إلى الطريق الآخر :: كانت قد اتجهت بوجدانها وعقلها صوب الموسيقى الكبير « ريتشارد

فاجزر « الذى خيل إليها أنه هو المجدد الأعظم ، وهو العبقري الفذ الذى تقترن في فنه الساحر دعوة القوة بدعوة المحبة ، والذى يعبر عن مثلها الأعلى في الإنسان الكامل أتم وأصدق تعبير :

وكان نيتشه ما يفتأ يهاجم فاجزر ، ويحمل على فنه حملات شعواء . فاستنكرت « لوسالوميه » هذه الحملات الخائفة ، وعزتها إلى الحسد والغيرة . فاشتد نفورها من « نيتشه » ، وتضاعف إعجابها وتعلقها بالموسيقى النابغة :

وكان « فاجزر » في أوج مجده إذ ذاك ، وكانت أوبراته تمثل على مسرح مدينة « بايروت » . فحدث أن دعيت شقيقة « لوسالوميه » إلى تلك المدينة لمشاهدة مسرحية غنائية جديدة « لفاجزر هي » برسيمال .

ورافقت « لوسالوميه » شقيقتها وشاهدت المسرحية . ولأول مرة في حياتها شاهدت فكراً خارقاً ، وفناً رائعاً ، ونصراً ساحقاً ، ومجداً « لفاجزر » منقطع النظير . فاضطربت عواطفها ، وجاشت أنوثتها ، وخضعت بجمع كيانها لسلطان الفن وسحر الموسيقى .

خاطبت تلك الموسيقى ، الصاخبة الرقيقة ، الهادرة الوديعه ، العاصفة الحاملة ، اللنيوية السماوية ، نزعة القوة والمحبة الكامنة في قلب الفتاة فأيقظتها ، واستطاعت أن تحدث في نفسها ذلك الأثر العميق الذى لم يستطع أن يحدثه لا شعر نيتشه ولا فلسفته .

وأخذ الإعجاب من الفتاة مأخذه ، فطلبت مقابلة « ريتشارد » فأذن لها .

وما إن دخلت عليه وأبصرته أمامها يتسم تواضعاً ، ويختلج عبقرية ، ويتألق بجمالاً ، حتى انتشت ، وأصابها من فرط النشوة شبه خبال . فجثت على الأرض ، وحدثت إلى « فاجزر » تحديق العابد ، ثم انحنى في خشوع وقبلت يد عدو « نيتشه » اللدود .

ومنذ ذلك اليوم ، بل منذ تلك اللحظة ، أصبحت من عشاق « فاجزر » ودعائه ومريديه ، وعاهدت نفسها وأصدقاءها على ألا تكتب لنيتشه

أو تتصل به أو تراه أبداً .

ولما بلغ « نيتشه » النبأ : انخلع قلبه : وغلى الدم في عروقه . وكاد الصراع يقضى عليه . ولكنه غالب ضعفه . وتمالك نفسه : وعمغم في هدوء كلمته المشهورة معرضاً « بفاجتر » : « لقد اجتاز طائر سماء غرامى فاحتطف المخلوق الذى أحببته . ولكن هذا الطائر لم يكن نسرأ . وفي هذا عزائى ! ... » .

ثم ترك صديقه « بول رى » الذى نقل إليه النبأ والذى تزوج فيما بعد ابوسالوميه ، تركه ، وصعد إلى مخدعه . وهناك أوصد عليه الباب . وتناول السكين ، وشرع يحز بها أصابعه !

روزينا مولر
أو

وحى الأرواح في الفسج



« روزينا موار شاعرة ألمانية نابغة من شاعرات القرن التاسع عشر :
وقعت في حياتها مأساة ما أظن أن مثلها قد وقع لإنسان . وإلى القارئ
قصة هذه المأساة التي خلقت فن الشاعرة وأحدثت في حياتها أعظم
تأثير » .

• • •

في صباح يوم من أيام شهر نوفمبر ، شديد البرد ، ملبأ السماء بالسحب ،
كان القطار الحديدي البطيء الذي يسير في أراضي « بوميرانيا » القاحلة
ذات المستنقعات الكثيرة ، يقل في إحدى عربات الدرجة الثالثة فتاة
عانساً في الثانية والثلاثين من عمرها ، قضت عليها الحياة الغاشمة أن تكون
فريسة البؤس والمرض .

كانت والدتها العجوز قد جُنت عقب إصابتها بمرض عصبي حار
في علاجه نطس الأطباء . أما والدها الذي كان موظفاً في إحدى
الشركات ، فقد أدمن معاقرة الحمر بعد وفاة امرأته ، واجترع منها في
إحدى الليالي أكثر مما يحتمل بدنه الضعيف ، فما إن غادر باب الحانة
حتى وقع مغشياً عليه ثم مات في الحال . وأما « روزينا » نفسها ، روزينا
التي انحدرت من أب سكير وأم معتوهة ، فقد كانت نحيلة البنية ، صفراء
اللون ، ضامرة التقاطيع ، تغشاها نوبات عصبية طويلة المدى ، وتعترىها
أزمات تشنجية يمازجها سهوم في الدهن وشروء في العقل وتشوش في المنطق
والتفكير .

وكانت قد تلقت بعض علوم أولية تمكنها من ممارسة مهنة التدريس
بيد أن مرضها العصبي كان يعيقها عن القيام بعملها ، وكان يغري التلميذات
بها ، ويطمعن فيها ، ويدفعهن إلى التطاول عليها . فحز في نفسها أن
تفشل في التعليم بالمدارس . فعقدت عزمها على طلب الرزق من وظيفة

معلمة أولاد في البيوت : فنشرت إعلاناً في الصحف : وسرعان ما تلقت رسالة من أسرة تقيم في ضواحي بوميرانا ، تعرض فيها على الفتاة عملاً ثابتاً بأجر معقول .

وها هي ذي « روزينا » تفكر في هذا العمل ، وفي الحياة الجديدة التي تنتظرها ، وفي ماضيها الأسود الذي كانت ترتعد فرقاً من تصوره ، وتحشى أن يلازمها ملازمة مرضها .

كانت فتاة بسيطة القلب ، مولعة بقرض الشعر ، يشغلها طلب الرغيف عن النظم ، ويصرفها الواقع عن الخيال ، وتطويها الحقائق في غمرتها فتباعد بينها وبين عالم التأملات والأحلام . فلما وقف القطار في المحطة التي كانت تقصدها ، ولفظها من جوفه الصاحب الهادر ، تلفتت حولها ، فإذا بها في مكان قفر جاثم في سفح تل كبير . فاضطربت وخفق قلبها . ولكنها أسرعت واستفسرت من ناظر المحطة عن مقر الأسرة . فأنهاى إليها أن البيت يبعد عن المحطة نحو ميلين عليها أن تقطعها مشياً على الأقدام ، فتولاها من فرط ضعفها يأس مفاجئ حيرها وأكربها .

وفي تلك اللحظة ، أبصرت صبياً يقفز من عربة حقيرة يجرها جواد مهزول ، ويدنو منها ، ويسألها عن اسمها . فلما علمت أنه موفد من قبل الأسرة ، تهلل وجهها ، ووثبت إلى العربة ، ومضت تحديق إلى الصبي الذي كان يتسم لها ابتسامة ساذجة لا تتم عن سرور أو فرح ، يل عن سخرية خفية تومض فيها ، الوقت بعد الآخر ، لمعة خاطفة من أعطف صبياني غريب .

وانطلقت العربة في طريق ضيق لا أشجار فيه ولا أعشاب حتى بلغت قرية نائية تؤدي إلى عزبة كبيرة ، ذات أكواخ متناثرة ، يقطن فيها جمع من فقراء الفلاحين ، وتخطت الفتاة حاجزاً خشبياً ، وسارت خلف الصبي ، فإذا هي في

حديقة مهمة ، تفضى إلى البيت .
 ووقف الصبي تجاه الباب ، وجذب سلسلة من حديد هراها الصدا .
 فدق جرس محزون ، وبرزت خادمة عجوز مهلهلة الثياب . استقبلت
 « روزينا » فى فتور ، وقادتها إلى حجرة مظلمة حيث كان ينتظرها رب
 البيت وزوجته المشلولة .

وكان صاحب البيت رجلاً مفتول العضل ، وثيق التركيب ، تلمع
 عيناه السوداوان تحت حاجبيه الكثيفين لمعاناً حاداً ماضياً مزعجاً . فرمقته
 « روزينا » بنظرة واختلجت . ولكنه تقدم نحوها وحدق إليها وقال وهو يكاد
 ينهرها :

— أرى فى وجهك شيئاً غير عادى ... فما هذا ؟ ..

فاختلجت الفتاة وقالت :

— هذا من فرط التعب يا سيدى فسأحى

فقال وهو يتفرس فيها :

— لا ... إن أصابعك لا تفتأ ترتعش ... لقد استفسرنا عنك ،

فعلمنا أن والدتك ماتت مجنونة ، وليس فى هذا ما يبعث على الاطمئنان ...
 فهتفت الفتاة :

— ولكن صحى جيدة ... وهذا الاضطراب العصبى لا يتناهى إلا إذا

خفت أو قلقت أو تهيبت الناس ...

فالتفت الرجل إلى زوجته ، وقال :

— وما رأيك يا « أوحستا » ؟ ..

فقالت المرأة المشلولة بصوت جاف

— هذه الفتاة دميعة ... وأنا لا أحب الدميمات ... وأكبر ظنى أن

ابنى « جوتفريد » لن يحبها ! ...

فصرخ الرجل فى وجه زوجته :

— لا بد أن يألفها وسياؤها ... يجب أن ينزل على حكم الظروف ...

أما نزواته فلا ينبغي أن تحفل بها !
 فارتجفت مدام « أوجستا » ، وهمت بالكلام . ولكن زوجها ألقى
 عليها نظرة صارمة : وأردف وهو يتجه صوب « روزينا » :
 - ستهب بك الخادمة إلى غرفتك .
 وعاد فألقى عليها نظرة غريبة : ثم هز كتفيه هزاً خفيفاً ، وصافح
 الفتاة مبتسماً وخرج .

وكانت الغرفة ضيقة ورطبة أشبه بسجن . فأجالت « روزينا » الطرف
 فيها وهي ترتعد . ثم شرعت تفتح حقيبتها . وترتب متاعها ، وتقر الهدوء
 الممكن في أعصابها المتوترة التي كانت تتلهف على رؤية الصبي
 « جوتفريد » .

وفجأة دق جرس الغداء : وجلس الجميع حول المائدة . فدهشت
 « روزينا » إذ أبصرت فتى في نحو السابعة عشرة من عمره . بدين الجسم
 جميل الوجه ، نفوراً ، كثيباً ، صموتاً . ينظر إليها من طرف خفي ،
 ويزدرد الطعام في سرعة وحشية منهومة .

وعلمت « روزينا » أن هذا الفتى هو ابن مدام « أوجستا » من
 زوج آخر توفي منذ أعوام ، وخلف لها ولائنه هذا المنزل والعزبة المحيطة به .

أحست الفتاة أن الزوج يكره الغلام . ويضطهده : كما أدركت
 ببصيرتها أن « جوتفريد » هو العقبة الوحيدة التي تحول بين زوج أمه وبين
 استيلائه على المنزل والعزبة والتصرف فيهما كيف شاء ... فأشفقت على
 الغلام وبدأت تميل إليه ، وتعطف عليه ، وتضاعف من رقتها في معاملة ،
 ورقتها في التحدث إليه كلما شاهدت أمه تنتفض رعباً أمام زوجها .
 وتوشك أن تستبد بابنها هي أيضاً خضوعاً لأمر قرينها ، وكسباً لرضاه .

والحق أن مدام أوجستا كانت تتعذب في صمت ، وتحتل في صبر ،
 وتمهر ابنها وتزجره عن طواعية واختيار ، كي تقر الهدوء في نفس قرينها
 والصفاء في البيت .

ولكن الزوج كان يحقد على الفتي حقداً أعمى . كان يبغضه بغضاً خبيثاً لشيئاً يتجلى في نظراته الشريرة ، وعباراته الناهرة الملاذعة .
والغريب أن « جوتفريد » كان يقابل هذا الاضطهاد بضرب من الغضب البارد ، والاحتمال المعتز ، والازدراء غير المكترث . فكان هذا المسلك السلبي في الدفاع عن النفس يثير ثائرة الزوج . ويتسلل في الوقت ذاته إلى سائر أخلاق الفتي جوتفريد وطباعه . فيتزعج به إلى العزلة ، ويحبب إليه الانطواء ، ويغريه بالامتناع عن التفكير والامتناع عن التأمل خشية الاصطدام بالواقع المرير .

وهكذا ولد فيه مساكنه السلبي عجزاً في الإرادة ، وتبلداً في الذهن ، وخمولا في الفكر ، وبلاهة في العقل .
فلما اتصلت به « روزينا » ، وأرادت أن تعلمه وثقفه وتهذيبه ، ألقت نفسها حيال مخلوق أصم الحافظة ، جامد الإدراك ، مغلق الخيال ، لا يمكن أن يعي شيئاً . فتساءلت لماذا أرادوا أن يعلموه بعد فوات الوقت ، ولماذا استقدموها إلى هنا ؟ ...

وتضاربت في ذهنها الخواطر ، وفكرت في الرحيل . ولكنها كانت فقيرة بل كانت معدمة ، فأثرت أن تصبر وتبقي .
والواقع أنها بقيت لا بدافع الفقر فحسب . بل بدافع آخر خفي أبت أن تفكر فيه أو تتصوره .

كان الفتي خاملاً أبله بليداً . ولكنه في جماله الخالم ، وسكونه الشارد ، وهدهوته المستسلم ، ووحشيته النافرة ، كان ساحراً جذاباً ، يغري المرأة بالحنان ، ويوحى إليها الرعاية الصادقة والعطف المشفق العميق .

وشيئاً فشيئاً ، وبعد أيام وأسابيع ، روعت الفتاة العانس المسكينة ، — وبدأت تحس أمام الفتي المضطهد الكسير ، أنها تتبدل فجأة وتتحول ، وأن جوهر كيائها المحروم يستيقظ فيها وينبعث إلى النور ممثلاً في « جوتفريد » . أحبته على الرغم منها . أحبته وهي تعلم علم اليقين أنه

لا يمكن أن يكون عاشقاً ، ولا يمكن أن يكون إنساناً ، ولا يمكن أن يكون زوجاً . أحبته كما لو كان ابنها الغالي وطفلها المعبود ، وأحبت فيه ثمرة غرام تخيل ، وطيف زوج فاتن منشود ...

كانت إذ تجلس إليه لتعلمه ، تشعر بقلبي يخفق ، وبدنها يرتعش ، وأعصابها تتصدع وتتهار . فتود أن تبكي ، وتود أن تضحك ، وتود أن تنحني وتقبل الأرض وتشكر الله على هذه النعمة التي لم تكن لتحلم بها أبداً ...

وكان « جوتفريد » يقبع عند قدميها ، وينظر إليها بعينيه الخاويتين ، ويتلهى عن الدرس بمداعبة كلبه الأبيض الجميل « هاري » الذي لا يفارقه لحظة ...

كان يحب هذا الكلب إلى حد العبادة ، وكانت « روزينا » تغار منه وتنزعج من نباحه ، ولا تطيق من الشاب أن يلاطفه ويدلله ويغمره في بعض الأحيان بالقبلات .

ولكم تمت أن يضمها « جوتفريد » بين أحضانه كما يضم ذلك الحيوان ، وأن تعبث أنامله في شعرها ، وأن تترفق شفتاه يوماً فتمنحها ولو قبلة واحدة .

على أن « روزينا » برغم عذابها كانت راضية . كانت قانعة . كانت سعيدة . لا يعكر عليها صفو سعادتها غير ذلك الحيوان الذي كان يفصل بينها وبين حبيبها ، ويشعرها شعوراً مؤلماً قوياً مذيباً بأن « جوتفريد » ليس ملكاً لها وحدها .

وأحست « روزينا » فجأة أن هذا الحب الطارئ الخارق ، يلهب كيائها ، ويضرم فيها على دهش منها شعلة الفكر والخيال .

رأت نفسها تولع بالمطالعة ، وتشغف بالتأمل ، وتنزع إلى تسجيل أحلامها وتأملاتها وعذاباتهما في شبه قصائد نثرية تفرج بها عن قلبها الشارد المحروم :

وضربها برق الحب بصاعقة الوحى ، فلم يحرقها ، بل حرك هامد
 نبوغها ، وأثار كوامن عبقريتها ، فاندفعت ومضت تقرض الشعر .
 وأدهشتها هذه المعجزة . فأرادت أن تعرف قيمة شعرها ، أن تقرأه
 على إنسان . أى إنسان ... فقرأته على « جوتفريد » . بيد أنه لم يفهم
 شيئاً ، واكتفى بأن هز رأسه مبتسماً ومضى يداعب كلبه الأبيض ...
 هذا الحب التاعس المقرون بعبقرية مغمورة ، ضاعف من حيرة
 الفتاة وقلقها وعذابها . فلم تجد بداً من خنق لوعتها في حبها نفسه . فأسرفت
 في خدمة « جوتفريد » ، وأسرفت في رعايته ، وأسرفت في تدليله ،
 ولم تفتن وهي في عمرة بؤسها ونعيمها إلى أن هناك عيناً ترقب غرامها الوليد .
 وتربص بها ، وتحفر تحت قدميها هاوية مروعة لا قرار لها .

كان الزوج الجشع المستبد يحوم حولها ، ويتتبع حركاتها وسكناتها ،
 وبعد العدة لتنفيذ الخطة الرهيبة التي كان قد استقدم الفتاة من أجلها .
 وفي ذات مساء ، روعت « روزينا » إذ أبصرت من نافذة مخدعها
 « جوتفريد » يصرخ في جمع من الفلاحين ويتوعدهم . فهيرولت إلى
 الخارج مسرعة . فلما أبصرها الفتى اندفع نحوها وصاح وهو يرتعد من
 فرط الكمد والغضب :

— لقد اختفى « هارى » ... بحثت عنه منذ الفجر في كل مكان فلم
 أجد له من أثر . لا بد أن يكون أحد هؤلاء الفلاحين قد سرقه !
 وعاد فارثى وسط الجمع المحتشد ، وطفق يصرخ ويتوعد وقد اتقدت
 عيناه ، والتوت شفثاه ، واندفق الدم إلى وجهه ، فشوه تقاطيعه ، وضاعف
 وحشيته غلظة وقسوة .

وعندئذ ، وبينما الفتى يهدر حائفاً يائساً مخبولاً ، ويغلى كمرجل حى ،
 أقبل زوج الأم ساكناً هادئاً مهيباً ، وتوسط الجمع الذاهل المتطلع ،
 وقال في صوت غائر أجش وهو يرمق « روزينا » بنظرة هائلة صارمة :
 — هذه الفتاة هي التي سرقت الحيوان المسكين ! ... هي التي أغرقته

في التربة المجاورة ليلة أمس ! ... كان نباح الحيوان البريء يزعجها فتخلصت منه ! ... ولقد رأيتها تربط حجراً في عنقه وتدفع به إلى جوف الماء ! .. فلما أخذت بتلابيبها ، زعمت أن مرضها العصبي هو الذي ساقها إلى الجريمة على الرغم منها . ثم التمت إلى وهي تقبل يدي أن أخفي السر عن « جوتفريد » وأن أصفح عنها ... ولكني الآن وأمام الألم الفظيع الذي يشعر به هذا الفتى ، جاهدت نفسي على الصمت فلم أستطع ...

وكان يتكلم في نبرة صادقة متحمسة ، وفي حرارة مؤمنة مقنعة ، وكانت « روزينا » تنظر إليه تائهة العينين . شاردة اللب ، تود أن تتحرك وتثب وتنطق فيردها الدهول . وتحنقها الدهشة : ويحمد الخوف والذعر في قلبها كل إرادة .

وفجأة وقد فاض بها شعور الاستنكار والسخط : استجمعت قواها وصاحت :

— أنت كاذب !

فامتقع وجه الزوج ، وقال :

— ألم تعترفى أنت نفسك بجريمتك ؟ ... حدثني إن استطعت وحاولي أن تنكري ... اذهبي حالا ، وأعدى حقيبتك ، وتهيئي للرحيل قبل مطلع الفجر !

وفي تلك اللحظة أرسل « جوتفريد » صرخة مدوية وهتف :

— لا .. لن ترحل قبل أن تلقي جزاءها .

وانهال على الفتاة ضرباً بكفيه ، ولكمأً بقبضتيه . وركلاً بقدميه . فنتطوحت « روزينا » وذهلت . ولكنها احتملت وتجلدت وجثت عند قدمي الفتى وصاحت وعيناها مغرورقتان بالدموع :

— أنا بريئة يا « جوتفريد » ! .. اضربني ! .. اضربني ما شئت ،

ولكني أقسم بحياتك الغالية أنني بريئة ! ...

فلم يزد نحيبها إلا هياجاً . ففضى يضربها ويركلها كعتوه ، فثارت

اعصابها وصاحت على الرغم منها والدم يسيل من خديها :
 - سينتقم الله منك ! ...

وانقضت كأنما قد عز عليها أن تصيب حبيبها بكلمة سوء واحدة :
 فتشجعت عضالاً ، وتمشت الرعدة في بدنها ، وجعلت تصرخ وتهدي .
 ثم انطلقت صوب حجرتها وهي تئن وتتلوى وتجهش بالبكاء .
 وارتمت على فراشها لحظة ، ثم نهضت وأعدت حقيبتها ، ثم انهارت
 وتجمدت ولم تقو على مغادرة الحجرة ...

وانقضت ساعات ، ووقد كل من في البيت ، ومزقت « روزينا »
 فكرة الرحيل ... فتاقت نفسها إلى توديع حبيبها . فهضت وفتحت باب
 حجرتها ، ومشت على أطراف قدميها العاريتين ، واجتازت الممشى الطويل
 وممرت بالغرفة التي ترقد فيها الخادمة ، حتى بلغت مخدع « جوتفريد » ...
 وهناك انحنت على نفسها ، ونظرت من ثقب الباب ، وجعلت تتأمل وجه
 الفتى ، وتنصت إلى وقع أنفاسه ، وتشرب روحها الظامئة من فيض كيانه
 المعبود .

ولما ارتوت وهدأت ، كرت راجعة وهي تحبس أنفاسها ، وتحقق
 دموعها ، وتحاول أن تنزل على حكم القدر الذي أبى إلا أن يتعقبها
 ويحرمها كل سعادة ويبطش بها . ولكنها ما إن تقدمت حتى سمعت حركة
 غريبة منبعثة من أقصى الممشى ، حركة تلتها صرخة ، صرخة واحدة ،
 صرخة مفزعة ، سرعان ما انطفأت وغابت في سكون الليل .

واقشعر بدن الفتاة ، وارتدت ملهوفة إلى الممشى . ولكنها قبل أن
 تبلغ مخدع « جوتفريد » ، لمحت شبحاً ينسل منه ويتجه نحو حجرتها هي ،
 ثم يصطدم بها . ثم ينقض عليها ويمسك بخناقها . ويجرها إلى المخدع جراً .
 فحاولت أن تتملص وتصرخ ، ولكن الشبح جذبها إليه ، ودفعها إلى
 داخل المخدع : فألقى بها على فراش الفتى ، وأوقد النور .
 وانصب على المخدع ضوء ساطع . فأجالت « روزينا » للطرف حولها ،

واحتواها من فرط الذهر همود وذهون ... أبصرت أمامها ، على الفراش
الأبيض الناصع وفي وهج الضوء المتراقص الغامر ، جثة « جوتفريد » ،
جثة ابنها وحييها ومصدر وحيها وإلغامها ، مشوهة الوجه ، ممسوخة التقاطيع ،
مطعونة في صدرها ، ينزف منها الدم . فارتمت على الجثة والذعر ينهبها :
فتلوثت بالدم يداها ووجهها وثوبها . فتحوّلت وقد تاه عقلها ، وأنشبت
أظافرها في عنق الزوج وصاحت به وهي تحتلج والضلام يغطي عينيها :
- قتلته ؟ .. أنت الذي قتلته !

فعاجلها الرجل بلطمة ألقت بها على الأرض . ثم اندفع هو إلى
النافذة وفتحها وطفق يصرخ :
- النجدة ! ... الغياث ! ...

وفي مثل خطف البرق ، ماجت القرية النائمة ، ولعت في جوها
الأضواء ، وتقاطرت جموع الفلاحين على البيت وامتلأت بهم حجرة
القتيل :

وثابت « روزينا » إلى رشدها لحظة . فأبصرت العيون الحاقدة مصوبة
نحوها ، والقبضات المهددة ممتدة إليها ، والصرخات واللعنات منهالة عليها ،
ثم سمعت المجرم يتهمها ويؤكد أنها مجنونة ومختلة الأعصاب كأماها ،
وأنها كما قتلت الحيوان المسكين ، قتلت « جوتفريد » أيضاً ، انتقاماً منه
لأنه ضربها أمام أهل القرية وأذلها !

رأت « روزينا » كل هذا وسمعت فطاش صوابها . حاولت أن تنطق :
ولكن شيئاً كالموج الجارف طغى فجأة عليها . عقد لسانها ، وشوش ذهنها ،
وأخذ إرادتها . فبدل أن تتكلم تتممت ، وبدل أن تصرخ قهقهت ،
وبدل أن تدافع عن نفسها وتجابه المجرم ، ارتمت على جثة جوتفريد ،
ومضت تقبلها وتضحك وتبكي وهي لا تردد غير كلمتين :

- حبيبي ! ... ولدي ! ...

فهتف الفلاحون :

— مجنونة ... إنها مجنونة ! ...

وتراجعوا مذعورين . وهم البعض منهم بالخروج لإبلاغ البوليس .
وفي تلك اللحظة انشق جمعهم . وانفصح بينهم الطريق ، وظهرت مدام
أوجستا المشاولة متكئة على ذراع الخادمة ووجهها مصفر . وعيناها زائغتان .
وأوصالها ترتعد . وما إن شاهدت الجثة : حتى أرسلت شهقة ممزقة :
ثم تفرست في زوجها لحظات ، ثم أغمضت عينيها وأمسكت قلبها بيدها .
وندت عنها صرخة وهوت على الأرض فاقدة الحركة والحياة بجوار جثة ابنها .
وحملت « روزينا » في الجثتين كما يحملق النائم في حلم مزعج يريد
أن يتبين حقيقة هو أم خيال . فصدمتها الفاجعة الطارئة ، ونهبت ذهنها
فترة . ولكن هول الحوادث المتلاحقة عاد فراكم على عقلها الضباب . فلم
تفهم شيئاً . لم تحس بشيء . غابت عن وعيها ، وجرقها بغتة شبه نوبة
صرع أعقبها إغماء .

• • •

وفتحت عينيها فأبصرت نفسها في مكان غريب ، يحيط بها رهط
من النسوة ملتزمات العيون ، مكشوفات الصدور ، عليهن غلاثل
بيضاء ممزقة ، يضحكن تارة ، ويصرخن أخرى ، ويمرحن في حديقة
كبيرة كأنهن طوائف من الجن . فأفاقت « روزينا » من سباتها ،
وأنجابت السحب عن ذهنها ، واهتز بدنها وانخلع ... أدركت أنها في
مستشفى مجاذيب . فذكرت كل شيء . كل ما وقع لها . ذكرت ماضيها ،
وذكرت حباها ، وتمثلت الحقيقة المرعبة مجردة من كل قناع . فلم تتردد .
واقتمت حجرة طبيب المستشفى ، وجعلت تصرخ :

— لست مجنونة ولا مجرمة . القاتل هو زوج مدام أوجستا . هو الذي
دبر المكيدة ، وهو الذي قتل « جوتفريد » وتخلص من المرأة المشلولة ،
ليصبح المالك المتصرف الأوحده في ثروة زوجته !
وفحصها الطبيب وأيقن أنها سليمة العقل وتأكد من براءتها . فأشفق

عليها وتحمس لتقصيتها وحالفه مدير المستشفى ورئيس البوليس . فبعثوا في طلب المجرم ، فأنكر وأصر على اتهامها . فزجوا به في السجن ، وحرموه الطعام والشراب . ثم أمعنوا في استجوابه . وضيقوا عليه الخناق حتى اعترف . فحوكم أمام القضاء وحكم عليه بالإعدام شنقاً في قريته وعلى مشهد من الفلاحين .

أما « روزينا » فقد أثلج الحكم العادل صدرها . فاضطرم خيالها واشتعل نبروغها . وقبل أن تغادر المستشفى وترتد إلى حياة اليأس والمجاهدة والكفاح ، التفت إلى المدير أن يبقيا حيث هي بضعة أسابيع أخرى ، تؤدي في خلالها رسالتها ...

وُبهِت المدير إذ علم أنها شاعرة . فنزل على حكمها . فكانت تقضى سحابة يومها في خدمة المريضات . فإذا هبط الليل ، هرعت إلى حجرتها ، وفزعت إلى قلمها ، وشرعت تنظم القصائد الرائعة تمثل فيها مأساتها .

وهكذا وضعت جنيها المعنوي وأتمت ديوانها « حب ودم وموت » . فغادرت المستشفى وفي عزمها أن تشق طريقها في دنيا الأدب والفن . وما هو إلا عام حتى توج الديوان هامتها بإكليل من الشهرة والمجد . ولكن صفائر هذا الإكليل كانت معقودة بدم ابنها ، بدم حبيبها ، بدم زوجها المخيل وقرين أحلامها . قالت على نفسها ألا تجحده . وألا تخونه ، وألا تعيش إلا لتجدد شبابه وحياته في فن يخلد إلى الأبد حبها وذكراه .

obeykandi.com

مكسيم جوزكى
أو

القلوب في مغرب العمر



« أولع الروائي الروسي الأشهر مكسيم جوركي وهو في الخمسين من عمره بفتاة في العشرين تدعى أولغا إيفانوفنا . وبعث إليها بهذه الرسالة التي تمثل أروع تمثيل قلب عبقرى . كما تمثل مبلغ ما في غرام الكهول من عنف وحسرة وحنون » .

• • •

قال الروائي :

« لا أعرف لماذا كتبت إليك هذه الرسالة . كان يجب ألا أكتبها أبداً . ولكن قوة قاهرة دفعتني ، وعاطفة عميقة أخذتني ، ورغبة مستبدة قاسية ختمت على بصري . وجردتني من كل عقل وكل فكر وكل إدراك .

إنى لأخشى أن أتكلم . وأخشى أن أكتب . وما هي ذى الكلمات تفر مني ، وتتملص من قلبي ، وكأنها تقول لي : مكانك أيها الرجل فأنت غر أبله ، وأنت أحمق معتوه !

ماذا؟ أفي مقدور مثلي أن يتطلع إلى السعادة؟ أفي مقدور مثلي أن يخالس النعيم؟ . أنا رجل في الثالثة والخمسين ، وأنت ، أنت فتاة في الثانية والعشرين ! ومع ذلك فيجب أن ألتقي عند قدميك بحملي ، ويجب أن أفتح لك مغاليق صدري ، ويجب أن أعترف لك بهذا الحب الطارئ العنيف الذي غافل فكري . واستقر من كيانى المعذب في الصمم .

نعم أنا أحبك يا فتاتي . أقولها والحجل يملأ نفسي ، والذلة تسحق فؤادي . والعار يجلل هامتي . ولكن ما حيلتي في عواطفي ، ما حيلتي في نداء الشباب والحياة الذي يجلل من حولي ، ويصم أذني ، ويعمييني عن رؤية حقيقتي ؟

إني مريض وضعيف وحزين . ولكن المرض هو الذى يغربني بالصحة ، والضعف هو الذى يغربني بالقوة ، والحزن هو الذى يغربني بالفرح ، ويزين لي تجربة السعادة في حبك لآخر مرة .
لا يمكنك أن تتصورى مبلغ الحرقه التى أحس بها كلما رأيتك ، أو تحدثت إليك ، أو نحتت في فورة حنمى ظل ابتسامتك . أنت الجمال بنصرته الذهبية ، وأنت الشباب بإشراقه الحى . أما أنا فخوفى من الموت هو الذى يدفعنى إليك . ولأنى أخاف الموت أجد نفسى بالرغم منى مرتبياً في حزن حبك ، هو ذاك . المرض الذى أشعر به يذوب ويضمحل في فيض صحتك ، والضعف الذى أثور عليه يتبدد ويفنى في قوتك . الحزن الفاجع الذى أغالبه وأقاتله ينطرح على الأرض صريعاً وتموت صرخاته في ضحكائك البريئة المدوية النشوى !

فأنت الدم لمن جفت دماؤه ، وأنت العصب لمن تصادعت أعصابه ، وأنت الشمس لمن وهنت عظامه ، وبات يتحرق ويتلطف على وقدة نار تحييه وتنقذ جسده البالى من همود القبر وبرودة العدم .
إني لأكاد أنكر رسالتى ، وأكره الخلق والإبداع . وأنفر من الكتابة والتأمل كنى أنقطع لخبك . ولكن شيطانى يرتد إلى ويعود فيتغلب على ويغربني بأن أمسك بالقلم وأضع قصة أو مسرحية . ثم يشتد في نفسى الصراع . الصراع بين واجبي وقلبي ، بين رسالتى وحبى . فأشعر في الكتابة والتأليف بالرغم منى . ثم أمزق الورق وأفكر فيك ، ثم أعود وأحاول أن أخلق وأبدع فأعجز وتنهمر من عيني الدموع .

بيد أنى سأقهر هذا الصراع بالارتقاء فيه ، بإبداعه في عمل فى يخلده ، في قصة رائعة تصوره وتصور مبلغ حبي العظيم لك .
بهذا أستمد منك نوراً وإلهاماً . بهذا أجعل من غرامى طرفه حية وباقية . ومع ذلك فأنا أتمنى لو أحببتنى . . . لا . . . بل لو تصدقت على بالنزر اليسير من عطفك . ولكن كيف أطمع فى المستحيل . كيف

أخالس مثل هذا الأمل . كيف يطاوعنى ضميرى على محاولة الجمع بين موفى وحياتى ؟ !

إنها لجريمة منى أن أفكر فيك ، وجريمة منى أن أعبدك ، وجريمة منى أن أخط هذه الرسالة إليك . ولكننى أريد أن أعيش وأنت واسطة حياتى . أريد أن أنتشى وأنت صباية كأسى . أريد أن أتغلب على المرض والضعف والشيخوخة والموت ، وأنت حافز قوتى ! ... فانقذنى يافتانى . أنقذى روحى من الظلام ، وعقلى من الجنون ، وجسدى من الفناء والبوار . انحنى على ولو لحظة ، أشفى على ولو خدعة . مالكينى على حى ، ومالكينى على أملى ، ثم اهزئى بى واضحكى منى ، على شرط ألا أفهم أو أسمع أو أرى .

هذا كل ما أطلبه إليك : كلمة وبسمة ، نظرة وتحية ، رقة وعذوبة شفقة ورحمة ، عطف وحنان . . . ولك بعد ذلك أن تسعدى . لك بعد ذلك أن تعشنى ، لك بعد ذلك أن تتزوجى .

وإنى لأشهد قلبى الممزق ، وأملى المخيب ، وحظى المنكود ، أن أحب أبناءك كما لو كانوا من فلذة كبدى وعصارة دمى !

فامنحبنى النعمة الأخيرة التى تصبو إليها نفسى ، نعمة أن أراك فقط ، وأحس وجودك فقط ، وأعيش فى ظلك فقط . ولسوف أدفن همى فى صدرى ، وأكتم سرى عن الجميع ، وأستحيل أمام الناس ، بملء إرادتى واختيارى ، وملء لوعتى وعذابى ، وملء نشوتى وفرحى ، إلى تمثال للصمت ، تغلى فى صدره العواطف ولا تتحرك شفقاته برجفة شكوى أو لهفة زفرة ، أو كلمة عتاب ، أو همسة أنين !

وإنى لواثق من أنى عندئذ سأعيش وأتمتع ، وأخلق وأبدع ، وأهزم بقربك المرض ، وأصرع بوجودك الألم ، وأقهر بجبك النقى الكريم ذل الضعف وعجز الشيخوخة وسلطان الموت .

ومتى استنفدت فى ظلك كل قوى حى ، وكل قوى ذهنى ، وكل

قوى حياتى ، ثم غافلنى القدر فأسلمنى إلى الموت بالرغم منى ، فسأرقد
 فى مشواى الأخير ساكن النفس ، هادئ القلب ، طاهر الضمير ،
 سأرقد يا فتاتى ، يا ابنتى ، يا أختى ، فى ظلمات العدم الأبدى وأنا
 أبتسم وأنظر إلى عينيك ! » :

•••

وكانت « أولجا إيفانوفنا » كريمة النفس ، فأجابت جوركى إلى
 سؤاله . ولما تزوجت عرفته إلى زوجها ، وأفسحت له صدر بيتها . فكان
 الصديق المثالى الذى احترم حبه واحترم وعده ، وظل صامتاً نبيلاً عفيفاً
 حتى ضاق ذرعاً بحظه ، فاختفى عن الزوجين ذات مساء ، وغادر بيتهما
 ولم يعد إليه أبداً .

obeykandl.com

ماريا جارسيا
أو

صراع الحب والنجر



من النساء الثابتات اللاتي تأتى نجمهن فى أوربا فى مطلع القرن التاسع عشر المغنية الفنانة الموهوبة « ماريـا جارسيا » .
ولدت هذه المرأة فى باريس عام ١٨٠٨ من أبوين إسبانيين فقيرين ، وكان والدها نفسه مغنياً يقوم بأدوار ثانوية فى بعض الأوبرات فلم تكـد « ماريـا » تبلغ الخامسة من عمرها حتى بدأت هى الأخرى تغنى مقطوعات شتى كانت تسمعها من أبيها وهو يستظهرها فى البيت . فأذهلت الرجل رخامة صوتها ، ودقة تعبيرها ، وشعلة العاطفة المتقدة فى أدائها . فأل على نفسه أن يهذبها ويصقلها ، ويعلمها أصول فنه ، ويجعل منها فى يوم من الأيام مغنية لامعة .. وكان الرجل مستبداً قاسياً وبخيلاً ، لا ينفذ إلى قلبه ضوء من حنان أو سخاء . فشرع يحبس الطفلة فى البيت ، ويفرض عليها الغناء كل يوم ، ويراجع القطع فى صحبتها مرات ، ويضربها ضرباً مبرحاً إذا أخطأت ، ويكافئها متى أحسنت وأجادت بأن يخرج بها إلى النزهة ، بدون أن يمتعها ولو ببعض ما تشهى من لعب أو فاكهة أو حلوى .

كانت « ماريـا جارسيا » طفلة عاقلة وطائشة ، متحفظة ومنطلقة ، يدفعها استبداد أبيها إلى الانطواء على ذاتها ، وتسوقها العواطف المشبوبة المضطربة فى صدرها إلى حب الخيال ، وحب الحرية ، وحب المرح واللهو والحياة .

وكانت كلما أسرف والدها فى ضربها وتعذيبها كى تجيد قطعة موسيقية ولا تخطئ فيها ، تعض على شفتيها ، وتكبح دموعها ، وتأبى إلا أن تتمرس بالقطعة تمرساً كاملاً ، عساها أن تجيدها إجادة خارقة ، فتأثر لكرامتها ، وتثار من أبيها ، وتؤكد أمام جميع أفراد أسرتها قوتها وقدرتها ونبوغها .

وهكذا شبت ماريا وقد تولدت في نفسها رغبة عنيفة في التفوق ، مقرونة بتلهف شديد على العطف ، وتلهف شديد على الحنان ، وتلهف شديد على الحب الذي حرمت منه في بيتها ، والذي لم تجده أيضاً في أمها التي كانت أقسى وأغلظ من أبيها . فإرادة التفوق مضافاً إليها الشعور المرير بوضأة النسوة ونقص الحب والحنان هي التي كانت تفعم صوتها بذلك التأثير القوي العميق الذي خلّب لب والدها ذات يوم وحمله على أن يغامر ويظهر ابنته على المسرح . . .

وظهرت ماريا لأول مرة على المسرح الملكي بلندن وهي في السابعة عشرة من عمرها في دور روزين في أوبرا « حلاق أشبيلية » . فسخر منها الجمهور أول الأمر وكاد أن يصفر لها . ولكنها ما إن أحست بأن كل جهد طفولتها وكل ما تحملته من بؤس واضطهاد وعذاب يوشك أن يذهب سدى ، حتى أهابت بعزمها وإرادتها وكبرها وافتنت في الغناء . فأخذ الجمهور بها ، وزايله استخفافه الساخر في لحظة ، وطفق يصغى وهو مذهول ، ثم وثب ناهاضاً في الفصل الختامى واندفع يهتف للمغنية الناشئة هتافاً حاراً متواصلاً .

وكان نجاحاً منقطع النظير ، بل كان مجدداً لم يحلم به الوالد ولا الفتاة . فتقاطر أصحاب المسارح الغنائية على ماريا ، وتباروا في أيهم يجتذبها بمختلف العروض المغربية . ولكن اسمها كان قد لمع في أوروبا . فتملكها الطموح . فأرادت أن تغزو أيضاً أمريكا . فسافرت إليها وغنت على مسرح « البارك » في نيويورك . فتوجت بين عشية وضحاها أميرة على جميع مغنيات الأوبرا في العالمين القديم والحديد . . . وكانت ماريا لا تنشد المجد بقدر ما تنشد الحب ، بل إن ثمرة المجد كانت في نظرها هي الحب . فكانت تغنى والحسرة في صدرها والألم الدفين يطاردها ، وتمثيل عاطفة الحب يضاعف عذابها ، ويلقى في روعها أنها ستظل ممثلة ، وأنها لن تشعر في الواقع الصادق الحى بتلك

العاطفة المنشودة أبداً .

وبدأ صراعها العجيب . صراعها مع الحجد . كانت لا تريد أن يخفف الحجد وجدانها . أن يخنق عواطفها . أن ينسيها ما لقلبها عليها من حق . أن يجعلها امرأة متكبرة وقاسية تنه على غيرها بالنجاح الباطل وتقعن بما يحسد لها عليه الجميع . فكانت تتواضع ما استطاعت . وتروض نفسها على الرقة والدمائة والحنان كي تكون متأهبة لعاطفة الحب التي تصبو إليها .

وشاء القدر أن يلبي نداءها . وأن يبدل في لحظة حياتها ومصيرها . كانت تفرح ذات صباح في إحدى حدائق نيويورك . وإذا برهط من أصدقائها والمعجبين بها ، يقبل فجأة عليها ، وفي طليعته رجل لم تره قبل ذلك ولم تسمع به . فحدقت في الرجل فترة وارتعدت فرائصها . لم تستطع أن تقهر شعور الانجذاب والخوف الذي أثاره فيها . أحست كأن قلبها ينخلع . وكأن الدم قد جمد في عروقها ، وكأنها قد استحالت على حد تعبيرها إلى شبه هيكل مجبول لم تبق فيه غير عينين ثابتتين مبهورتين تحدقان إلى ذلك الرجل . . . وكان الرجل أزراسيا يدعى « فرانسوا مالبران » . ويعمل مديراً لأحد البنوك في باريس وكان فاتناً وساحراً وخارق الجمال . ولكنه كان يكبر « ماريًا » بعشرين سنة . ومع ذلك فقد عشقته « ماريًا » من أول نظرة . لم تعشقه لجماله فقط . بل لفيض الرجولة المتدفق منه ، وفيض الثقة المنسكب عليه ، وفيض الكبر الذي كان يشع كالضوء الصارخ من عينيه السوداوين الواسعتين الصارمتين .

وتم التعارف بينهما . ودعته « ماريًا » لزيارتها ، وازدادت حباً له وشغفاً به . أما الرجل فقد راعه من هذه الفتاة العظيمة المجيدة أن تخصصه بعطفها . وأن تقربه وتؤثره على غيره وهو يكبرها بعشرين سنة . فالتهمت فيه عوامل الخيلاء والزهو . فانقاد إلى هذه العوامل بدون أن يفقد عقله ،



وشرع يتودد إلى الفتاة ويحاول أن يقنع نفسه بأنه حقاً يحبها . . .
 وابتهجت « مارييا » أيما ابتهاج ، وكادت أن تفقد صوابها لشعورها
 بأن الحظ قد حالها في النهاية ، وأبنت زهرة الحب أليانعة البيضاء فوق
 أرض الحجد القاحلة المتفجرة . . . وكانت فتاة نبيلة النفس ، مستقيمة
 وصریحة . فلم تتردد وكاشفت « فرانسوا » بحبها ، وعرضت عليه الزواج .
 فقبل مذهولاً ومأنوذاً وتم قرانهما بعد التعارف بشهر واحد فقط . . .
 ولكن العجيب في الأمر أن « مارييا » في خلال هذه الفترة كانت قد
 لمست الجوهر من شخصية « فرانسوا » ، وعرفت حقيقة ميوله وأهوائه ،
 وأمعت برغم ذلك في حبه والتهافت عليه .

والواقع أن ما كان يجذبها فيه فوق جماله وكبره واعتداده بنفسه ،
 أنه كان في طبعه وخلقه صورة حية لوالدها . كان قاسياً وصارماً
 ومستبداً كوالدها . فأرادت « مارييا » أن تهذب طبعه وخلقه ، أن تبدع
 منه شخصية الوالد الحنون الذي حرمت منه في طفولتها ، وتمزجها بشخصية
 الزوج الحبيب الوفي الذي تصبو إليه نفسها وهي امرأة . . . وكانت
 تعتقد أنه يحبها ، فأمنت بأن في مقدورها أن تبدله وتجعل منه رجل
 أحلامها .

واستفاضت شهرتها إذ ذاك في البلاد الآسيوية أيضاً وعرفت باسم
 « مدام مالبران » نسبة لزوجها . فلم يستخفها الحجد ، بل زادها رقة
 ودمائة وتواضعاً ، ورغبة في إسعاد نفسها بتبديل شخصية زوجها . .
 ومضت تبدل المستحيل كي تروض الرجل المتكبر القاسي على
 اللين والعطف ، والمودة والحنان ، والطيبة والرحمة . ولكن « فرانسوا » ،
 وقد بدأ يغار من مجدها ويشعر بخموله حيال شهرتها ، أخذ يشمخ
 بأنفه عليها ، ويحتقرها ، ويستبد بها ، ويمثل في ذهنها وخيالها صورة
 الأب الطاغية الذي كانت تتلهف على حنانه ، وتصر على أن تبدع
 نقيضاً له في شخصية زوجها . والغريب أنها كانت كلما استبد بها

فرانسوا ، تزداد اعتقاداً أنه يعشقها : فتزداد طاعة له وصبراً عليه .
وأملًا في تبديده . فيغلو هو في التحكم فيها والسيطرة عليها ومحاولة إخضاعها
نشيئته .

وإن أحسن أنها ملكه ومتاعه ، وأنه عاجز عن التغلب على غيرته
منها وعن التطلع ولو إلى قبس من ضوء مجدها ، أراد أن يثار لضعفه
وخموله بأن يستغلها ويعيش في جاه وعز على حسابها . ففطق بغترة
من مافا ، ويسكر ، ويقامر ، ويتصل بالغواني ، ويدخل بيته قبيل
الفجر متضحاً متعزراً مخموراً ، يسب ويصرخ ويضحك ويهذي ،
ثم يرمى على الفراش وينام ، جثة خاوية هامدة . . . ومع كل هذا
فقد احتملته « ماريا » لم تشأ أن تفقد أملها فيه . لم تشأ أن تحطم حلمها
الذي شيده عليه . كانت تغفر له إدمانه الخمر ، وانكبابه على الميسر
وحتى اتصاله بالغواني يقيناً منها أنه لا بد أن يثوب إلى رشده يوماً ويكف
عن زناثله ويعود إليها هي ، ما دام لم يعشق امرأة غيرها ، ولم يتصل بامرأة
معينة ، ولم يتخذ له خلية تحت تأثير عاطفة قوية وثابتة . ولكن
« فرانسوا » كان قد وقع بالفعل في هوى راقصة روسية ماكرة وخبيثة
تمنعت عليه كي تظفر به وتكيد المغنية . فثارت ثائرة « ماريا » وأذرتة .
فلم يحفل بها لأنه كان قد ادخر مبلغاً كبيراً مما ابتزه منها ، وهددها
بالطلاق إن هي حاسبته على حياته ، أو تدخلت في شؤنه ، أو تحرشت
بالمرأة التي كانت فعلاً خليلته .

وهالها هذه القحة المقرونة بالتحدي ولكنها بدل أن تثور أيضاً
لكرامتها ، أذلتها الحب . فارتمت عند قدمي الرجل تتوسل وتبكي .
فتظاهر بأنه قد تأثر ، ووعده بأن يقطع الصلة بخليلته ، ثم احتضن
زوجته وقبلها ، ثم نهض وتأوه ، وترخص وتملق ، وطلب مالا . فأعطته
« ماريا » ما طلب فأوسعها ضمناً وتقبيلاً ، وخرج وهو يقسم لها أنه لن
يخونها بعد اليوم أبداً ولن يعرف منذ الساعة امرأة غيرها .

وفي الليلة نفسها . وبينما كانت « مارييا » مالبيران تغنى على أحد مسارح باريس ، والأعناق مشرّبة إليها والجمهور يهتف لها ، وطاقت الزهور تنهال عليها ، دخل زوجها في صحبة الراقصة الروسية عشيقته ، فمادت الأرض في عين مارييا . وضل عقلها ، وتشوش صوتها . فلم تستطع إلا أن ترسل صرخة ممزقة أشبه بالعواء ، ثم تسقط على خشبة المسرح مغشياً عليها . . .

وحماؤها إلى بيتها وهي بين الحياة والموت . فلم تكف تبصر زوجها الذي خف إليها ملهوفاً ووطنق يمينها بالوفاء والحب مستغفراً ونادماً ، حتى استجمعت كل قوى حقدتها ، وكل قوى حسرتها وذلها وعذابها ، وطردته شر طردة ، وهي تنتفض وتختلج وتكاد أن تختنق في دموعها . ولم يعد في وسعها أن ترى « فرانسوا » أو تسمع صوته ، أو تحتمل ملمسه . فاتفقا على الطلاق وتم انفصالهما بعد أن نزلت المرأة للرجل اللدنيء عن مبلغ آخر من مالها .

وكان لهذه الصدمة أكبر الأثر في فن « مارييا » ، فحطمت قلبها ولكنها أشعلت ناراً جديدة في صوتها . نار حسرة عميقة مذيبة ، جعلت من غنائها صرخات إنسانية دامية لم تعهد لها فيها الجماهير ولم تعرف قط لها نظيراً . . . وعاد المجد يلعب ولكن في كهف من العزلة والوحشة والظلام . عاد الصراع مع المجد . عاد التلهف على الحب . عاد القلب ينبض ولكن بدون فرحة أو بهجة أو ظل ابتسام . فحاولت « مارييا » أن تعيش للفن وحده ، وأن تحب المجد وحده ، وأن تخلص للجماهير التي كانت تهلل لها كل ليلة وتعبد لها . ولكن ما هو الفن وما هو المجد وما هي الجماهير . أليست كلها أوهاماً أو أشباحاً يستحيل على الإنسان أن يخاطبها ، أو يلمسها ، أو يعانقها ، أو يندمج ولو ببعض أجزاء كيانه فيها ؟ . . . لا . . . الفن والمجد وأمثلة الجمال أشياء علوية تجريدية يمكن للرجل أن يكتبها بها . أما المرأة فتشده شيئاً محسوساً ، شيئاً مختلجاً

نابضاً ، حبيباً من لحم ودم تستطيع أن تحنو عليه ، وتضمه إلى صدرها ، وتهدهده في حضن قلبها وروحها كما تهدهد الأم الرعوم وليدها : هذا ما عادت تتلف عليه « ماريا » برغم خيبتها وحسرتها وعذابها ، عادت تبحث عن الحب . فصور لها خيالها بعد طول البحث والمطاف أنها قد وجدته هذه المرة في رجل يشبهها شبيهاً عجبياً كأنه كان منذ الأبد مرصوداً لها .

وكان هذا الرجل شاعراً إيطالياً يدعى « أميليو مونتاجو » ، رقيقاً مثلها ، دمثاً متواضعاً وطيباً على غرارها . فهامت بشعره وبه ، وأشارت بتلحين قصائده وغنتها . ثم خرجت في صحبته إلى المنتزهات والملاهي ، أسعد ما تكون بوجهه الشاحب ، وسهومه الحالم ، وعينييه الوسناتين ، وحديثه الذي لا يكاد ينطلق حتى ينثر أغرب الأفكار وأجمل وأبدع الخيالات والرؤى . . . وأوشكت كعادتها وقد ملكها الحب أن تسرع وتعرض الزواج على الشاعر . ولكنها لم تشأ أن تنهور مرة ثانية . فأرادت أن تستوثق من حب الشاعر لها ، ومن أن أخلاقه شبيهة حقاً بأخلاقها . فأقدمت على زيارة بيته ذات مساء ، كي تتحدث إليه طويلاً ، وتتعرف إلى أمه الأرملة العجوز التي كان هو وحيدها . وما إن دخلت البيت حتى تراجعت مبهوتة مذهولة وكف قلبها عن الحفقان . . . أبصرت ما لم تكن تتوقعه أبداً .

أبصرت رهطاً من الشبان ، مشعنى الشعر ، غائري العيون ، متقوضي الأبدان ، منظرحين على وسائل ألقيت على الأرض ، يدخنون الأفيون في غلايين مستطيلة ، وهم ساجدون في نشوة تشبه الإغماء . كانوا جماعة من الشعراء المنحطين المتحللين ، وكان « أميليو » في وسطهم ، مستغرقاً في التدخين وهو تائه . فدنت منه « ماريا » ، وهزته هزاً عنيفاً . فعرفها . ولكنه لم ينهض ، ولم يحرك ساكناً ، ولم يستبقها بل لم يحاول أن يزجر رفاقه الذين كانوا قد بدأوا يفطنون لوجودها ، ويعرضون بها

ويسخرون منها ، ويتطاولون عليها بالنكت البذيئة الصارخة . . .
وأحست « ماريا » بالدم يغشى بصرها ، وبالإهانة تأخذ بمخبتها ،
وبالصدمة الثانية تكاد تحطمها وتهلكها . فحنت رأسها ونظرت أيضاً
إلى « أميليو » . بيد أنه لفرط هموده بفعل التدخين ، حول عنها بصره
الساهم النائه الخاوي ، وأوماً إليها بأن تخرج . فخرجت مقهورة القلب ،
ذليلة النفس ، مسلووبة الحول ، لا تدرى لماذا يطاردها القدر هكذا
بدون رحمة ، ولماذا يهبها الحب ثم يأبى إلا أن يقدمه لها في صورة هذا
الشاعر المهدم المنحط صريع الأفيون ؟ ! .

وناءت عليها الحسرة ، فأوصدت بابها في وجه الشاعر ، وارتمت
بجمعها في دنيا الفن لتنسى . كانت تحس للفن والمجد طعم الرماد .
ومع ذلك فقد طافت بمختلف عواصم العالم ، وغنت على أكبر مسارح
أوروبا ، وتنقلت من فرنسا إلى بلجيكا ، فألمانيا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ،
والجماهير في كل من هذه البلاد تتدفق لسماعها ، وتهتف لها ،
وتكلمها بالمجد ، وهي محمومة مخبولة حيرى ، لا تستطيع أن تنسى قلبها ،
ولا تستطيع أن تسلم بأن الحب المتبادل المشترك ليس من نصيبها ، وأنها
قد تعيش وتموت بدون أن تعرف نعمته المقدسة أبداً . . . وعندئذ ، وبعد
سبعة أشهر من الوحدة والكمد والقلق والطواف ، دبت الحياة في قلبها
للمرة الثالثة . . .

كانت في بلجيكا تغنى الدور الأول في إحدى الأوبرات ، وكانت
تحدث إلى الموسيقيين القابعين تحت المسرح يصاحبون غناءها بالعزف
على الآتهم ، وإذا بها تشخص على الرغم منها إلى رجل بينهم لم تهتم به
قط ، ولم تشعر بوجوده قبل هذه اللحظة . . . وظلت تتأمله وهي تغنى .
فأحست بروحها تتفتح ، وبقلبها يتفطر ، وبالأناغم تتدفق من صدرها
تتدفق السيل . فأدركت في لؤثة الملهف المحروم أن القدر قد لطف
بها وأشفق عليها ، وأنها أحبت هذا الرجل ، وأن هذا الرجل قد يكون

هو الإنسان الذي يمكن أن يحبها ويخلص لها . وكان الرجل فناناً بلجيكيًا يدعى «شارل بيرو» ويعمل في الفرقة عزفًا على الكمان . وكان شابًا في نحو الثلاثين غزير الشعر ، عريض الجبهة ، أسود العينين ، ناصع البياض ، في حركاته ونظراته ، شدة ولين ، عنف ورقة ، عزة وانكسار ، مزيج من الرجولة والأنوثة يخلب الألباب . فهامت به «ماريا» وأودعت في حبها له كل ما كانت تجيش به نفسها من عزم على الثأر لما أصابها من فشل في ماضيها البغيض .

أرادت أن تجدد حياتها ، وتبعث قلبها ، وتمحو ذلك الماضي ، وتبذل المستحيل كي تحقق في صحة هذا الرجل حلم السعادة الأمثل الذي تنشده كل امرأة . فتقربت إلى شارل ، ولاطفته ، وميزته ، وشرعت تنعم النظر فيه وتدرس أخلاقه . وكان شابًا غريب الأطوار ، يعشق الفن والأدب ويرتفع بجديته إلى سماوات بعيدة من الفكر والخيال ، ولكنه كان في الوقت نفسه ، وباللعجب ، مخلوقًا محبًا لبطنه ، متباهيًا على الطعام ، أكلًا وشربًا برغم نزعته العقلية وذكائه الوقاد . والواقع أنه كان خياليًا وعمليًا ، عاطفيًا وشهوانيًا ، بل إن تخليقه في عالم الشعر والخيال وهو يعزف كل ليلة على كمانه ، كان يهبط به في حياته اليومية إلى دنيا الغريزة والجسد إشباعًا للمذاته . فكان يفرط في شهوة الطعام حتى يتخم ، ويفرط في الإعجاب بالنساء من طريق الجسد حتى لا يكاد يبصر في أرقهن وألطفهن شيئًا غير إغراء اللحم والدم . فلما أحبته «ماريا» أذهله هو الآخر حبها ، وراعه منها صباها ونضرة بدنها . فعشق فيها الجسد لا الروح عشقًا مبرحًا ، وبات لا يحلم إلا بالتمكن منها والاستمتاع بها . أما «ماريا» فلم تكن في حبها الأول والثاني قد صادفت الرجل الذي يشتهيها بمثل هذه القوة . فتوهمت أن الرغبة هي العاطفة ، والاشتهاء هو الحب . فاشتد تعلقها بشارل وعزمت أن تزوجه . وما إن حزمت أمرها حتى وقع شيء أغرب وأعجب من كل ما حدث

لها . كان لشارل شقيق يدعى « موريس » يعمل في فرع إحدى الشركات الفرنسية في بلجيكا . فما إن اتصل بأخيه ، وتعرف إلى « ماريا » حتى أحبها هو أيضاً وشغف بها . . . وكان كهلاً يشرف على الستين مناقضاً لشقيقه في ميوله وأهوائه ، كلفاً بالعواطف . غير مستعبد لشهوة الجسد ، نبيلاً وكراماً وشهماً . فأحب « ماريا » في تحفظ وصمت ، في احترام وكرام ، في عبادة وتقديس . ولم يشأ أن يعتدى على حق أخيه واكتفى بأن يزور المغيبة في بيتها ، ويملاً بصره منها ، ويعيش فقط في جوها ، وهو يخفق حبه في صدره ولا ينطق بكلمة واحدة يمكن أن تخونه وتفضحه . . وكان « شارل » لفرط اهتمامه بزواجه القريب لا يكثر لأخيه ولا يعير زيارته المتعاقبة أى اهتمام . أما « ماريا » فقد أدركت أن « موريس » يحبها ، فبهرت به ، ونفرت منه ، واستنكرت عاطفته ، وازدادت هيماً « بشارل » وعزماً على الاقتران به في إنجلترا حيث دعيت للغناء على أحد مسارح مدينة منشستر . . وسافرت « ماريا » مصحوبة « بشارل » ، وخدمتها الفلاحة الصبية الإسبانية الجميلة « كرمين » ، و « موريس » الذى أبى إلا أن يرافقهم متعللاً بضرورة زيارة فرع الشركة في إنجلترا . . . وهناك وفي مدينة منشستر ، وقعت المأساة الرهيبة التى كانت على وشك أن تهلك « ماريا » ، وتقضى على جميع أحلامها شر قضاء .

كان من عاداتهم هى و « شارل » و « موريس » أن يخرجوا إلى النزهة على ظهور الجياد مساء كل يوم . ففى إحدى الأمسيات تمارض « شارل » وتخلف في البيت ، والتمس إلى « ماريا » أن تفرج عن نفسها بالنزهة كالعادة وأن تدعه هو ينام ويستريح . فلم يسعها لفرط الحاحه وبعد أن اطمأنت عليه إلا أن تجيبه إلى سؤاله وتخرج مكرهة في رفقة شقيقه . بيد أنها لم تكد تترك البيت وتعتلى ظهر جوادها ، وتنطلق به بضع خطوات ، حتى عز عليها أن تهجر حبيبها وهو مريض . فأشارت

إلى أخيه بالعودة ، وكرت واجعة : وفتحت الباب بمفتاحها الخاص ، ثم اندفعت إلى مخدع « شارل » وفي أثرها « موريس » . ولكنها لم تكذب تدخل : لم تكذب تنظر وتحقق . حتى انخلع بدنها كله ، وتجمدت في مكانها .

أبصرت حبيبها ، معبودها ، الرجل الذي كانت قد اعتزمت أن تلوذ به من فراغ انجد وأن تتخذ منه زوجاً أديباً لها ، أبصرته يضم بين ذراعيه خادمها الفلاحة الصبية : وفي عينيه تلك الشهوة المتحرقة المنهومة التي كانت تظن « ماريا » أنها هي الحب ، وتعتقد أنها وقف عليها وحدها . . . لم تستطع أن تنطق أو تتحرك . أما « موريس » الذي هاله من شقيقه ما فعل فقد غلى دمه . فرجع السوط الذي كان يستخدمه لإلهاب جواده ، وانهاه به على أخيه والخادمة في سخط وهياج وحنون : وأحس « شارل » أن بقاءه في البيت بعد الفضيحة محال . فاخفى في اليوم نفسه وتبعته الخادمة . أما « ماريا » التي عصفت بها اليأس والحلق والذل والهوان ، فقد تلفتت حولها فلم تجد غير « موريس » . . لم تجد غير هذا الكهل الذي أحبها حقاً فتبرمت به ، واحترمها حقاً فنفرت منه : وقدسها حقاً فلم تقدره وآثرت وغداً دنيئاً عليه . فاندفعت نحوه هو ، ولاذت به هو ، وتشبثت به كما يتشبث الغريق بحطام ، وآلت على نفسها أن تجعل منه وحده الزوج والحبيب والأب المنشود .

وكان « موريس » هو الأمل الحي ، هو الحب المبتغى ، الحب الثابت الراسخ العظيم الذي طالما حلمت به « ماريا » ، والذي امتلكته بعد طول ابها . عذ قفاض عليها فيضاً دونه فيض المجد والشهرة والمال الذي لم ينقع أبداً غلتها ، ولم يملأ في أروع ساعات الهتاف والتهليل قلبها وحياتها :

وتزوجت « ماريا » « بموريس » ، وعاشت معه فترة أيقنت أنها لا بد أن تكون خالدة . ولكن من ذا الذي في مقدوره أن يفهم سر

الحياة ، ومن ذا الذى فى مقدوره أن يعرف الغاية من تصارييف القدر :
القدر يلهو بنا ، وهو لا يعطينا إلا ليأخذ منا . ونحن فى لحظة النعيم التى
نتصورها أبدية الازدهار . نفقد النعيم ونفقد الحياة التى شيدناها بعقولنا
وقلوبنا ودمائنا .

لم تكذ « ماريا » تها بزواجها وتخالس فيه متعة التوافق والاندماج
المثلئ ، حتى برز إليها القدر من مكمته وردها فجأة واعترض طريقها .
كانت قد خرجت يوماً إلى النزهة على ظهر جوادها ، وكانت
فرحتها بالحياة تصفى عاينها . فأطلقت لجوادها العنان ، واندفعت تعدو
به وسط الحقول ، ونشوة الانطلاق تأخذها ، والريح العنيفة تحملها ،
وشعرها الغزير المتطاير حولها يتهدل على وجهها ويحجب عن عينيها
معالم الطريق . وعندئذ طوح بها الدوار ، دوار الانطلاق والنشوة .
فغابت عن نفسها ، فأفلت من يدها العنان ، وكبا بها الجواد وألقى بها
على الأرض .

أما « موريس » الذى كان قد استبطأ عودتها ، فقد اعتلى ظهر
جواده وخرج يتعقبها . فما إن بلغ مكانها وألفاها مهشمة الوجه والأعضاء
ينزف منها الدم ، حتى جن جنونه . فأسرع وحملها على ظهر جواده .
ولكنه ما إن دخل بها البيت حتى كانت الفنانة العظيمة التى آثرت
الحب على المجد وصارعت المجد فى سبيل الحب ، قد سكنت أنفاسها ،
وابترد جسدها ، وأسلمت الروح بين ذراعيه .

جورج هر وىج
أو

العا صفة في الخلق



« جورج هرويج شاعر ألماني كبير ولد عام ١٨١٧ وتوفي عام ١٨٧٥ . وهذه قصة حبه الأوحده وكفاحه المرير . وهي قصة غريبة الأحداث شائقة المواقف ، اهتمدينا في وضعها بكتاب عن الأدب الألماني للمؤرخ الفرنسي ألبير مونتييه » .

• • •

كان جواباً شريداً عصفت به الفاقة وأحالته إلى شبه هيكل من عظام . اشتغل حمالاً في المحطات فخانته قواه وكاد أن يصاب بمرض في القلب . فالتحق بمحل تجاري ومارس البيع والشراء ، فجف عقله وتبلد ذهنه . فهجر المتجر وانخرط في سلك السعاة في أحد البنوك . فأحس وهو الشامخ المستكبر الأبى ، أنه محقر ومهين . فضاق ذرعاً بحظه وأراد أن يعمل في صحيفة . ولكنه لم يكن بعد قد وضع كتاباً أو ذيل باسمه قصيدة أو مقالا . فاستخف به أصحاب الصحف وصرفوه . فهام على وجهه فترة ثم عاد إلى المحطات يشتغل حمالاً ، ثم خاف من المرض والموت ، فنزل عن كبره مكرهاً ، وأراق ماء وجهه ، ورضى بأن يعمل خادماً للطهارة في أحد الفنادق الكبيرة في مدينة « شتوتجارت » .

كان أبوه فلاحاً بائساً يعمل أجيراً في مزرعة رجل ثري بقرية نائية من قرى ألمانيا . فنشأ جورج معذباً ومحروماً ، يستبد به والده الغليظ ، ويفرض عليه العمل في الصوامع والحظائر ، ويضن عليه إلا بما يسد الرمق ، وينهره ويضربه ضرباً مبرحاً إذا أخطأ أو أهمل أو أجهده فرط العمل أو أخذته في غفلة عنه سنة من النوم .

وكان يقضى لياليه إما في صومعة الغلال ، وإما في حظيرة الماشية . فيغالب نفسه ، ويكبح جماح ثورته ، ويظل ساهراً حتى ينام أبوه ، ثم يوقد

شعبة صغيرة ، ويأخذ في مطالعة أشعار « جيته » و « شيلر » و « دانتي » ،
مستهدياً بما تلقاه من دروس أولية على يد كاهن القرية .

وكان يحس إحساساً غلاباً قاهراً ، أنه في صميم نفسه شاعر ، وأن في
مقدوره أن ينظم أبدع القصائد وأروعها . وأن الشعر هو مثار فكره وقبلة
روحه وغاية حياته . فهجس في روعه أن يفرع إلى عمه ، ويشكو إليه
حاله ، ويصارحه بمواهبه ، ويلتمس منه أن يزوده ببعض المال كي يسافر
إلى برلين حيث يجرب حظّه ، ويعرض شعره على أدباء وشعراء مرموقين .

وكان عمه رجلاً مسنناً ، غريب الأطوار ، بخيلاً أشد البخل ، أبل أن
يتزوج لئلا يضطر أن ينفق على امرأة وأولاد . فعاش في ضاحية من
ضواحي برلين ، زاشتغل بالتجارة والسمسرة والمضاربة ، وبات وهمه جمع
المال ، والمباهاة بالجاه والثراء ، يشتري الأرض والعقار ، ويجمع ويكتنز ،
ولا يفكر لحظة في مد يد العون إلى أخيه الفلاح البائس والد جورج .

وكان جورج يعلم علم اليقين أن عمه البخيل الأناني القاسي لن يجود
عليه ولا ببارك واحد . ولكن اليأس هو الذي دفعه ، وهو الذي زين له
طلب المستحيل . فلما قوبل من عمه بالسخرية والزراية والإعراض ،
ضاعف التحقير من ثورته ، وأحب فيه كوامن عزمه ، فظل يقتصد
ويدخر بعض النقود مما كان يربحه من السهر على الصوامع والحظائر ،
حتى كانت ذات ليلة أمضه فيها عذابه ، فتشجع واستجمع قواه ،
وغافل أهله وهم نيام ، واستقل القطار وسافر إلى برلين .

• • •

وفي برلين عرض شعره على صفوة مختارة من الأدباء ، فقابلوه لا بالسخرية
فقط بل بالشفقة . صارحوه بأن شعره غث وشائع ولا تجديد فيه ولا نبض
ولا حرارة ولا حياة . فاسودت الدنيا في عينه ، ولبث كما ذكرنا يتنقل من
عمل إلى عمل ، ويعتقد اعتقاداً راسخاً وهو يخدم الطهاة في الفندق ،
أنه قد انخدع في نفسه ، وانخدع في مواهبه ، وأنه لن يحقق أبداً حلمه ،

ولن يكون له في المستقبل أى شأن .

ولم يكن قد عرف الحب أو اتصل بامرأة . كانت لقمة العيش تشغله عن النساء ، وكانت خيبة أمله فى شعره تبتليه بضرب من الكآبة والجهامة والتوحش والانطواء . فنفر منه رهنط الفتيات العاملات فى الفندق ، وتباعدن عنه ، وعجبن له كيف يكون خادماً بائساً ووضعاً ثم يكون فى الوقت نفسه مستكبراً وشامخاً وعزيزاً . على أنه كان برغم بؤسه وجهامته وكبره واضح الفتنة والجمال . كان فارغ القامة ، ممشوق القد ، بهى الطلعة ، ذا عينين زرقاوين واسعتين ، وشعر ذهبي ناعم وغزير ، وبشرة وضاعة ناصعة البياض ، ونظرة حاملة تائهة تأخذ بمجامع القلوب .

وكان لا يعلم أنه جميل ، ولا يحفل بالنظر إلى وجهه فى مرآة . فكان انعدام ثقته فى نفسه وفى حظه يضاعف من عنف كبره وانطوائه ، ويلقى به بعد العمل فى عزلة لا تجسر اقتحامها فتاة مهما تنبئت بجماله ، ومهما تعلقت به وأرادت أن تداعبه وتغازله وتتقرب إليه .

وهكذا كان يقبع فى حجرته فى الفندق ليلاً ، طريد أحلامه ومطامعه ، وحيداً ومنبوذاً ، محنقاً ومغيظاً ، يعالج نظم الشعر أيضاً . ثم يقرأ شعره فلا يحس هو نفسه أنه قد تأثر وانفعل . فتتردد فى سمعه كلمات السخرية والشفقة التى قابله بها الأدباء . فتتقد فيه عوامل اليأس والمرارة والحسرة ، فيرتعش ويختلج وتهمر من عينيه الدموع .

وظل على هذه الحال أشهراً ، ثم تبدلت حياته ، ووقع له فجأة ما لم يكن يتصور .

كان يطالع إحدى الصحف ذات صباح ، فراقصت السطور أمام عينيه ، وأذهله نبأ نشرته الصحيفة فى الركن الخاص بأبناء المجتمع . علم وأيقن من فحوى النبأ أن أمه قد توفيت ، وأن عمه البخيل قد مات ، وأن ثروة عمه قد آلت كلها إلى والده ، وأن والده يقم اليوم فى الضاحية التى كان يعيش فيها عمه ، وأنه تزوج فتاة من أسرة فقيرة ،

وأسكن أمها الأرملة معه ، وأصبح هو الفلاح البائس سيداً ملحوظاً
المكانة ، رفيع القدر ، يرأس جمعية تتولى رعاية الفقراء والمرضى واليتامى من
أبناء الضاحية .

واستبدت « بجورج » عوامل اندهشة والدهول ، وتمثل والده الغليظ
القلب الذى لم يكثر لمصيره ولم يستفسر أبداً عنه . تمثله رجلاً مرفأً
وعظماً بعد أن كان فلاحاً معدماً وأجيراً . فهاله أن يرفل والده فى حلق
النعيم وأن يظل هو تاعساً شقيماً يأكل خبزه بشق النفس وإهدار الكرامة
ويخدم الطهارة فى فندق . فتار نأثره ، وفاض به كل ما احتمال من عذاب ،
ولم يردد .

نهض من فورهِ ، وارتدى ثوبه المهلبل العتيق ، ودس حوائجه فى جعبة ،
ثم حمل الجعبة على كتفه ، واختطف قبعته وعصاه ، وانطلق يمشى صوب
الضاحية ، واجف القلب ، محنى الظهر ، ملهوف الخطى .

* * *

وكان يعرف البيت ، بل القصر الذى عاش فيه عمه والذى يعيش فيه
اليوم أبوه . فلما اقترب منه ، وواجه الحديقة الكبيرة الغناء التى تحيط به ،
ودفع بابها وأراد أن يدخل ، برز إليه بواب لم يكن قد عرفه من قبل ،
وحدق فيه مستغرباً . فصاح الشاب : أنا جورج ... أنا ابن صاحب
الدار ...

فخيل إلى البواب أنه مجنون ، فصرخ فيه وانتهره . فترامى
الصوت إلى سمع رب القصر . فأطل من إحدى الشرفات . ولم يكذب ينعم
النظر فى الطارق حتى لمعت عيناه . فهروى إلى الخارج ، واندفع نحو
الحديقة ، وفتح ذراعيه ، ثم ضم الشاب إلى صدره وطفق يردد ويهتف
وهو يعانقه ويقبله : جورج ... جورج ...

وتهدج صوته ، وطفق الدمع من عينيه ، وصاح وهو يتأمل ولده :
أهكذا أصبحت ؟ ... الذنب ذنبى ... ساحنى ... فكرت فى نفسى

فقط ولم أفكر فيك ، بل نسيتك من فرط ما كنت عليه من بؤس : أما الآن فتعال ... تعال ... وساقه إلى زاوية في الحديقة حيث غرفة البواب ، وأردف : ألتق بجعبتك هنا ، واخضع عنك هذا الثوب المهلهل ، وانتظرني لحظة ... ووثب إلى البيت ، ثم عاد يحمل « روب دى شامبر » أرق حريريًا شائعًا ، وقال : خذ واتبعني ... لا تلمني لأنى قد تنكرت للذكرى أمك ووزوجت ... أردت أن أعيش بعد أن كنت شبه ميت ... فتعال وافرح وعش معي ... سأقدمك إلى زوجتى وأمها ، وسندبح لك العجل المسمن يا « جورج » ...

فارتدى الشاب الثوب الحريرى ، وتبع والده إلى القصر وهو ذاهل وشارد . وما إن دخل الباب الكبير ، وأجال الطرف حوله ، حتى أبصر ثلاث نساء ، واقفات عن بعد ينظرن إليه شاخصات متفرسات . فأدرك أن الصغيرة منهن هى امرأة أبيه ، وأن الواقفة بجوارها هى أمها الأرملة . أما الثالثة التى هى جدة جورج لأبيه ، فقد ظلت لحظة ساهمة ، ثم ارتمت عليه وعانقته ، وراحت تغمره بالقبلات والدموع .

وقدمه والده إلى زوجته وأمها ، فتأمل جورج وجه الأرملة الأم ، ثم تحول ببصره إلى والده الكهل الذى جاوز الستين ، ثم ثبت عينيه فى الزوجة الصبية ، فأنهز واختلج بالرغم منه .

وكانت « أولجا » زوجة أبيه امرأة فى نحو الحادية والعشرين ، هيفاء رائعة الحسن ، ذات جبهة عالية مشرقة ، وعينين لوزيتين ناعستين ، وشعر ناعم ضارب إلى الحمرة ، وخذ مشتعل أسيل ، وفم شهبى صغير ، وابتسامة خفيفة وغريبة تم لأول وهلة عن سداجة وبراءة ثم تزدهر ، وتلمع بعتة ، فتبدو جريئة جرأة مستهتره متحدية مغامرة .

وأما أمها الأرملة « كاترين » ، فكانت امرأة لم تتجاوز الأربعين ، مديدة القامة ، ناهدة الصدر ، وطيدة البدن ، جميلة جمال الأنثى فى بضعجها المغرى ، تنبعث من عينيها الرماديتين نظرات ملؤها التلهف على

الحياة ، تخفيها مظاهر التحفظ والعزة والكبر .
وأما الجدة العجوز فكانت شمطاء ، مهزولة وجافة النعود ، ذات
عينين ضيقتين حادتين لا تفتأ نظراتهما تصوب إلى زوجة ابنها ، «أولجا»
في امتعاض محتجز وكره خفي مكبوت .

ورحبت « أولجا » وأمها بالشاب ، وأوصى والده بأن تفرد له حجرة
أنيقة في أحد أجنحة القصر . ثم حدثه عن وكيل أعماله ، وعهد إليه
بمراقبته والاشتراك معه في كل ما يتعلق بإدارة وتحصيل إيجارات الأضيان
والبيوت الثلاثة التي ورثها في الضاحية عن أخيه .

وكان « جورج » يستمع إلى والده وهو يسارق أولجا النظر ويرتعش ،
و« أولجا » تنفرس فيه معجبة بجماله ومأخوذة بانعكاس أضواء شعره الذهبي
على ثوبه الأزرق الحريري . وأما أمها كاترين فكانت تغافل الجميع
وترمقه هي الأخرى بعين مأخوذة ، تحاول أن ترتد عنه ، فتكر عليه مجبرة
وتشخص إليه وهي تائهة وساهمة وظمأى .

هذا والجدة العجوز ترقب الكل وتقطب حاجبيها المتأكلين وتنهد :

ومدت المائدة احتفالا بعودة الابن الضال ، وأكل الجميع وشربوا
صاخبين مبتهجين ، والوالد الكهل يحملق في امرأته الصبية سعيداً ومنتشياً ،
وأما الأرملة تحدجها في نفور ، وجورج يخالس « أولجا » النظر ويحس
رعدة عنيفة تسرى في بدنه لم يشعر بمثلها قط حيال امرأة .

• • •

وعاش الشاب في القصر يمرح في نعيم لم يتصوره أبداً خياله . نسي
ماضيه الأسود ، وكفاحه المرير ، والشعر الذي كان ينظمه عبثاً ، وأحلام
الشهرة والمجد التي كانت هي قبلته وغايته المنشودة في الحياة . ولم يعد ينظم
أية قصيدة . ولماذا ينظم ؟ ... كان الشعر حياً أمامه ، نابضاً ومختلجاً وممثلاً
في نظرات وحركات ولفترات « أولجا » .

خلبته المرأة العصبية . استأثرت بوجوده ومشاعره ، بل سيطرت على

كل جارية فيه . فاندماج في حبه اندماج محروم لم يخفق قلبه يوماً بالهوى .

رأى في أولها كل ما كان ينشده في أروع الشعر . رأى في صوتها وابتساماتها وضحكاتها كل مفاتن الطبيعة ومباهجها مجسدة وناضرة . فألسن حُبها قياده ، ولم يعد يفكر إلا فيها وحدها .

أما « أولجا » المستهتره الجريئة التي افتنت بجمال الشاب ، فكانت تضلل زوجها الكهل ، وتضلل أمها والجدة العجوز ، وتنسل إلى جورج في حجرته النائية ، وتبذل قصارها كي تستدرجه وتغويه . فيستنكر هو منها جرأتها ، ويستهول من نفسه كيف يعشق امرأة هي زوجة أبيه . فيصدها ويعف عنها ، فتهزأ به وتغافله وتختلس منه بعض القبل . فيرتعد ويحتاج ويطردها فتضحك المرأة وتنصرف وملء نفسها العزم على التغلب عايه والتمكن منه في الفرصة القادمة .

والواقع أنه كان يحبها ويجاهد ما استطاع كي يقهر جسده ولا يمتلكها . كان يريد أن يحبها في صمت ، أن يعبدها في خشوع ، أن يتملى فقط من النظر إليها ، أن يعيش سابحاً في جوها ، أن يهيم في المشاعر والعواطف التي ولدتها في نفسه ، والتي أصبحت اليوم غذاء قلبه وروحه وغايته الوحيدة من دنياه . بيد أن « أولجا » كانت تشهيه ولا تحبه . كانت تريد أن تستمتع به ، وتريد في الوقت نفسه أن تحرص على مكانتها الاجتماعية التي يكفلها لها زوجها الثرى . وكان « جورج » يستشعر أحياناً حقيقتها . ومع ذلك فقد ظل يخلق منها صورة كاملة لشتى الفضائل والمحاسن ، يتجه بالفكر والخيال إليها ، ولا يحس ولا يرى أن من تحبه حقاً وتعشقه وتتعذب هي كاترين الأرملة أمها ...

كانت كاترين الظامئة إلى الحياة ، المندفعة إلى بعث شبابها وجمالها قبل أن تعصف بها الشيخوخة وتسدل عليها الستار ،

كانت مشغوفة بجورج إذ حد الهوس ، تحس أنه يحب ابنتها ، وأن ابنتها
تضللتها وتذهب خفية إليه . فيأخذ الحق بمخنتها . فتبكي بكاء المتحرقين
المتخبطين ، ولا تعرف أى السبل تسلك كي تقطع هذه العلاقة التى قد
تؤدى إلى طلاق « أوبلجا » ، وكى تظفر هى بالشاب ، بالشاب الذى
يبلغ الثالثة والعشرين والذى هو فى مثل سن ابن لها .

حاولت الأرملة أن تنبه ابنتها . ولكن أ « أوبلجا » التى رأت فيها غريمة
وعدوة ، صارتها بأنها هى تحب « جورج » ، وسخرت منها ، وعيرتها
بكبروتها ، وهددتها بأن توغر عليها صدر الكهل الثرى فيقصيها عن بيته
ونعمته ، ويردها فقيرة شريفة بدون رحمة . فكظمت الأم غيظها ، وازدادت
تخبطاً ويأساً وحنقاً .

بيد أن هذا كله لم يغب عن فطنة الجدة العجوز ذات العين الثاقبة ،
فقد كانت تلاحظ وتراقب ، وتنعم النظر فى الأرملة العاشقة وفى مسلك
حفيدها المفتون ومسلك زوجة ابنها الجريئة المستهترة الجاحدة .

وكانت تشفق على ابنها الكهل ، وتعلم أنه مولع بامرأته الشابة ، وأنه
يغار عليها غيرة شديدة ولا بد أن يتحطم وقد يموت لو علم بخيانتها وخيانة
ولده . فلما أبصرت « أوبلجا » تسرف فى زيارة « جورج » ، وأيقنت من
انقياد الشاب لها ، روعتها الخديعة المزدوجة ، فلم تتردد وذهبت إلى
حفيدها .

ذهبت إلى « جورج » ناقمة ومستنكرة ، وأهابت به أن يثوب إلى
رشده ، ويوقظ ضميره ، ويقدر فضل والده عليه ، ويربأ بنفسه عن
التمادى فى أحط خيانة وأبشعها . ثم خيرته بين أمرين : إما أن يلزم المرأة
حدها ويوصلد فى وجهها بابه ولا يتصل بها إلا على مرأى ومشهد من والده ،
وإما أن يتزوج فتاة ميسورة من بنات الضاحية ثم يودع البيت ويرحل .
فكبر على للشباب أن تفتح هذه العجوز حياته ، أن تبدد حلمه ، وتخنق
قلبه ، وتحمد النور للذى أشرق عليه بعد ظلام : فأقسم لها أن « أوبلجا »

صديقة فقط . وأن ليس بينه وبينها أية علاقة أثيمة . فلم تصدق ،
وتشبث بما قالت . فجن جنون جورج وتوقع عليها . بل أهانها ،
وقال إنه لن يتزوج أبداً ، وإنه مادام أبيض الصفحة نقي الضمير فهو لن
يبرح البيت . فحدقت فيه العجوز تحديقاً ثابتاً ، وصرت على أسنانها وهي
ترجف ، ثم هزت رأسها متوعدة وحاقدة ، ولم تنطق بكلمة وانصرفت .
وكانت « أوجا » التي لم تلق بالا ، لا إلى يقظة العجوز وما تحدثت
به إلى « جورج » ، ولا إلى زوجها الغيور الذي بدأ يشك فيها
ويستريب بحركاتها وسكناتها ، كانت « أوجا » التي غاظها من الشاب
تخفظه وتمنعه . تشك أن ترتاب في نفسها ، وفي سلطان جمالها ، وفي قدرتها
على التغلب على الشاب . فثارت في النهاية ثائرة كبيرة ، وعقدت العزم على
أن تخضع « جورج » وتطوعه وتفوز به مهما كلفها الأمر من تبذل
وترخص وتسليم مهافت وضع .

وافنت في إغرائه وإغوائه ، وراحت تنسل من مخدعها ليلاً وزوجها
مستغرق في نومه ، وتنفذ بخطى متلصصة إلى غرفة أمها المجاورة لمخدعها كي
تطمئن إلى أن الأرملة مستغرقة في النوم هي أيضاً ، ثم تركض حافية
القدمين ، محاوللة الشعر ، مبهورة الأنفاس ، وتدخل حجرة الشاب شبه
متجردة ، ثم ترمى عليه ، وتحتضنه ، وتوسعه ضمناً وتقبلياً ، وهو يلهث
ويرتعد ويكاد يهم بها . فيهوله ما سيفعل ، فيتصلب ويكافح ، ويصارع
جسده وغريزته ، ويدفع المرأة عنه ، ويأمرها بالخروج ، وفي نفسه حسرة
وضيق وكرب .

واشد الحنق « بأوجا » ، وعز عليها أن تُقبل فتمتن ، وأن تهافت
فتمتقر . فرفعت بدورها وتمنعت ، وظلت أسبوعاً بطوله لا تتصل
« بجورج » ولا تخاطبه . فغشى اليأس وجه الشاب ، وخيل إليه أنه قد
فقدتها . فركته في حيرته يتلهف ويتعذب . ولما ألقته وقد برحت به الحيرة
وأضناه العذاب ، على وشك أن يسقط سقوط الثمرة الناضجة ، لمع في

ذهنها خاطر شيطاني. أملاه عليها استهتارها القاسي وجرئتها المتحدية .
 أرادت أن يهدر الشاب كرامته مختاراً وطائعاً . أرادت أن يسعى هو
 إليها . أرادت أن تراه ذليلاً ، وتراه في الوقت نفسه قوياً وشجاعاً وجسوراً .
 فأسرعت فجأة إليه وقالت له إنه إذا كان حقاً رجلاً وحقاً يحبها ، فعليه أن
 يغامر ويتسلل من حجرتة بعد منتصف الليلة القادمة ، ثم يغافل الخدم ،
 ويلطف كلب الحراسة ، ويصعد إلى الردهة التي تفصل بين حجرة
 زوجها وبين مخدعها الخاص المقابل لمخدع أمها ، فتكون هي هناك في
 انتظاره واثقة من حبه ، فخوراً بقوته وجسارته .

وابتسمت له ابتسامة واهبة ومشجعة ، ثم أذرتة بأنه لو جن وتراجع
 فستكرهه كرهاً أشد من كرهها للكهل قريتها . ثم اختفت وخلفته وقد
 أقشعر بدنه يرتطم في لجة من الهلع والذعر .

هو ... هو يصعد إليها في صميم الليل ، ويلقاها في الردهة بالقرب من
 مخدعها ومخدع أمها ، وبالقرب أيضاً من حجرة والده ؟ ! ... يفعل هو
 ذلك ؟ ! .. محال ... لن يقدم على مثل هذه الخطوة أبداً ... ولكنه
 لو تراجع فسيفقدها إلى الأبد ... فهل في مقدوره أن يحتمل منها أن
 تكرهه ، أن تحقره ، أن تثأر منه يوماً بأن تعذبه أيضاً وتكيدته وتضرم في
 صدره النار وتتصل بشاب غريب ؟ ...

ونهشته الغيرة ، واحتوته الحيرة ، وأتهكه الصراع . فلم يطق ، وانزوى
 في حجرتة ، وجاشت في صدره عوامل الكمد . فاختطف قلماً وورقاً ،
 وراح ينظم « لأولجا » أبياتاً من الشعر يناشدها فيها أن ترحمه ، وترتفع
 بحبها وبه ، وتقهر بعواطف القلب مشتهيات الحسد ، بحيث تصبح أختاً
 لفكره وروحه لا يفصلها عنه سوى الموت .

بيد أنه لم يكد يتم قصيدته ويقرؤها ، حتى أحس أنها مجرد صرخات ،
 ساذجة صبيانية مشوشة ، لا يمكن أن تثير في نفس المرأة أي عطف بل
 تبعث على الضحك والهزؤ والرثاء . فزق القصيدة ، وارتد إلى حيرته ،

إلى محباله . ولبث في اليوم التالي مشنت العقل والحواس ، يرتعد فرقاً من مقدم الليل ، ومن الساعة الرهيبة التي يجب عليه فيها أن يعزم ويفصل ويختار .

كان يخشى لو أقدم وصعد إليها وانفرد بها أن يضعف ، أن تغدر به أعصابه وحواسه فتأخذه المرأة في شرك محاسنها فيسقط ! ... ولكن لا ... أبداً ... لن يرتكب الجريمة أبداً ! .. لن ينتهك عرض والده الذي هو عرضه . لن يخون الرجل الذي أوجده وأنقذه ... ومع ذلك فهو لن يكون جباناً ... لن يكون في عين المرأة مثار سخرية وازدراء ... سيذهب ... سيدلل كل عقبة ويصعد ... سيصعد إلى الردهة المرهوبة ثابتاً . فإذا ما أبصرته « أولجا » ، أثبت لها أنه رجل ، ثم كر راجعاً ولم يقربها ... وهكذا لا تحتقره حتى لو نبذته . فيظفر هو الأقل بتقديرها ، ويجد في هذا التقدير أكبر العزاء والسوى .

واستبد به زهو الرجولة مقروناً بكبر الشباب وسحر مواجهة الخطر . فختم اعتداده على بصره . فانتظر إلى ما بعد منتصف الليل ثم خرج . خرج من حجرتة وأنفاسه تتعاقب ، والعرق يتصبب على وجهه ، وأطرافه ترتعش ، مرهف السمع ، محمق العينين ، وثيد الخطى . ومر بجناح الخدم واطمأن إلى أنهم نيام . ثم اجتاز الحديقة ، ولاطف جهده كلب الحراسة ، ودنا من الباب الخارجي ، ثم التقط أنفاسه وصعد متجهاً نحو الردهة .

صعد في الظلام بخطى حذرة خفيفة متلمسة . ولكنه توقف فجأة وارتيك . أحس أن الكلب يتبعه ، وذكر أنه لم يوصد خلفه الباب . فخاف أن ينفذ الكلب إلى الردهة وينبح . فاغتاظ وأراد أن يعود به إلى الحديقة ثم يغلق الباب . غير أن للكلب عانده وجثم على الأرض وأبى إلا أن يتبعه . فاهتاجت أعصابه بالرغم منه وركله . فنبح الكلب واشتد نباحه . فهلع

قلب « جورج » ، وتوقف لحظة ثم هبط الدرج وهم بأن يفر : ولكن الجدة التي كانت كمعظم العجائز لا تنام نوماً عميقاً ، تنبتهت لتباح الكلب ، وأوجست ودبت في نفسها الشكوك . فهضت لفورها . وقبل أن ينسل « جورج » من الباب الخارجي ، كانت قد وثبت من غرفها الكائنة على رأس جناح الخدم ، وعدت إلى الحديقة ، ووقفت تحتلج وتحقق إلى الشاب بعينها الحادثتين الثابتين : وهي تبسط ذراعها لتجبره على أن يظل في مكانه ولا يتحول عن الباب .

أما « أوبلجا » فقد ملكها الرعب وأسرعت من الردهة إلى مخدعها . وأما زوجها الكهل فقد خيل إليه أن لصاً قد نفذ إلى الحديقة . فانتزع مسدسه من تحت وسادته ، وانطلق من حجرته إلى الخارج تصحبه « أوبلجا » وهي ترتعد ، وتتبعها أمها التي كانت قد استيقظت مذهولة ومذعورة .

وما إن أبصر الكهل ولده واقفاً بالباب الخارجي المؤدى إلى حجرته وإلى حيث ترقد المرأتان ، وحوله العجوز ورهط الخدم وكلب الحراسة لا يكف عن النباح ، حتى احتقنت عيناه وامتعق وجهه . فصرف الخدم أمراً ، ثم صرخ في ولده وهو يهدر : لماذا أنت هنا ... وفي مثل هذه الساعة ... ماذا تريد ، وماذا جئت تفعل ؟ ...

وأمسك به وجعل يهزه هزاً عنيفاً ، ويقول وعينه المتوهجة تحوم حول الشاب وحول « أوبلجا » : لقد تبدلت منذ أيام ، وكنت أنا الألاحظك وأسهول ، ولا أريد أن أصدق ... فلن سعيت إلى هنا ... لمن جئت ؟ ... إليها ؟ .. إلى امرأتى ؟ ... تكلم ...

وعندئذ تقدمت الجدة العجوز ، وصاحت بأعلى صوتها مشيرة إلى الأرملة كاترين : بل إليها هي ... إنه يحبها هي ... إنه عشيقها ! ... تكلم يا جورج ... قل الحق ولا تنكرا ! ... فأتق الشاب إطراق المذنب المعترف . وبيتهت الأرملة ولم تنطق

بكلمة : أما الكهل فقد وجه لحظة وظل يتفرس في امرأته والشاب متشككاً
وورتاباً . فلكى يثق . لكى يصدق ، لكى يتخلص من غيرته ولا يتعذب ،
قال وهو يغرس عينيه في عيني ولده : إذن تزوجها ! .. تزوج كاترين
وارحل ! .. تزوجها وخذ أى مبالغ شئت وارحل ... لو تزوجتها آمنت
أنا بأنك جئت من أجلها وأنت رجل شريف !

فأبرقت عينا الأرملة وهتفت : لا أحب إلى من أن أقترن بجورج ! ...
فرفع الشاب رأسه . وقال في هدوء وهو يومئ بأصبعه إلى كاترين :
أجل . هذه المرأة كانت عشيقتي ، وكنا نتواعد على اللقاء هنا في مخدعها ...
إني أحبها . ولكنى لا أستطيع أن أتزوجها . وكيف أتزوج . أنا رجل لا مهنة
لى ولا عمل . ألت أعيش اليوم من فضلك أنت يا أبى . هذا الفضل
يجردنى من كل كرامة ورجولة في عين نفسي . أريد أن أسترده كرامتى .
أن أبى مستقبلى بعرقى ودمى لا بمال يتفضل به على إنسان حتى ولو كان
والدى . فسامحني يا كاترين ولا تحقدى على . إني راحل . فالوداع ! ...

فاحترق قلب الأرملة العاشقة . ولم تستطع أن تتصور أنها كانت
لابنتها كبش فداء . فحجبت وجهها بيديها إخفاء لزميمتها وبكت .
أما « جورج » فقد اندفع نحو حجرتة كمجنون ، وانتزع من خزانته الصغيرة
بضع أوراق مالية كان قد ادخرها ، ثم جمع طائفة من كتبه ، وخرج إلى
الحديقة ، واتجه نحو غرفة البواب ، وجعل يبحث عن جعبته وقبعته وعصاه
حتى عثر عليها . فنضا عنه ثوب الجاه والعز ، وارتدى ثوبه المهلهل
العتيق . ثم دس الكتب في الجعبة ، ثم حمل الجعبة على ظهره ، وغادر
القصر بخطى ملهرفة محمومة ، « وكاترين » تتبعه النظر بعينين متفحرتين
مخبولتين ، و « أوبلحا » تعض على شفتيها محنقة ومقهورة ، والحدة العجوز
تنصب قامتها وتتجمد كتمثال ، والكهل ، وقد هفا قلبه إلى ولده ، يريد
أن يصرخ ويناديه . فيعاوده القلق والشك والارتباب ، فيراجع ويصمت ،
ويؤثر أن يتخلص ويهدأ ويستريح ...

ومن لوعة . جورج « على فراق محبوبته . ومن حسرته على انهيار حلمه الطاهر ، ومن سخطه على نفسه لأنه أحب امرأة محرمة عليه : ومن ثورته على المرأة التي أبت أن ترتفع بالحب وأصرت على أن تهوى به إلى الشهوة والجريمة ، تفجرت يتابع وحيه ، ونمرت وجدانه وحياله . فوضع ديوانه الأول « بعد العاصفة » الذي صور فيه مأساته . فجاء الديوان عملاً أدبياً رائعاً رفع ذكره ، وبدل فجأة من حظه ، وأنقذه من ذنّه وبؤسه ، وأدرجه في عداد شعراء ألمانيا النابغين .

obeykandl.com

مارت فلوری

أو

بقول بنت فضيلة



« بعد أن أصدرت الأدبية الفرنسية « مارت فلورى » عدة مؤلفات فى التاريخ والفلسفة ، وضعت قصة فذة بعنوان « الأيام والليالى » صورت فيها حياتها وما مر بها من أحداث عنيفة وقاسية ، وكيف تغلبت عليها حتى استطاعت أن تؤكد شخصيتها وتحقق أحلامها .
وهذه خلاصة القصة » .

• • •

قالت مارت فلورى :

نشأت فى تلك القرية النائية يتيمة الأبوين ، أحوج ما أكون إلى الرحمة ، وأظماً ما أكون إلى الحب والحنان . كنت أعيش فى بيت عمى الذى كفلنى ، أرعى مواشيه وأخدم أولاده . ولكن زوجته كانت تكرهنى ، وتوغر صدر عمى حقداً علىّ ، ولا تفتأ تنهرنى وتضربنى وتحملنى من الأعمال ما لا طاقة لى به . ومع ذلك فقد كنت قانعة وراضية أصبر على عذائى ، وأتجه بلوعى إلى ربى ، وأستمد من إيمانى العميق ما أنا فى حاجة إليه من قوة وثبات . وكان مايعزبنى فوق إيمانى ، هو ولعى الشديد بمطالعة القصص ودواوين الشعر وكتب التاريخ . فكنت أسهر الليل فى غرفتى ، وأوقد شمعة صغيرة ، وأظل أقرأ حتى تذوب الشمعة ويكل بصرى . ولم أكن قد تلقيت غير قشور من العلم على يد قسيس القرية .

ولكنى كنت نزاعة إلى المعرفة بطبعى ، تواقفة إلى التثقف بفطرتى ، لا أجد السعادة الحقيقية إلا فى المطالعة والتأمل والتفكير . وهذا بالذات هو الذى ضاعف استبداد زوجة عمى بى ، وأطلق حقدتها الغاشم علىّ . كانت تريد أن أنقطع بكليتى لرعاية الماشية وأعمال البيت . فلما رأتنى أنفق جزءاً كبيراً من وقى فى السهر والمطالعة ، اقتحمت غرفتى

ذات مساء ، وضربتني ضرباً مبرحاً . ومزقت كتيبي الثمينة ثم أحرقتها أمام عيني .

هذا المسلك الجائر أثارني ألف مرة أكثر مما كان يشيرني الضرب والإذلال والتحقير . فتركت البيت ، وخرجت هائمة على وجهي ، ومضيت أضرب في شوارع القرية حتى قادتني قدماي بالرغم مني إلى منزل أرملة مهيبة وجلييلة تدعى « مدام فونتان » كانت قد عطفت علي يوماً وأمدتني ببعض النقود واشترت لي كتاباً في التاريخ كنت أتلهف على قراءته وقصصت على السيدة قصتي ، فروعها مبلغ عذابي . فأسرعت وعرضت علي أن أعمل مدبرة لبيتها . فقبلت متحمدة زوجة عمي التي لم تستطع لا يجبرونها ولا بمساعدة قريبها أن تعتدي علي حرمتي لأنني كنت قد بلغت إذ ذاك سن الرشد .

ودخلت بيت مدام فونتان ، فوجدت فيه ما لم أكن قد حلمت به عمري . وجدت حسن المعاملة ولطف المعاشرة وسخاء اليد والقلب . بل وجدت في المرأة التي أنقذتني حنان الأم والأب . فأخلصت لها من أعماق قلبي ، وتفانيت في خدمة بيتها . فتعلقت هي أيضاً بي ، وعاملتني كأني ابنتها . فشعرت بمتعة الراحة والأمن والاستقرار . ومضيت أقتطع جزءاً من مرتبي وأبتاع به شئ الكتب في التاريخ والاجتماع والفلسفة ، ثم أعكف بعد العمل في الليل على مطالعتها والتأمل فيها ، كي أستخلص منها مادة الأعمال التاريخية والفلسفية التي كانت هي مثار آمالي وأحلامي والتي كنت أفكر في وضعها .

وطربت بحياتي هذه وانتشيت . بيد أن القدر الذي كنت قد أفلت منه أي إلا أن يتعقبني .

كنت أعيش في بيت الأرملة وبالقرب مني ولداها الشابان « هنري » و « روبير » وكنت ويعلم الله لا أنظر إلى أحد منهما نظرة نابية ، ولا أفكر لحظة في أن أبدوا أمامهما جميلة ، أو خليعة ، أو حتى خفيفة

الروح . كنت أرقب ذاتي ، وأحرص على تحفظي ، وألزم حد الجحد في عملي وقوتي . وأردد في نفسي على الدوام أنني لست سوى خادمة . ومع ذلك فقد أحبني روبرير . أحبني الإبن الأصغر الرائع الجمال حباً أذهلني وارتعدت له فرائصي . ففكرت في أن أغامر بكل ما ظفرت به وأهجر البيت . ولكن روبرير استشعر نيتي ، فتسلل إلى حجرتي ذات ليلة ، وكاشفني بحبه . وعاهدني على الزواج ، وطقق بيكي بكاء حاراً وهو يتوسل إلى ويلتمس مني أن أبقى . . . وكان برغم تهافته وضعفه وبكائه ، عنيفاً في حبه ، متقدماً في عواطفه ، ثابتاً وعنيداً في قوة إرادته ، فلم أدر ماذا أصابني حياله ، وانجذبت إليه . . . تداعيت فجأة عزيمتي ، وشعرت أن هذا الشاب قد أصبح كل حياتي . فوعدته بأن أبقى في بيته وأنا أتوسل إليه أن يترك حجرتي ويمضي . فانحنى على يدي وأوسعها تقبيلاً ثم انصرف وهو يقسم لي أنني الفتاة الوحيدة التي أحبها وأنه لا بد أن يدل كل عقبة ويتزوجني . . .

ولم يكذب يخرج وأرتد أنا إلى فراشي وأفكر في هذه العاطفة الطارئة الجارفة التي احتوتني ، حتى سمعت تحت نافذة حجرتي المطاة على الحديدية اصطفاق أغصان ووقع أقدام . فهلع قلبي وأسرعت إلى النافذة وحدقت . فلمحت في ضوء القمر شبحاً يخرق أشجار الحديدية ، ما إن تبينته حتى عرفت فيه الأخ الأكبر هنري . فجمد الدم في عروقي وتسهدت الليل كله ولم أذق طعم النوم .

ولما أصبح الصباح والتقيت بهنري ، أبصرته ينظر إلى نظرة ملؤها الأسى الغامر ، والألم الممزق ، والعتاب العميق . فأدركت وأنفاسي المتقطعة تهب كالنار على وجهي ، أن هنري كان يراقبني ، وكان يتجسس على أخيه ، وكان وما يزال هو الآخر يحبني !

تفرست فيه وغشى الدم بصري . كان هنري أقرب إلى الدمامة منه إلى الجمال ، وكانت قد بترت ذراعه اليمنى عقب حادث سيارة . فكنت



أشفق عليه وأنا أنفر من عاهته ، وكان نفورى هذا يجذبني من حيث لا أعلم إلى أخيه القوي الحميل روبرير . فلما أحسست وأيقنت أنه هو أيضاً في حبه لي ثابت كشقيقه . وأنى لا بد أن ألبى بدور البغض والحقد يوماً بين الأخوين . ولا بد أن أتعس المرأة النبيلة التي آوتني وأنقذتني ، هالتي موقفي . واستنكرت أن أكون خائنة وجاحدة ومثيرة لشر الفتن والمنازعات . فجاهدت ما استطعت حتى كبحت حبي لروبير واستنهضت ميت إرادتي . وأجبرت عقلي وعواظي على التسليم بضرورة الرحيل . وفي اليوم نفسه . في اليوم الذي أضمرت فيه أن أرحل ، عاد القدر الغاشم وأنشب محالبه في عنقي .

أعلنت الحرب العالمية الثانية ، وجند روبرير وسافر لتأدية واجبه العسكري . أما هنري فقد أعنى من الخدمة لعاهته وضعفه وبقي في البيت . وأما أنا فقد تمزقت حياتي . خفت أن يموت حبيبي في ميدان القتال . خفت أن أعيش بجوار من أنفر منه وهو يحبني . خفت أن أترك عملي فلا أجد غيره في قرية تشيع فيها الحرب ويلاها وتدب في أنحائها الفوضى . فبقيت في البيت مكرهة وصاغرة ، وعشت وجهاً لوجه تجاه هنري وكان هنري بعكس شقيقه يحبني حباً ملؤه الرقة والدمامة والطاعة والامثال . كانت رغباتي عنده أوامر ، بل كان شخصي في نظره مثلاً أعلى . كان يعبدني ويرتجف كالطفل إذ يقع بصره علي ، ولا يستطيع أن يتصور وهو المشوه الدميم أنه قد يظفر يوماً بي . فكنت أراه يطوف بالبيت كالروح الحائر . فأتبعه النظر شاردة وملتاعة ، وذكري شقيقه تحتل عقلي وخيالي ، ولا أعرف كيف أسكن روعه وأطيب خاطره وأمنحه ولو بكلمة رقيقة بعض العزاء . . . واستبد به الحب واليأس ، فشحب وجهه ، وغارت تقاطيعه ، ودب في بدنه الهزال . فهلع قلب أمه ، واستشعرت دخيلة نفسه ، وتحيرت بينه وبينني ، ولم تعد تدرى أيجب عليها أن تصرفني فتشقي ابنها أم تبقيني فتشقيه أيضاً ، يقيناً منها بأنني أنفر منه وأنى من

المحال أن أرضى به يوماً زوجاً لى . . . وكانت لا تعرف شيئاً عن علاقتى بروبير ، بل لا تعرف أنى مثلها أتلتى منه رسائل يبعث بها إلى من ميدان للانتال ولكن عن طريق صديقة ودية لى . فكانت رحمة بابنها المشوه للمسكين ، تحاول أن تقربنى إليه ، وتحببى فيه ، قائلة لى والدمع ينهمر من عينها ، إنها لو فقدت فى هذه الحرب ولدها الأصغر ثم عجزت فوق ذلك عن إسعاد شقيقه فهى لا بد أن تموت همماً وكمداً وحسرة . . . وكنت أنا أفهم كلامها وأفكر فى روبر ، وأنظر إلى ابنها الدمع وأحلم بروبير ، وأبتسم وأضحك فى قرارة نفسى وأنا انتظر متجلدة عودة روبر . ولكن روبر لم يعد . . .

تعاقت الأيام والليالى ، وتعاقت الأسابيع والأشهر وروبير لم يعد . ثم انقطعت فجأة رسائله ، وصرح عمدة القرية بأنه لا يعرف شيئاً عنه ثم أعلن اسمه فى قائمة المفقودين . فتاه عقلى ، واختللت ، أما الأم المنكودة فقد أصيبت بضرب من الهمود العصبى أحاطها شبه طيف فى هيكل إنسان . . . وانقضت أشهر أخرى ولم يعد روبر . فتأكدنا جميعاً أنه قتل ، وتبدلت شيئاً فشيئاً حياتنا .

أحسست أنا برغم اللوحة التى كانت تنهش صدرى ، أن ليس فى مقدورى أن أترك هذا البيت ، وليس فى مقدورى أن أعيش بلا عاطفة ، وليس فى مقدورى أن أجهز على المرأة التى أنقذتنى . . . فأجبتها إلى رغبته ، وأسلمت قياد روحى لابنها المشوه الدمع ، وارتضيت أن أتزوجه لطيبته ولكى أسعده وأسعد أمه المنكودة التى فقدت ابنها الأصغر القوى الجميل .

وتم بالفعل زواجنا . . . تم رواجنا بين غارات الحلفاء ، ودوى صفارات الإنذار ، وتدفق بعض فرق النازى التى اجتاحت قريننا وعسكرت فيها . فشعرت أنا ومحنة بلادى تمزقنى أنى أكاد أكره نفسى (٥)

وزوجي . ولكني امثلت لحكم الله ، وحنيت رأسي ، وارتضيت بحظي .
وفجأة وقع مالم يكن في حسابي أبداً .

عاد روبير ! ... كان قد أسره النازي في إحدى المقاطعات ثم أطلقوا سراحه بالرغم منهم عندما انسحبوا تحت ضغط الحلفاء . فلم يكذب روبير يدخل البيت ويبصرني ، ويعلم أنني قد تزوجت شقيقه ، حتى أومض في عينيه ذلك البريق الوحشي الذي كان قد خلبنى منه بالأمس والذي لمست فيه ماضل يشتعل من حب تشوبه الآن مرارة السخط والبغض .

وهنا في روبير على زوجي . ولكني كنت أشعر أنه تائه عن رشده ، غائب عن وعيه ، متبرم بفرحة أمه ، نائر ثورة عارمة ومكبوحة على أخيه المهال المطمئن السعيد . فاقشعر بدني حيال ثورته وبغضه ودب في قلبي الذعر ونخفت منه على زوجي . أجل - كنت ماأزال أحب روبير ولكني كنت أشفق أيضاً على زوجي . كنت لا أريد أن يصاب زوجي بسوء . كنت واثقة كل الثقة من أن روبير لا بد أن يتحين الفرص كي يصيب شقيقه بأفجع سوء وأفظعه . ولقد تحقق ظني بعد أيام : تحقق ظني في تلك الليلة التي لن أنساها ما حييت . كنت أطلع بقرب النافذة . وكان زوجي يهبط من كني الدجاج . فأبصرته يفرع وينتفض تحت وقع طلق نارى سُدد إليه وأخطاه . فأسرعت أنا إليه كعتوهة وأقبل هو على معتقداً أن لصاً قد تسلل إلى حديقة البيت . ولكننا بعد أن تجولنا في الحديقة كلها ، وفتشنا جميع غرف البيت ، لم نعر على إنسان غريب بل اصطدنا بروبر وهو يخرج من حجرته جاحظ العينين فاغر القم ، مشعث الشعر ، يحاول أن يخفي اضطرابه جهده ، ويمثل دور المروع المستغرب المذهول . . . ولم يظن شقيقه إلى شيء ، أما أنا فقد أدركت وتأكدت . فلما جاء اليوم التالي غافلت زوجي وأمه واتصلت بروبر واتهمته . فلم يتنصل ولم ينكر ، بل اعترف لي بأنه هو الذي أطلق النار ،

وأنه إذا كان قد أخطأ بالأمس شقيقه فهو لا بد أن يصيبه في غد ويقتله ويأخذني . فارتعدت ، وحاولت أن أبصر روبرير . حاولت أن أحن قلبه . حاولت أن أوقظ ضميره . بيد أنه ألقى على نظرة عابرة وحاقدة وانصرف . فناردمي كله ، وانجابت السحب عن ذهني وصحوت . . . أدركت أنني لوبقيت في هذا البيت فسأكون أنا السبب في قتل زوجي ، وفي شقاء أمه التي لا بد أن تموت في النهاية حزناً عليه . ولكنني كنت ما أزال أحب روبرير . فنشبت في نفسي الصراع بين واجبي وحيي ، وصراع آخر بين حياتي الخاوية الفاشلة وبين ما كنت أحلم به من إبداع أعمال أدبية عظيمة تخلد اسمي . فرزحت تحت وطأة هذا الصراع المزدوج ، وأردت أن أموت ، أن أودع مطامعي وأحلامي ، أن أنتحر كي أمنع روبرير من قتل زوجي . ولكنني جنت . لم أستطع أن أقضى على نفسي بنفسي . فاذا فعلت ؟ . . .

فكرت أولاً في تحقيق حلمي ، في تأدية رسالتي . فقهرت عوامل الفزع والرعب التي كانت مستبدة بي ، وأخضعت عقلي لسلطان إرادتي ومضيت أكتب حتى أنجزت كتابي الأول « تاريخ العصر الوسيط » وسلمته إلى زوجي وأوصيته بالحرص عليه حتى تنتهي الحرب ويصبح في وسعه أن يطبعه .

وكان يجب بعد ذلك أن أرحل . كان يجب أن أختفي . كان يجب أن أموت . فاضطربت في ذهني تلك الفكرة الخارقة التي كانت قد ملكت عليّ حواسي وتصبوري . فلم أتردد . وما إن جن الليل واستغرق زوجي في سباته ، حتى نهضت أنا وسرقت مسدسه من درج مكتبه ، ثم اندفعت إلى أقصى قرينتنا ، إلى حيث المعسكر الذي كان يربط فيه جنود النازي ، ثم اقتحمت المعسكر والمسدس في يدي ، وأردت أن أقتل واحداً منهم كي يقتلني الآخرون . فأكون قد تخلصت من حياتي وأديتني في الوقت نفسه واجبي نحو وطني ورسالتي . ولكن حرس المعسكر غافلون

وقبضوا عليّ ، وجرّدوني من سلاحى ، وبدل أن يقتلوني عاقبوني بما هو أشدّ هولاً من الموت . عاقبوني بأن أرسلوا بى إلى أحد معسكرات الاعتقال فى ألمانيا . وهناك مكثت عامين قاسيت فيهما عذاب العمل المرهق ، وعذاب الجوع الساحق ، وعذاب الضعف والمرض والإذلال . فغارت عيناى ، وتمرس صدرى ، وابيض شعرى ، وهزل بدنى واستحال إلى كومة من العظام ، ولما انتهت الحرب وأطلق الحلفاء سراحي ، لم أجد بداً من العودة إلى قرينتا ، إلى بيتى ، فعدت . . . عدت بدون أن أشعر بأى إضطراب أو قلق أو خوف . كنت واثقة من أن روبرن يتشبث بى ، وأنه حتى ولو كان ما يزال ثابتاً على حى ، فهو لا بد أن يعافى . لا بد أن يشمئز منى ، لا بد أن يتجه إلى القوة والصحة والشباب ممثلة فى امرأة غيرى . . . وكان هو أول من التقيت به عند مدخل القرية وفى صحبة فتاة . . . فحبيته فلم يعرفنى . ثم عرفنى وصرخ . ثم أطرق مبهوتاً ومنكمشاً وقدم إلى خطيبته وهو يتحاشى أن تقع عيناه على عيني . . . وعندما دخلت البيت الملهوفة وناديت هنرى ، أطلعت زوجى صيحة فرح مدوية إذ سمع صوتى وارتمى على يعانقنى والدمع يسيل من عينيه ، وأمه من خلفه تهتف وتهلل وتبكي . فنظرت إلى الرجل ، إلى الرجل المشوه الدميم الذى أنقذت حياته بتضحيتى ، فلم أره مشوهاً ولا دميماً بل شعرت أنه هو وحده الذى بقى لى ، وأنى أحبه على قدر ما تعذبت من أجله . فأخذته بين أحضانى ، وقبلته ، وقبلته ، قبلته طويلاً وشاع فى نفسى فرح ساكن قرير .

وفى نشوة هذا الفرح عشنا أياماً وأشهرأ خالسنا فيها نعيماً لم يخطر لنا أبدأً ببال . ولكن هذا النعيم لم يتقع غلتي . نخفت أن يجتاحنى ويطفئ فى على دعوة رسالتى . فأردت أن أجمع بينه وبين حلمى ، أن أثار بالعمل الأدبى لكل ما تحملت من لعذاب . فاندفعت ومضيت أفكر وأكتب حتى وضعت المؤلفين اللذين قوبلا من النقاد بأصدق عبارات

الاعجاب والتقدير . وهما « فلسفة ابن رشد » و « تاريخ الأديان » :
وهكذا غالبني الحظ ، فأقلت من محالبه ثم غلبته . وهأنذا أفرح
في كنف زوجي ، زوجي الذي أردت أن أموت لأنقذه ، فكان
هو الذي أحياني اليوم بعد عذابني ، وهو الذي مدّ إليّ يده الرحيمة
وأنقذني .

obeykandi.com

روبرت شومان
أو

عبقريته هزبت امرأة



« كان الموسيقي الألماني العبقري روبرت شومان قد أحب الفتاة الحسنة كلارا . وكان قد عزّ عليه أن يلمس في أخلاقها جوانب نقص بارزة . فأراد أن ينهبها إليها إبقاء على حبه لها . فكتب هذه الرسالة البديعة ، وبعث بها إلى الفتاة » .

يقولون إن الحب أعمى ، ولكن حبي أنا بصير يا حبيبتي وأسفاه ! . . .
والواقع الذي لا شك فيه أن الإنسان الذي اتسعت آفاق ثقافته ، ونخب الحياة ، وذاق حلوها ومرها ، لا يستطيع أن يندفع في تيار الحب معصوب العينين ، ذاهلاً تامهاً مشدوهاً ، جاهلاً شخصية المرأة التي يحب . . .
إن ثقافته تؤثر فيه من حيث لا يدري ، وتسوقه بالرغم منه إلى ملاحظة حبيبته ، وإنعام النظر فيها ، ودراسة أخلاقها وطباعها ، والنفاذ إلى أعماق الأغوار التي ترقد في أطوارها حقيقة شخصيتها .

ولقد كانت مأساتي في علاقتي بك أنى لم أكن أعمى ، وأنى عرفتك حق المعرفة ، واكتنيت سر طبيعتك ومزقت الأقنعة عن جوهر نفسك ، ورأيتك أعمى مجردة من كل زخرف ، عارية من كل طلاء .

فهذه الحقيقة التي استكشفتها في خلقك بعد عناء طويل ، هي التي تقلقني اليوم وتعذبني ، وهي التي توشك أن تخمد نار حبي ، وتجعل من شعلته المتوهجة كومة من رماد .

والحق أنه قد أصبح من المحال عليّ أن أحبك على علائك ، وأرضى بالنزول على حكم طبيعتك ، وأسلس قياد فكري وروحي لغرائك التي أصبحت أنقر منها ، ولحلالك الفاسدة التي لم أعد أملك أية قوة على إحباطها .

إني معك الآن في مفترق الطرق . . . فحبي المتنبه المتيقظ يريد أن يبدل طبيعتك ، ويغير نفسك ، ويصوغ منك امرأة جديدة . فإذا

طاوعتني ، وأذعنت لي ، وصدعت بأمرى ارتد حبك الأول إلى فؤادي ، وضاعفت طاعتك اضطرامه وقوته ، أما إذا أبيت الإصغاء إليّ ، وأبيت الاعتراف بتفائصك ، وتشبثت بتلك الخلال التي أبغضها والتي شوهدت خيالك في ذهني وفي قلبي ، فمن المؤكد أن علاقتنا لا بدّ أن تفرّ ، ولا بدّ أن تذبل ، ولا بدّ أن تختصر في النهاية وتموت .

والآن أرى لزاماً عليّ أن أبصرك بحقيقة نفسك ، وأن أميط لك اللثام عن جوهر روحك ، وأن أصب ضوءاً ساطعاً على تلك الخلال التي لاحظتها فيك ، والتي يجب أن تطهري نفسك منها إذا شئت لحبنا الحياة والنماء والازدهار . . . وأول تلك الخلال الفاسدة التي ينبغي أن أصارحك بها هي الكبرياء . . . فأنت فتاة متكبرة ، متكبرة في حماقة ، متكبرة في عناد ، متكبرة في جنون ، وكبرياؤك هذه تملأ قلبك بالقسوة على نفسك ، وعلى الآخرين . . . فاحتقار الناس هو شعارك ، والاستبداد بالضعيف رجلاً كان أو امرأة — هو عندك التسلية النادرة والمتعة العميقة الكبرى . وليس من شك في أن هذه الكبرياء الطائشة تولد في فؤادك نشوة أمتع من نشوة الحب . حتى لقد خيل إليّ في بعض الأحيان ، أنك تؤثرين لذة الكبرياء على لذة الحب ، وتؤثرين أن يعجب الناس في المجتمعات بتيهك ودلالك على أن يعجب بك الرجل الذي وهبك حبه وقلبه وحياته . . . على أن هذه الكبرياء بدل أن ترفع من شأنك في عيون الناس تثير سخريتهم منك ، واستخفافهم بك ، وكراهيتهم لك . فأنت في الواقع فريسة المجتمع لا سيادته . . . ولكن شخصيتك لفرط كبرها ، لا تستطيع أن تفهم أو تسمع أو ترى . . . فيجب أن تطهري نفسك من لؤثة الكبرياء أولاً ، ثم من لؤثة البخل بعد ذلك . . . أجل أنت بخيلة . . . بخيلة في الماديات كما أنك بخيلة في المعنويات . . . بخيلة في نفقاتك كما أنت بخيلة في عواطفك . . . أجل . إن ذهنك شبيه بذهن حساب ماهر . إن ذهنك المادى يهالك على التهود كما يضمن قلبك الجفاف بالعواطف . .

فلا سخاء في يدك ، ولا سماحة في نفسك ، ولا رحابة في فؤادك ،
ولا آفاق حرة واسعة مترامية يمكن أن تسبح فيها روحك . فجوك الخائق
هذا يخنق فكري ، ويخمد انفعالاتي ، ويخفر هوة سحيقة بين قلبك
وقلبي !

واني لا تساءل كيف يمكن لرجل مثلي أن يستوحى مادة جمال وفن
من أرض صلبة وصحراء مقفرة ، وينبوع جاف ؟ ... إني لأنشد الماء
والري والواحة الزاهرة الخضراء فلا أجد غير التربة القاحلة والمياه الآسنة ،
والصحور الصماء ! ... فانبذى البخل يا حبيبتي تفتح أمامك أبواب
الحياة وتشرق عليك شمس الحناء ويفيض منك ينبوع العواطف ثم يرتد
إليك صاخباً جارفاً مزبداً . ومتى كافحت في نفسك رذيلة الكبرياء
ورذيلة البخل ، أمكنك أن تكافح رذيلتك الثالثة وهي الحسد .

لا تغضبي مني ، ولا تتبرمي بحديثي ، ولا تلوي بوجهك المقطب
عني ، فالحب الصادق هو الذي يهذب أما الحب المنافق فهو الذي يداهن
ويتملق ، نعم أنت امرأة حسودا . . . الحسد في طبعك ، والبشع في
قلبك والطمع في دمك ! . . . كل امرأة جميلة ينهشها لسانك . كل
امرأة غنية تأكلها نظراتك . كل امرأة سعيدة تفرسها غيرتك .
فما كل هذا يا حبيبتي ، وهل يجدر بامرأة مثلك متعلمة وذكية أن
تنحدر إلى مثل هذه الرذائل التي تشوه جنسها ، وتحط من قدرها ، وتجعلها
مضغمة في الأفواه .

إني لأحجل لك ، وأشعر من فرط حبي أن المجتمع يؤاخذني أنا على
رذائلك ، ويعدني مسؤولاً عنها ، ويطالبني بأن أقاوم وأكافح لأجعل منك
امرأة جديرة بإنسانيتك وجديرة بي ! . . . ولا ريب في أني أقاسي مر
العذاب عندما أراك بعيدة عن حلمي ، عن حلمي المثالي الذي من أجله
أحببتك ، والذي مازلت أومن أن في وسعك تحقيقه بشيء يسير من اليقظة
والإرادة وحسن النية :

والواقع أنك امرأة جميلة جمالاً يقن الألباب : ولقد عشقتك
لجمالك هذا ، ولكن كيف يمكن أن أعيش معك وأقضى الحياة بطولها
في صحبتك ، وأنا أرى شيطان كبريائك يمسح هذا الجمال ، وشيطان
بخلك يطعن هذا الحسن ، وشيطان حسدك يجهز على ما فيك من فنون
الملاحة والسحر ؟ . . إن ذلك الشيطان المثلث اللعنة لا بد أن يسمم في
النهاية ينبوع روحى ، ويخثق ضوء حلمى ، ويقوض صرح غرامنا ،
ويحيله في يوم من الأيام إلى أطلال .

فارتفعى بوجدانك وبى . طهرى نفسك من تلك الرذائل وارحمينى :
دعبنى أفخر بك ، وأمعن فى قربك ، وأزهو على الناس جميعاً بصدافتك
وحبك . ثم اعلمى أن الحب لا ينمو إلا فى ظل الكمال أو فى ظل السعى
المطرد نحو الكمال ! . . فالذى ينشد الكمال فى الأخلاق يستطيع أن
يجد الثبات فى الحب ! . . فانشدى هذا الكمال فى أخلاقك ينتعش
حبك وحبى ، وإخلاصك وإخلاصى ، ويظل منتعشاً كلما ازددنا
كمالاً ، وازددنا سمواً ، واقربنا من تحقيق حلمنا الأعلى .

ففكرى الآن طويلاً وتربى . فكرى فى الجهاد الشاق الذى ينتظرك . .
فكرى فى الواجب المفروض عليك فى صراعك مع نفسك . ثم فكرى فى
أيضاً . . . وإذا كنت حقاً تحبينى فلن تهيبى أى جهاد - بالغاً ما بلغ
من مشقة - يمكنك من التسلط على ذاتك ، والسيطرة على غرائزك ،
والإتجاه بفكرك وقلبك نحو ذلك المثل النبيل من الكمال الخلقى المنشود !
وانى لأنتظر ردك ، فإذا لمست فيه رغبة صادقة فى التحول ، عدت
إليك سعيداً بحبك ، معتزاً بوصول حياتى بحياتك . أما إذا شعرت بأن ليس
فى مقدورك إلا أن تظلى متشبثة بأخلاقك ، مستمسكة بأهوائك وميولك ،
فاعلمى أنى قد حزمت أمرى واستجمعت قوتى وعزمت أن أرحل كى
لا أعود !

ولم ترد الفتاة على هذا الخطاب ، بل ذهبت من فورها إلى حبيبها ،
وقطعت على نفسها عهداً مقدساً بتبديل أخلاقها ؛ فاقترن بها الموسيقى ،
وظلت هى تكافح وتجاهد حتى استأصلت من نفسها رذائلها الثلاث ،
وحققت فى شخصها حلم قرينها ، فسعد بها العبقرى ووجد فيها أخلص
وأوفى الزوجات ؛

بـلـزاک

أو

حـبـت و جـهـا و عـزـا بـت



طالع الرجل الخطاب وهو مذهول . لم يصدق أن هناك امرأة يمكن أن تفكر فيه على هذه الصورة ، ويمكن أن تكتب إليه بمثل هذا الأسلوب .

وكان الأسلوب متدفقاً حاراً ، تضطرم فيه عاطفة محتجزة : وتشع منه عبارات مجلجلة خالصة الحماسة والصدق في الإعجاب والتقدير . وكانت المرأة تقول إنها افتتنت بإحدى قصص الرجل ، وأن القصة ألهبت خيافها ، وأيقظت مشاعرهما ، وهدتها إلى عالم رائع من الشعر الواقعي الحى لم تكن لتعلم بمثله أبداً .

وظل الرجل يتلو الخطاب وينعم النظر في عباراته ، ثم يتأمل التوقيع في سهوم وشرود وحنق .

لم توقع المرأة الخطاب باسمها بل ذيلته بثلاث كلمات فقط هي : « الأجنبية الروسية المعجبة » . فعاد الرجل يتفرس في التوقيع وقلبه يخفق وبدنه يرتجف .

كان قد تسلم عشرات الرسائل من معجبات ، ولكنه لم يحس أبداً حيال أية رسالة نسوية بما يحس به الآن .

لقد بهرتة فتنة العبارة ، وخلبته بلاغة الأسلوب ، وسلبت لبه حماسة الإعجاب والتقدير ، وزادت في انجذابه تلك العاطفة الخفية المتغلغلة بين السطور ، والمقرونة بغموض شخصية المرأة وبسحرها البعيد المجهول . وهز كتفيه وألقى بالرسالة جانباً وحاول أن يعمل وينسى . بيد أنه لم يكد يمضى في كتابة قصته الجديدة ، حتى تاه فكره ، وتشوشت خواطره ، وعاد طيف المرأة الأجنبية وجثم أمامه . فنهض من فوره وجعل يذرع الغرفة وهو مكروب ، ثم جاشت بغتة عواطفه ، واستعر فضوله . فأسرع وكتب إلى رئيس تحرير جريدة فرنسية كانت تصدر في روسيا ،

وطلب منه نشر إعلان صغير في صحيفته .
 وذيل الإعلان بالأحرف الأولى من اسمه : وطلب فيه إلى المرأة
 المجهولة أن تكشف له عن عنوانها كي يستطيع أن يرسلها .
 وما إن ترك البيت وهبط الشارع وألقى بالخطاب في صندوق البريد ،
 حتى تنفس ، وتألمت عيناه ، وانطلق يمشى في شوارع باريس ،
 مفتوح القلب ، مثلج الصدر ، خفيف الخطى ، كأنه كان على ثقة
 من نفسه ، وعلى ثقة من حظه ، وعلى ثقة من أن المرأة الساحرة الغريبة
 لا بد أن تكشف له في الغد عن شخصها ، ولا بد أن تلبى نداءه وترد
 عليه .

وبالفعل جاءه منها خطاب آخر بعد أيام . فعرف أنها سيدة من
 أسرة عريقة ، وأن زوجها يكبرها بأكثر من عشرين سنة ، وأنه مخلوق
 فظ مستبد مدمن على الخمر ، يعذبها ويضربها ولا يهتم إلا بأرضه وضياعه
 وأملاكه الواسعة ، وأن اسمها هو الكونتيس « إيفلين هانسكا » ، وأنها
 تعيش في مجاهل أوكرانيا ، وأن قلبها وعقلها وروحها وكل شيء فيها
 يهفو إلى رؤية الرجل العظيم الذي ألهمه بقصصه كيانها وهداها إلى دنيا
 الشعر والعاطفة والهوى .

وأحس الرجل وهو يتلو الخطاب الثاني أن حلمه الأبدي في العثور
 على امرأة مثالية قد يتحقق ، وأن هذه المرأة قد تكون هي التي ينشدها :
 وأنها لو كانت فوق ذكائها الخارق وثقافتها الوافرة جميلة ، فالله يكون
 قد رضى عنه وأشفق عليه ومنحه وهو في غمرة جهاده وعذابه ما يستحق
 من راحة وسعادة ونعيم . . .

ومضى يرسلها . فتم التعارف بينهما ، واستراح كل منهما إلى
 الآخر . فاشتد جبهما على مر الزمن ، واستحال إلى اندماج معنوي
 مطلق لا ينقصه غير اندماج الجسد كي يصبح حباً إنسانياً كاملاً .
 وهكذا أحب الرجل بالفكر والخيال طيفاً ، وظل يحب الطيف أعواماً ،

ولا يطمع إلا في أن يرى في يوم من الأيام هذا الطيف حقيقة واقعة .

• • •

وكان هذا العاشق العظيم المفتون بامرأة لم يرها ، هو القصصى الفرنسى العبقري « أونوريه دى بلزاك » . . . لم يكن قد عرف من الحب غير النزوة البدنية العابرة التى تكرب نفس المفكر وتذيقه بعد وقدة الشهوة طعم الرماد . وكان لفرط اشمزازه من الغوانى وشدة حاجته إلى المال وتراكم الديون عليه ، يقبع في حجرته ، ويرتدى جلباباً أشبه بمسوح راهب ، ويشغل ثلاثة أرباع يومه وهو يجرع أقداحاً متعاقبة من القهوة ، ويكتب القصة تلو القصة ، عساه أن ينى ديونه ، وأن ينسى في غمرة العمل حسرتة على الحب والعاطفة والحياة .

فلما فاجأته العاطفة وهو يائس منها ومنذفع في الكتابة يريد أن يصور الطبيعة البشرية ويخلقها خلقاً ثانياً ويبدعها ، أحس أن المرأة المجهولة قد أشرفت على حياته . فتشبث بها ، وتلهف على شىء من الراحة بقربها ، وظل يتوسل إليها في رسائله أن ترحمه وتقبل عليه ، حتى أجابته إلى سؤاله ، فالتقى بها في سويسرا عام ١٨٣٣ ، وحدث فيها ذاهلاً مبهوتاً وارتجف ؛

أبصر امرأة رائعة الجمال ، ذات جبهه سديه ناصعة ، وشعر أسود غزير ، وعينين واسعتين رقيقيتين ، ونظرة حاملة وسنانة ندية أشبه بواحة صغيرة تلمع فيها المياه وتراقص الظلال .

واستوثق من أنها هي ضالته المنشودة وأمله المبتغى . فهام حبا بها ، وكذلك هي عشقته عشماً عنيفاً مبرحاً ما زجت فيه بين الحب والإعجاب ، ورصدت عليه كل حياتها . أخلصت للعبقري إخلاص المرأة المضطهدة المحرومة التى تبحث عن حب واحد ، ورجل واحد ، والتي تهب نفسها بدون غرض ، ولا تطمع في أكثر من أن يقابلها حبيبها ولاء بولاء وإخلاصاً بإخلاص .

ومكثا في سويسرا بضعة أيام خالسا فيها التعميم ، ثم سافرت مدام هانسكا إلى بلادها ، ثم لج بها الشوق فالتفتت هي من بلزك أن تراه . فعادا والتقيا في فينا حيث أبدع الروائي في ضوء المرأة وتحت تأثير الوحي المستمد منها قصته الرائعة « أوجيني جرانديه » .

وأحس الرجل المبدع الخلاق أن هذه المرأة هي حافزه ومثار قوته ، فازداد حبا لها ، وتعلقاً بها ، ورغبة في حيازتها بالزواج . فتأثرت بعمق عاطفته . ولكنها أبت أن تحطم حياة زوجها . فوعدت الروائي بأن تزوجه لو شاء القدر وتوفى الكهل قريباً .

وامتثل بلزك لمشيئتها على مضض ، وعادت هي إلى روسيا ، وكر هو راجعاً إلى باريس ، وملء نفسه الأمل في أن يلقاها في أوروبا مرة ثانية .

وهنا بدأت المأساة .

أصيب زوج « الكونتس » بمرض عضال ألزمه فراشه . فاضطرت المرأة المنكوبة إلى المكوث بقربه ، والعناية بصحته عامين طويلين ، ولم تستطع إلا أن ترسل بلزك وهي تحن إليه وتمزق .

وكانت رسائلها في تلك الفترة تفيض حبا ، وتتقد إخلاصاً ، وتتلهب شوقاً وارعة وحرقة . بيد أن بلزك الذي كانت تصوراته قد امتلأت بها ، والذي كان يعيش ويعمل وهو مشرب العقل والقلب إليها ، لم يطق بعدها الطويل عنه . فأحس أن حياته خاوية ، وروحه ظامنة ، ومرجل يذنه يغلى ويطلب المرأة . فعجز عن مغالبة نفسه ، وعجز عن كبح شهوته ، وخرج إلى المجتمعات الكبيرة ، واتصل بالسيدات المترفات وانجذب إلى واحدة منهن تدعى « الكونتس فيسكونتي » .

ولم يدر كيف انحط وتدهور وخان محبوبته . فأراد أن يبتعد . أراد أن يقاوم . أراد أن يحبس نفسه في صومعة العمل ولو اختنق بين جدرانها ومات . ولكن جسد المرأة الثانية كان يفتنه ، بل كان يحوم حوله ويدعوه .

فارتدى في بثورة الشهوة مكرهاً ، ثم أفلت منها عازماً ومقسماً ، ثم عاد إليها متهافتاً ومستخذياً ، ثم عز عليه أن يخرج من هذا الصراع مهزوماً . فحزم أمره ، واستنهض كرامته ، وقطع في لحظة كل صلة له بالمرأة وابتعد .

ابتعد وندم وتاب ، ولكن بعد أن كانت مدام « هانسكا » قد عرفت بخيائنه .

تراعى إليها نبأ الخيانة من إحدى صديقاتها في باريس . فثار ثائرها ، وتفطر قلبها ، ونهشت صدرها الغيرة . فكتبت إلى بلزاك رسالة مريرة في حسرتها ، قاسية في صراحتها ، وحشية في كبرها واعتزازها ، تبلغه فيها أنه لن يتلقى بعد الآن كلمة منها ، وأن كل شيء بينهما قد انتهى وعثاً حاول الرجل أن يسترحمها . عثاً حاول أن يقنعها بأنه قد تعذب بهفوة جسده وكفر عنها . أبت أن تسمع ، وأبت أن تكتب ، وأبت أن تصدق أنه ما يزال يحبها ، وأن روحها هي ، وجسدها هي ، وفكرها هي ، وجميع محاسنها الحسية والمعنوية ما تفتأ تستبد به وتسيطر عليه .

وهكذا كفت عن مراسلته . فظل هو يكتب إليها . ولكنها ترفعت عليه ، وصدت عنه ، وثبتت في موقفها سبع سنوات سبع سنوات لم يرها فيها بلزاك مرة واحدة . سبع سنوات لم تتفضل عليه فيها بكلمة واحدة . فأحس الرجل أنه بخيائنه قد استحق هذا العقاب فلم يحقد ، ولم ييأس ، وظل يحب مدام « هانسكا » ويخلص لها ويكتب إليها ويعف عن النساء ويأمل في رحمتها وعودتها وصفحها وهو يتمثلها ويصرخ في وحدته كعتوه .

وفي بلجة هذا السعير من اللهفة والقلق ، والأمل واليأس ، والتخبط والعذاب ، انطلق العبقري يكتب ، مغالباً عذابه ، مضحياً بنفسه ، منتقماً من ذاته ، مكفراً عن خيائنه بالعمل المتواصل المرهق الشاق ،

فوضع في تلك السنوات السبع أكثر من ثلاثين قصة كبيرة . فاستفاضت شهرته . ولكن صحته كانت قد اعتلت ، وبدأت الأمراض تهاجمه : فيئس كل اليأس من عودة حبيبته إليه ، وفكر في أن يكف عن الكتابة ويدخل أحد المصحات .

وعندئذ تسلم من مدام « هانسكا » خطاباً أنبأته فيه أن زوجها قد توفى . فأخذته من فرط الدهشة والأمل فرحة مجبولة ، وكاد أن يغشى عليه . أيقن وهو يقرأ الرسالة الأولى التي تلقاها بعد سبع سنوات صارع فيها الصبر والحرم والعذاب ، أن المرأة ماتزال تحبه وأنها قد غفرت له جريمته ، وأنها ما دامت قد كتبت إليه اليوم وهي حرة ، فهي إذن تريده ، وهي إذن تطلبه ، وهي إذن تود أن تصل حياتها بحياته . . . فأسرع وأفضى إليها في خطاب رائع بكل ما قاساه وهو بعيد عنها ، ثم عرض عليها الزواج ، وسافر إلى بطرسبرج والتي بها . . . وكانت المرأة قد اكتهلت وخطط الشيب شعرها ، وكان هو قد اكتهل أيضاً ، وشحب وجهه ، وضمرت تقاطيعه ، وأنهكته أمراض المعدة والقلب . ولكنه لم يشعر بما طرأ على المرأة من تحول ، وكذلك هي لم تشعر بما بدا عليه من إنهاك . رأى كل منهما الآخر بعين قلبه وشبابه . فاستفاق جهما وانبعث في مثل لمح الطرف جارفاً عاتياً كما كان . بيد أن المرأة ظلت مترددة وقلقة . نهيت الزواج بحبيبها لأن غريمته « الكونتس دي فيسكونتي » كانت تعيش على مقربة منه في باريس . فأنخلع قلب بلزك ، وأقسم لحبيبته أنه قد قطع كل صلة له بتلك السيدة ، وأنه قد عفا عن النساء جميعاً ولم يعرف طوال تلك السنوات السبع أية امرأة . ومع ذلك فالطمأنينة لم تحل في نفس مدام « هانسكا » إلا بعد أن شاء القدر وهجرت غريمته فجأة باريس واستقرت هي وأهلها في إيطاليا . وإذ ذلك أطلقت المرأة العنان لحبها ، ووثقت كل الثقة في حبيبها ، ووعدته بالزواج راضية ومختارة ، على أن تسافر قبل ذلك إلى بلادها ،

وتؤدى ما عليها من واجب مقدس نحو ابنتها :

وسافرت والعزم يحتويها ، وإرادة السعادة بعد طول العذاب تحمها
وتدفعها . فزوجت ابنتها ، ونزلت لها عن الضياع والأملاك التي ورثها
عن زوجها ، واكتفت بأن ضمنت لنفسها دخلاً شهرياً ثابتاً . ثم عادت
إلى باريس وولء صدرها اللعنة على تحقيق حلمها . . . ولكنها ما إن
دخلت بيت بلزاك ، ما إن وقعت عينها عليه ، حتى ارتعدت فرائصها ،
وأصابها من فرط الرعب سهوم وذهول . . . أبصرت رجلاً متداعياً هرمًا
حطمه جهده الحارق في العمل والإنتاج . رجلاً أصفر الوجه ، غائر
القسيمات ، حسير البصر ، يجر نفسه إليها جرًا ، ويتحسس طريقه نحوها
في لوعة وأسى ، باكيًا على نفسه ، نائراً على حظه ، يصرخ ويردد بأن
جسده الجبار قد تقوض ، وبصره الوضاء قد تلبد ، ولم يعد في وسعه
أن يقرأ ويكتب ويبدع للناس أيضاً أروع الأعمال . .

وتجاه هذا المشهد الفاجع ، تجاه الرجل الصلب المكافح الذى
غاض جماله ، وانطفأ سحره ، واستحال فجأة إلى هيكل عظمى ، لم
تبدل المرأة . لم تراجع . لم يخالجها أى إحساس وضعيع فيه شبهة من
تردد أو نفور أو اشمئزاز . بل اضطرم حبها ، واشتعل حنانها ، وتزق
قلبا شفقة ورحمة . فمدت ذراعيها ، واحتضنت الرجل المريض ،
وقالت له وهى تضمه ضمناً عنيفاً إنها ملكه هو وحده ، وإنها لن تتخلى
أبداً عنه ، وإنه كان وسيظل حبيبها ، وسيد جسدها وروحها ، وشريكها
في الحياة حتى تلفظ النفس الأخير .

وتزوجته ، وخدمته ، وبذلت المستحيل كى ترد إليه وقدة الصحة
والنشاط والفرح . ولكن العبقرى المسكين كان قد استفد الصراع قواه
فكان يكافح ويغالب ويأمل على غير جدوى . فلم يعيش مع حبيبته
غير خمسة أشهر . . . خمسة أشهر فقط ثم مات بين ذراعيها وهو
يقبلها ، ويلثم يديها ، ويبتسم برغم حسرتة ، ويشكر الله ! . .

لرمنتوف
أو

الكبيرياء والقسااتك



لا يعتبر ليرمنتوف من أعظم شعراء روسيا في القرن الماضي ؛ وقد استمد شعره من أغاني القوقاز ، ودعى بنحو شاعر القوقاز الخالد .
وهذه قصة المأساة التي كان لها أبلغ الأثر في حياته والتي سجلها الشاعر نفسه في مذكراته .

قال ليرمنتوف :

لم أكن ميالاً إلى الحب العاطفي كغيري من الشباب ، بل كنت مادي
الزعة ، حسي الرغبة ، أمزج في الغرام الجلد بالزل ، وأضحك وأمرح
وأستمع .

كنت شديد الكبرياء ، يماؤني الزهو والترفع ، وتضاعف انتصاراتي
الغرامية اعتدادى بنفسى ، واعتزازى بقوى ، ورغبتى الدائمة في القلب
والتاون وعدم الاستقرار .

ومن غريب أطواري ، أنى كنت أنظم قصائد الحب بدون أن أعرف
الحب . كنت أنظم قصائد الحب متخيلاً أحلام المحبين ، متصوراً آلامهم
وأفراحهم ، مأخوذاً بتجربة هذه الآلام والأفراح بدون أن أحس بها ،
مكتفياً برسمها عن طريق الوهم الشعري المجرد والنظم الصناعي الرخيص .
وهكذا كنت أمثل الحب وأعبث بالقلوب وأقسو على العذارى ،
وأردهن خائبات حائقات يائسات ، حتى التقيت لأول مرة بالراقصة
الفنانة النابغة « سونيا يوروبوف » . وعندئذ تغيرت حياتى ، وتبدلت
شخصيتى ، وأوشكت ، قبل أن تستيقظ مواهبى ، أن أفقد عقلى وأجن !
تعرفت إلى سونيا في حفل عائلى كبير . فراعنى منها شعرها الأسود
المموج ، وثناياها البيضاء الساطعة ، وإون بشرتها الشمعى الضارب إلى
الصفرة ، وفيض الحيوية والمجد المائل في هيئة مظهرها ، وانتقاد نظراتها ،
وعنف حديثها .

وكانت قد سمعت عنى ، وعرفت من صديقاتها أنباء مغامراتى . ولكنها

لم تستطع أن تتصور أن شاعراً وديعاً رقيقاً مثلي ، يمكن أن يكون مع النساء جاف القلب ، غليظ الإحساس ، متحجر العاطفة .

والحق أنها بادلتني أول الأمر إقبالا بحذر . فأسرفت في التودد إليها ، فأنخدعت هي وتشجعت ، وأفعم نفسها السرور والزهو . فأقبلت فجأة عليّ ، وشرعت تتودد إليّ وتلاطفني .

وفي تلك اللحظة التي تغلب فيها غرور الفئانة العظيمة على عقابها ، نهضت أنا ساخراً ، وحييتها تحية باردة ، ثم انصرفت عنها بدون اعتذار ، وانطلقت أغازل غيرها من المدعوات ، وخلفتها جاحظة العينين ، فاغرة الفم ، مبهوتة مذهولة ، تنتفض حنقاً واستنكاراً وسخطاً ...

أردت أن أتحدّثها ، أن أعبث بها ، أن أخضع مجدها وشهرتها لسلطاني . ولكنها كانت أشدّ كبراً مني ، وأصلب عزيمة ، وأقوى إرادة ، وأقدر على التهكم والسخرية والتشفي . فحققت عليّ ، وأضممرت لي الشر ، وآلت عليّ نفسها أن تذلل كرامتي ، وترغمني على حبها ، وتثأر مني لبنات جنسها ، وتعلمني كيف أحترم المرأة ولا أعبث أبداً بقلوب العذارى .

واضطرمت فيها عوامل الحبث والدهاء . فسعت إليّ وأنا بين جمع من أصدقاءئي وهضت تمثل دور العاشقة التي افتتنت بي ، كي توهني أنني قد انتصرت ، فيسهل عليها فيما بعد تمزيق قوادى ، وإصابة كبرياتي في الصميم .

وكانت « سونيا » فتاة شريفة تعول أسرتها من فنها ، وتعيش منقطعة لهذا الفن ، وتفكر في الزواج من راقص أو شاعر يقدرها ويفهمها ، ولا يحرمها من مزاوله مهنتها والظهور على المسرح .

فلما طلب إليها الأصدقاء أن ترقص ، ارتمت على الفور في حلبة الرقص . فتجلت مواهبها الفنية التي أعجبت بها أوروبا كلها . كان رقصها يمثل عذاب الحب ، وعنق الغيرة ، وثورة الانتقام . وكانت تتأيل كالغصن ، وترفرف كالطائر ، وتقفز كالنمر ، وتهدر كالموج ، ثم تنساب

في ليونة كالأفعى ، وهي تمدق إلى تحديقاً ثابتاً ، هلع له قلبي وارتعدت فرائصي .

كانت كأنها تخاطبني وتناجيني وترقص لي وحدي . فأحسست أن إعجاب الناس بها يرتد إلى وينعكس على شخصي ، وأنى أنا الذي ميزته الفئانة النابغة ، واصطفته حبياً بقلبيها ، ووحياً لعواطفها وقلبيها . وبعد أن أدت « سونيا » رقصتها الرائعة ، تقدمت إليها وأنا أرتجف ، وعرضت أن أراقصها . بيد أنها تجهمت لي ، وأعرضت عني ، وخلفتني بدوري محققاً غاضباً ، واندفعت صوب أحد الشبان ، وراقصته في حماسة وتلهف وهي ترميني بالنظر الشرر وتضحك .

وكظمت غيظي وتحينت الفرصة لأنتقم ... وابتهجت الفتاة بما فعلت ، وتهيات لمواصلة النضال ... تعرفت إلى أسرتي ، واندبجت في الأوساط التي أغشاها ، وشرعت تضرم في صدري النار . كانت تقبل عليّ ثم تعرض ، تمنيني ثم تردني خائباً ، تظهر إعجابها بشعري ثم تطرى النقاد أعدائي كي تثور ثائرتي عليها ، فلا أعرف كيف أخضعها ، فأنطوي على نفسي ، وأتألم في حقد وكمد وصمت .

وعزّ عليّ أن تلهو بي امرأة . فبادلتها خبثاً بخبث ، وترفعاً بترفع ، وإعراضاً بإعراض . فما كان منها إلا أن اختفت عني تماماً . وظلت محتجة أسبوعاً بطولاه ، ثم ظهرت في إحدى الحفلات مع شاب صبيح الوجه ، فاستعر الحقد في قلبي ، وطاب لي أن أغيب عن نفسي ، وأن أتشرد في الطرقات ، وأن أقضي الليل ساهراً لا أعرف النوم .

ولأول مرة في حياتي عرفت الغيرة . أحاطت بي الوسوس ، وافترستني الريب والشكوك . . احتلت « سونيا » عقلي ، وملكنت عليّ مشاعري ، واستبدت بخيالي ، وخالطت مني الفكر والإحساس . فكنت أتصورها تارة في صحبة غريمي فأصرخ وأجار وأبكي ، وأتمتلها تارة أخرى وهي ترقص . فأراها في كل شيء أمامي ، في خرير المياه ، في حفيف الأشجار ،

في هددير الموج ، في زفيف الريح . فيتوه عقلي ، ويصيبني من فرط الهموس
شبه خيال ! ...

دوختني الأثني وصرعتني . فزايلى الفرح ، وتسربت منى قوى الحياة ،
وأصبحت لا أجد العزاء إلا في شعري .

ونظمت شعراً حاولت أن أصب فيه عصارة عذابى ، وخيل إلى أن
نغمة إنسانية جديدة سرت في قصائدى . فاغبتبت بهذا النصر الفنى الذى
أحرزته بفضل ألمى ، وأردت أن أكتفى به . ولكن طيف « سونيا » كان
يلاحقنى ويقض مضجعى ويصلىنى مر العذاب . فلم أستطع أن أقاوم .
وفى ذات ليلة وقد سهدنى الحب ، ومهشتنى الغيرة ، نزلت عن كبرى ،
وامتهنت كرامتى ، وكتبت إليها أقول : « ما عرفت الحب قبل أن أعرفك .
أية فائدة من الظهور بمظهر القوة . لقد كنت أشعر بسعادة كبيرة كلما
امتلكت فؤاداً أو غررت بقلب . أما الآن وقد انسحق قلبى فقد بت أصبو
إلى سعادة الألم والتكفير والتضحية . إني لأفكر فيك بعدد ما فى اليوم من دقائق
وساعات . إني لأنشد عفوك ومرحمتك ، بل إني لأستعذب فى دواك الذل
إن كان ذلى يرضيك ويجود على بنظرة واحدة منك . لقد فزت بما لم تفز به
من قبلك أية امرأة ، فلا تسرفى وكفى عن تعذيبى ، أمنحك نفسى خالصة
وأقفها عليك وحدك ! لن أتحول بعد الآن ... لن أتقلب وأتلون ، لن
أخادع وأكذب ، لن أبحث عن الزهو الباطل والنصر الزائل والمتعة الفانية .
لن أرى العالم إلا من خلال عينيك أنت ، ولن أنشد الجمال إلا فى نور
وجهك وضوء جبينك . لقد علمتنى معنى الثبات ، فأتمنى نعمتك على ،
واستكملى خلاصى إذ لا حياة لى ولا خلاص إلا بك ! »

واعتقدت أن « سونيا » ستأثر بخطابى ، وتلبى ندائى ، وتسرع إلى .
ولكنها أقدمت على أمر فظيع ، ارتكبت إنمأ مروعاً . جمع بها الغرور والكبر
ورغبة الانتقام ، فأرادت أن تجرب قواها ، أن تذلى أيضاً ، أن تهدر
كرامتى ، وتزهو على أترابها بإحراز نصر ساحق على . فماذا فعلت

شهرت بي ... فضحت عاطفتي ... كاشفت بها صديقاتها ... أطلعتهن على خطايتي ، وراحت تردد وتهتف أن الشاعر المتبجح المتغطرس قد استسلم لها وخضع !
 هذا التصرف المنكر أهدر كرامتي . فصغرت نفسي في عيني ، وأحسست بالعار يحللي . ففتقدت صوابي ، وارتددت بالرغم مني إلى طبيعتي القاسية المتجبرة .

استحال حبي « لسونيا » إلى بغض هائل مشوب بالاحتقار والصراع : صارعت طيفها في عزلي . خيرت أصدقائي بينها وبينى . شوهدت صورة لها وأرسلتها إليها ممزقة . استأصلتها من عقلي وقلبي واعتبرتها كأن لم تكن . ومع ذلك فقد كنت أتعذب ... كنت أتعذب وألعبها بدون أن أفكر لحظة واحدة في أني أنا السبب في شقائي وشقائها !

والعجيب أني لم أفهم ... لم أفهم أن « سونيا » كانت إذ ذاك أشقى ألف مرة مني ، وأتعس حظاً ، وأعمق ألماً وحسرة .
 لم أفهم أنها كانت تحبني إلى حد العبادة ، وأنها إنما أقدمت على تلك الفعلة الشنعاء مدفوعة بحذرها من طبعي ، وخوفها من قلبي ، ورغبتها في إشهاد الناس جميعاً على عاطفتي ، كي تقيدني ، وتخرجني ، وتؤكد من صدق هواي .

وأمعنت في بغضي لها واحتقاري ، وبعد أن كنت أنا الذي أتوسل أصبحت هي التي تلتمس وتستجدي ، هي التي تطرق بابي ، هي التي لا تفوز مني إلا بالصد والتحقير .
 ولا برح بها اليأس ، وسدت في وجهها السبل ، كتبت إلى هذا الخطاب تشدد فيه بدورها الرحمة والمغفرة :

« ما ذنبي إذا كانت حياتك القديمة هي التي دفعتني إلى الشك في حبك ؟ ... ما ذنبي إذا كان طبعك المتقلب المتلون هو الذي ساقني إلى الإسراف في تجربة حبك ؟ لم أشأ أن أذل كرامتك ، واكني أردت

الاطمئنان إلى صدقك ... أنا امرأة ، والمرأة لا تؤمن إلا بالبرهان ، ومن سوء طالعتها أنها تقيس حب الرجل بمقدار ما يحتمل في سبيلها من عذاب . ولقد عذبتك لأني أريد أن تحبني ، ولأنك أنت نفسك عذبتني . فاعف عن ذنبي فلا راحة إلا بعد تعب ، ولا هناء إلا بعد شقاء ، ولا حب إلا بعد تناكر وخصومة وعداء . واعدت تخاصمنا الكفاية ولم يعد في قلبك ولا في قلبي أي موضع للضعيفة أو للحقد أو للانتقام ... فأنا أتقدم إليك لليوم ولا شفيع لي إلا حبي . فافهم نفسي ، وقدر أسباب تصرفي ، واعلم أن ما احتملته منك يساوي ما حملتك إياه أو يزيد... ومع ذلك فأنا لا أطلب تبرئتي ، بل أنشد رحمتك . وما حاجتي الآن بالتفوق عليك ، وقد أصبحت أحبك ، ولا أستطيع الحياة إلا خاضعة لك . لقد تم لك ما أردت فامنحني بعض ما أريد . أعبدك إلى الأبد ! » .

وأوشكت أن أتأثر وأضعف حيال هذا الخطاب ، وليتني تأثرت وضعفت . ولكن كبريائي عادت فتمكنت مني ، فقام في نفسي أن أشهر « بسونيا » كما شهرت بي ، غير أنني عدلت بعد تفكير ، وآثرت أن أرد إليها خطابها في اليوم نفسه .

وعندئذ وقع ما لم يكن في الحساب .

أعلنت « سونيا » أنها ستغادر روسيا إلى فرنسا بعد أن تقيم بالجمهور المعجبين بها حفلة وداع شائقة ، تمثل فيها وترقص رقصة جديدة أسمتها : « أنشودة الطائر الصريع » !

ودهشت أنا لهذا النبأ ، واستولى على الدهول . أحسست فجأة أنني قد أموت لو فارقتني « سونيا » . ومع ذلك فقد أبيت أن أذهب إليها . أبيت أن أراها . أبيت أن أذل أمامها . فلبثت محتفظاً بإعراضى وصمتي ، متوقفاً أن تضعف هي وتسعى أيضاً إليّ . ولكنها ظلت متمنعة وصامدة . حتى جاءت ليلة الحفلة ، فحزمت أمري ، وعقدت العزم على أن أشهدها . لم أفكر في أن أتصل « بسونيا » ، بل أردت أن أراها عن بعد كغيري من

المتفرجين ، وأن أتزود من فنها الرائع قبل رحيلها عن أرض الوطن .
 ودخلت المسرح شامخاً متعالياً . وما إن رفع الستار حتى انخلع قلبي
 إذ رأيت مأساة حبي ومأساة « سونيا » مثلتين أمامي أبلغ وأفجع تمثيل .
 رأيت « سونيا » في شكل طائر أزرق بديع ، ترقص على نغمات
 الموسيقى ، رقصاً مشجياً حزيناً ممزقاً . ثم رأيت الصياد يبرز فجأة من زاوية
 المسرح ، ويحوم حولها ، ويتربص بها . ثم رأيتها تسرع إليه بدل أن تفر
 منه ، وترامى عند قدميه وتقبل يده ، وهي تلمس وتتوسل وتبكي . ثم رأيت
 جناحها العريضين يوفرقان في حب غامر وحنان عميق ، ويحتضنان الصياد
 القاسي الذي أبى إلا أن يدفعها عنه في عنف ، ويركلها بقدميه ويصوب
 إليها سلاحه ويطلق عليها النار ...

وسقط الطائر الأزرق أمامي صريع القسوة والحدود، ينتفض ويختلج ،
 ويصرخ صراخاً متحسراً متقطعاً .
 ودوت القاعة بهتاف منقطع النظير فانقبض قلبي ، وأحسست إحساساً
 عميقاً أنى وحيد في هذه الدنيا ، وأن « سونيا » ليست لي ، وأنها ملك لهذه
 الجماهير التي تقدسها وتعبدتها وتهلل لها .
 وشعرت نحو تلك الجماهير الصاخبة بغيرة هائلة ، وخيل لي أنها
 ستظل إلى الأبد حائلاً بيني وبين حبيبتي حتى لو عدت إليها . فتحاملت
 على نفسي ، ونهضت محطماً منسحقاً أشق زحمة الجماهير ، وأتقدم
 صوب الباب .

وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة التي لن أنساها ما حبيت ،
 دنا مني أحد عمال المسرح وحياتي في أدب ، وطلب إلي أن أصعد إلى
 المسرح لمقابلة « سونيا » .

وأدركت أنها لمحتني وهي ترقص . فجمد الدم في عروقي ، ولبثت في
 مكاني ذاهلاً لا أدري ماذا يجب علي أن أفعل . خشيت إن أنا سعيت إليها
 وهي في أوج مجدها ، أن تنتهز فرصة ضعفي فتتأر مني وتنكل بي أمام

المعجبين . فطاش صوابي ، وأفقدتني كبريائي ملكة الحكم على « سونيا » ،
وعلى نفسي . فعضضت على شفتي ، واستجمعت قواي جهدي ،
ورجوت عامل المسرح أن يعتذر عني ، ثم تحولت واندفعت نحو الباب .
لماذا أقدمت على هذا التصرف ؟ لماذا كنت قاسياً وشريراً إلى هذا
الحد ؟ كيف طاوعني قلبي ؟ لا أدري . كل ما أذكره هو أني خرجت
في تلك اللحظة إلى الشارع وانطلقت فيه كمخبول ، وضفقت أمشي على
غير هدى ، خاوي الروح من كل شفقة وحنان .

وبينما كنت أنطلق ، حائثاً خطاي ، مسلماً نفسي إلى المجهول ،
سمعت صرخات عالية متعاقبة تترامى إلى ثم تهدر حولي . فالتفت مذعوراً
فأبصرت الجماهير المتدفقة من باب المسرح ، تدفعني كال موج وتجرفني
وتتجه، بي إلى باب الممثلين وهي تصبح :

— سونيا ! ... سونيا ! ...
فأحسست بخوف عميق يتملكني . فاخترقت الجماهير المائجة ،
ووثبت إلى باب الممثلين ، واندفعت إلى متمصرة « سونيا » وأنا أرتجف ،
وما كدت أدخل المقصورة حتى جمدت عيناى واقشعر بدنى ، وكدت
من فرط الذعر أسقط مغشياً على .

رأيت « سونيا » ممددة على مقعد مستطيل ، وحولها الممثلون زملاؤها ،
وهي ما تزال في ثوب الطائر الأزرق الصريع ، تصرخ وتجار وتتلوى ،
والدم يتزف منها ، ويجوارها سكين ملوثة ، أدركت على الفور أنها قد
أنعمدتها في صدرها عندما حمل إليها الخادم كلمتي الفاصلة المروعة التي
قضت على كل آمالها !

وتقدمت لإيها كعتوه وأخذتها بين ذراعي . فغمغمت هي باسمي
والدموع تترقرق من عينيها ، ثم عانقتني وقبلتني . فقبلتها أمام الجميع ،
قبلتها بكل قوى حبي وهفتي وأملى ، ثم قبلتها أيضاً في جنون وأنا أصبح :
يجب أن تعيشي ! ... يجب أن تعيشي ! ... إني أحبك ! ...

فرفت أهدابها كأوراق زهرة ذابلة ، وصعدت نفساً مستطيلاً ،
ثم نظرت إلى نظرة ممزقة أودعتها كل حسرتها واوعتها ورأسها ، ثم عانقتني
بغثة وأسلمت الروح ، وبصرها الثابت ما يفتأ يحدق إلى ! ..

وماتت الفنانة العظيمة « سونيا » شهيدة كبرى وقسوى . فعشت أياماً
طويلة في وحدة مظلمة قاتلة وأنا أخشى أن يخالط عقلي الجنون . ونا برح
بي العذاب ، لم أجد خلاصاً إلا في شعري وفني . فأليت على نفسي أن
أبدع من عذابي عملاً فنياً رائعاً يخلد ذكرى « سونيا » ويخلدني . وهكذا
كتبت ديوان شعري الأول بدموعي ودمي ، فاستقباه الأدباء استقبالا حماسياً
أذهاني :

وعندئذ ، عندئذ فقط ، أدركت هذه الحقيقة المرة . أدركت أن الفنانة
العظيمة التي عذبها وقتلتها هي التي نفخت في من روحها الطاهرة
وأحييتني !

ألفريد دي موسيه
أو

في مهبّ النار



كان المطر يهطل ، والرياح تدوى ، وغيوم السماء تتكاثف تارة
وتوهض أخرى ، فتبني الرعب في النفس وتدفع السابلة إلى الفرار . وكان
الشاعر الذائع الصيت «الفريد دي موسيه» يحث خطاه برغم مرضه ،
وبرشم وقذات الحمى التي تسرى في عروقه ، ناشراً مظلمته ، وأسنانه
تصطك ، وبدنه يرتجف ، ونظراته الملهفة الزائغة متجهة صوب دير
صغير قائم في زاوية الطريق .

وكانت مدينة البندقية قد عابت في أحشاء انظلام ، وانطفأت
شعلة حياتها ، ونجم عليها صمت رهيب لا تعكره غير جلجلة الرعد ،
وخشخشة المطر وهو يضرب النوافذ والشرفات ، ويتساقط في عنف على
الأرض .

وأحس «موسيه» أنه وحيد في هذا العالم انثائر المدطم ، فاختلف
اختلاجاً عنيفاً وبكى . . ولكنه استجمع قوى إرادته ، وألقت بها حيوية
أعصابه ، واندفع نحو باب الدير وطرقه وهو يلهث .
وفتح الباب راهب منيد القامة صارم الوجه ، وأوماً إلى الشاعر
بالدخول . فانطلق الشاب في الدهليز الطويل ، وتحول إلى غرفة رئيس
الدير ، ومكث في الغرفة ينتظر .

تلقت حوله شبه مذهول ، فأبصر الرهبان ، في بهو الدير ، يروحون
ويغدون منكسي الرعوس ، صامتين ساكتين تائهين ، وبيد كل منهم
كتاب صلاة يطالعه في تأمل وخشوع وهو يغمغم .

وأحس الشاعر أن هؤلاء الناس قد ودعوا الدنيا إلى غير رجعة ،
وأن الدنيا بأسرها قد ودعتهم هي أيضاً . وأن الحياة بجمالها الرائع وسحرها
الجلاب لا يمكن أن تنفذ إليهم ، ولا يمكن أن تؤثر فيهم ، ولا يمكن أن
تحول عقولهم وقلوبهم عن التحديق الدائم إلى وجه الله .

وتصور الشاعر ما هو مقبل عليه فأنخلع فزاده رعباً وتزعزعت نفسه من الأعماق .

كيف ؟ ! أفى مقدوره هو أن يودع الحياة مثلهم ؟ أفى وسعه أن يقضى العمر كله في هذا المكان الصامت الخائق المكفهر ؟ أفى استطاعته أن ينسى الدنيا ونعيمها ، وينكر نفسه ، ويقهر شهواته ، ويعيش من أجل الله فقط ؟ !

كلا . . هذا محال ! إن الحياة تغلى في دمه ، وتنبض في عروقه ، وتصب في روحه وجسده سيلاً من نار .

ما كان ليتصور أن التضحية هائلة إلى هذا الحد ! ما كان ليعتقد أن دعوة الحياة أقوى في نفسه ألف مرة من دعوة اليأس ! لا ! محال ! لن يكون في وسعه أن يصبح راهباً ؟ هذا وهم ! هذا جنون ! إنه شاعر ، والشاعر ملك الحياة ، فيجب على موسيه أن ينهض ، أن يسرع ، أن يفر من هنا ، أن يخرج إلى فسحات الحياة الرحبة قبل أن يضعف ، قبل أن يجبن ، قبل أن تغلق عليه أبواب الدير إلى الأبد . . وتمكن منه القلق والذعر ، فلم يتردد وبدل أن يظل في انتظار الرئيس ، تحامل على نفسه ، وخرج من الغرفة لقوره ، واجتاز الدهليز الطويل ، وأوماً بدوره إلى الراهب أن يفتح له الباب : فألقى عليه الراهب نظرة احتقار قاسية ، وأجابه إلى سؤله غير مكترث .

وما كاد موسيه يبصر الشارع ويسمع دوى الرعد وصفير الريح حتى تنفس ملء رئتيه ، وصرخ صرخة فرح وخوف . . فرح بخلاصه من الأسر الذي كان ينتظره ، وخوف من العذاب الذي يتربص الآن به ويسمم جو الحرية الرائع الذي ارتد إليه !

ذلك هو الحادث العجيب الذي وقع لموسيه في مدينة البندقية . ولكن كيف وقع ذلك الحادث ، ولماذا وقع ، وما هي العوامل التي دفعت بالشاعر الذي كان يعبد الحياة والحرية إلى التفكير في توديع العالم

ودخول الدير ؟

الواقع أن موسيه كان يجتاز أقوى وأعنف أزمة عاطفية صادفته في حياته . هذه الأزمة العاطفية الفريدة في نوعها هي التي سنحاول كشف الستار عنها لأنها قتلت موسيه كإنسان ، وأحيتة إلى الأبد كشاعر من أكبر شعراء فرنسا .

ظل ألفريد دي موسيه يحلم طوال أيام حدائته بحب امرأة نادرة تجمع إلى فتنة البدن ، جمال العقل والروح .. وكان شاباً حاد المزاج ، سريع التحول ، متوثب الأعصاب ، خيالي النظرة إلى المرأة والحياة ، قضى رداً طويلاً من شبابه الأول مطلقاً العنان لغرائزه ، يلهو ويمرح في صحبة نساء عابثات مستهترات ، أمتعته بكل ما في الحياة من ملاذ حسية وضيعة سرعان ما تبددت وخلفت في قلبه فراغاً عميقاً ، ابتلاه بأسى ممض أليم ، زين له العزلة ، وباعد بينه وبين المجتمع والناس .

والحق أن إيمان ألفريد دي موسيه في معاشره الغواني ، زاده رغبة في المرأة الكاملة المنشودة التي كان خيالها يطوف بذهنه ، ويحتل عقله ، ويعكر صفو لياليه ، ويفعم نفسه بضرب من السوداء الحاملة الممزوجة بالضجر والتبرم والحسرة .

كان يخشى أن يموت قبل أن يشعر بعاطفة حب صادقة . كان يخاف أن يصرعه القدر وهو لم يعرف من الدنيا غير اللذة الغادرة التي تزول بزوال الساعة . وكان شعره في تلك الفترة من حياته رجوع صدى نفسه القلقة في سعيها المضي وراء العاطفة المشبوبة الخالدة .

هذا السعى المطرد وراء الحب أفاض على قصائده حلة ساحرة غريبة ، أشاعت فيها نزعة من السداجة الفاتنة والبراءة الناضرة والطفولة الخلابه ، أكسبتها شهرة واسعة وأجرتها على كل فم وكل لسان .

وتنبتت الكاتبة الروائية النابغة جورج ساند إلى شخصية الشاعر

ألفريد دى موسيه وأعجبت بها .

راعتها منه سذاجته ، وصدق إيمانه بأحلام الحب ، وتلقفه على امرأة مثالية ، يتخذ منها وحيًا لعقله وعروساً لشعره ، فأحبته .

أحبت فيه الفتى الجرىء ، والعاشق الطموح ، والشاعر الخيالي الذى اعتقدت أنه يريد أن يطوع الحياة لخياله ، ويبدع من هذا الخيال مثلاً واقعياً أعلى .

وكانت امرأة ناضجة الأنوثة ، وافرة قوى العقل ، مضطربة الحواس جليدة الأعصاب ، حديدية الإرادة ، عاشت وأحبت وخبرت الرجال ، وعرفت منهم عدداً كبيراً من صفوة عظماء عصرها ونخبة أفضاده ونوابغه .

والواقع أن جورج ساند كانت قد مجت اللذة هى الأخرى ، وتاقت إلى الحب ، إلى حب صادق ينبع من قلب برىء ، فتوددت لموسيه ، وتقربت إليه ، وافتنت فى أسبأله وإغرائه . فهبت الشاب وازدهى ، وملكته النشوة الكبرى ، نشوة العابد إذ يستفيق من تأملاته فيبصر معبوده ماثلاً أمامه ، يتألق حسناً ، ويختلج حركة وحياة .

أحس موسيه أن حلمه قد تحقق ، وأن المرأة المنشودة الجامعة إلى فتنة البدن جمال العقل ، أصبحت له وحده ، ينعم بها ، ويستطيع أن يستلهمها أروع القصص وأبدع الأشعار . فأسلم نفسه لها ، وانقاد لحبها ، وودع العالم وتبعها ، أعمق ما يكون إيماناً بأن حبهما أجمل وأكمل وأقوى من الحياة .

وأرادت جورج ساند ألا ينازعها فى حببها إنسان ، وأراد موسيه أن يباعد بينها وبين مفاتن باريس ، وأن ينتزعها من أيدي المعجبين بها ، وأن يطمئن فى العزلة إلى حبه الحارق العظيم . فاتفق مع حببته على هجر العاصمة الفرنسية والسفر إلى إيطاليا ، والاستقرار فى البندقية مدينة الحلم والهوى .

وهناك ، فى تلك الوحدة الزاخرة بالحب ، التواقة إلى الثقة والأمل

والنعيم ، نشب الصراع بين العاشقين العبقريين :
وكان لب هذا الصراع هو وضع معكوس لقانون الطبيعة ، هو
ضعف الرجل وقوة المرأة ، هو أنوثة ألفريد دى موسيه ورجولة جورج
ساند ...

كانت المرأة تعيش بالعقل ، والرجل يعيش بالعاطفة . كانت المرأة
تقدس الفكر والرجل يعبد الأحلام .

كان موسيه يحب الناس ، وكانت جورج ساند تكرههم .
كان الشاعر مولعاً بالحياة في المجتمعات والأندية ، وكانت القصصية
النابعة تهوى التأمل والعزلة .

كان الرجل كسولاً ، يقضى سحابة نهاره متنزهاً في القوارب ،
وكانت المرأة جادة عاملة تعكف على وضع القصص وتشتغل أكثر من
أربع عشر ساعة في اليوم ولا تغادر مكتبها إلا لتخرج باحثة عن حبیبها
فلا تلتقي به إلا في الحانات والمراقص الليلية سكران معربداً . .

وكان موسيه أهوج طائشاً نزقاً يعد بشيء ثم ينسأه . يقتنع بفكرة ثم
يتأثر بنقيضها . يهتم بشخص ثم يعرض بغتة عنه . يظهر إعجابه بحبيبه
ثم يطرد أمامها محاسن نساء البندقية الحميلات . وهكذا كان يعيش في
الخارج ساعات ، يتجول في أنحاء المدينة ، ويغشى أحياءها الشعبية ،
مصطحباً في جولاته رهطاً من البحارة ، وفئة من الموسيقيين ، وجمعاً
مشاغباً من المترفين العاطلين ، وطائفة مختارة من بنات الهوى .

والغريب في أمر ألفريد دى موسيه أن القوة التي حفزته إلى الإسراف
في اللهو والمرح ، كانت هي نفسها قوة الحب !

كان لفرط حبه لجورج ساند يود لو استطاع أن يعانق العالم !
كان حبه الشديد يغريه بالفرح ، ويدفعه إلى السرور ، ويدعوه
إلى التسامح وعدم الاكتراث ، ويضعف أخلاقه قلباً وتلوناً ، ويزيدها
رعونة وطيشاً ، ويجعل منه شبه طفل فاز بما يشتهي فهو يطرب ويهزل

ويعمل الدنيا صياحاً وضجيجاً .

وأما جورج ساند فكانت هادئة النفس ، صافية العقل ، متزنة الأعصاب ، تنظر إلى شاعرها نظرة الملاحظ الصارم ، فتستجلي بواطن شخصيته ، وتقف على حقيقته أهوائه ، وتعد عليه هفواته ، وتشعر على الرغم منها بعظم الفارق بين خيالها عنه وبين ما هو عليه في الواقع . وأعجب من كل هذا أن ألفريد دي موسيه ظل يمزح ويعريد دون أن تخطر على باله لحظة واحدة فكرة خيانة جورج ساند
أجل . . . كان يحيا بين أجمل نساء البندقية ، ولكنه لم ير فيهن من تستحق قبلة أو نظرة .

لم يتطلع إلى امرأة غير حبيبته . لم يسمح لغرائزه بتلوين ضميره . كان في ذوه مثال الطهر والعفة ، مثال الأمانة والوفاء ، مثال الترفع عن كل شبهة من خيانة ، وكان ميل ولو خفي إلى الخديعة والغدر
ولكن المرأة كانت تسخط وتغار .

كانت تنظر إلى الظاهر أكثر مما تنظر إلى الباطن .

كانت تنظر إلى السلوك لا إلى العاطفة فقط .

كانت تحكم على العمل لا على النية الطيبة ، ولا على القلب الوفي

ولا على الضمير الطاهر .

وأهم ما كان يثيرها ويحفظها فوق غيرها هو نزع الشاعر وغروره ، هو كسله واستهتاره ، وذلك الطيش المتأصل في نفسه والذي كان يبعث الناس على الاستهزاء به والسخرية منه .

كل هذه الظواهر الضعيفة كانت في عرف جورج ساند من خصائص الأنوثة . وكانت هي تكره أشد الكره خصائص الأنوثة وتحاربها في نفسها ما استطاعت ، وتبذل قصاراها في قهرها ، والتغلب عليها وإخضاعها لحكم إرادتها وعقلها .

وهكذا شعرت جورج ساند أنها بإرادتها القوية ، وحجها الجلد والمثابرة على

العمل : وهذوتها واتزان أعصابها ، تمثل فى هذه المأساة دور الرجل . وإن موسىه برعونته وغروره واستهتاره يمثل دور المرأة . فكبر عليها أن يستعبدها الحب لمن هو أضعف منها ، وثارى فى نفسها تلك الرغبة الأبدية ، رغبة المرأة فى الرجل الذى هو أقوى منها ، والذى تستطيع أن تحبه لأنه يستطيع أن يخضعها ويفرض عليها سلطان خلقه ورجولته وإرادته . ولم تعد تختمل الحياة مع الشاعر ونمت فى ذهنها فكرة الانفصال عنه .

أرادت أن تسترد حريرتها وتتخلص من هذا الطفل المتعلق بعنقها . ولكنها أحجمت أول الأمر وترددت .

أحست غرائها القديم يستيقظ من سباته ، ويستولى عليها ، ويتمكن منها ، ويقترن بعاطفة جديدة لم تكن فى حسابها .

خيل إليها أنها تحنو على موسىه حنوًّا ينبعث من أحشائها ومن قلبها ، وأن شيئاً من روح الأمومة قد سرى فى حباها . فترىث وراجعت نفسها ، واستقر رأيها على وجوب تهذيب شخصية حبيبها لتمكن من الحياة بجواره والإخلاص له .

حاولت أن تجعل من الشاعر الكسول رجلاً عاملاً ، ومن الفتى الطائش شاباً عاقلاً ، ومن الإنسان الصلف المتكبر المستهتر المغرور مخلوقاً رقيقاً متزنأ متواضعاً . فبدأت تصارحه برأيها فيه ، وتنتقد مسلكه بالحسنى ، وتمده بمختلف الإرشادات والنصائح ، وتدفعه إلى حب العمل اليومى ، وتزين له حياة البيت ، وتبذر فى عقله وقلبه بذور الإرادة والقوة والرجولة . ولكن الشاعر استخف بها وسخر منها ، ثم كبر عليه أن تجرؤ امرأة على اقتحام حرمة النفسى . فتمرد عليها ، وألزمها حدها ، وانطلق يلهو ويمرح وفق هواه ، وهى تنذره وهو يضحك ، ويهز كتفيه فى وقاحة متحدياً وغير حافل .

ويجب إنصافاً لجورج ساند أن نقول إنها أعادت الكرة مرات ،

وجاهدت أسابيع طويلة لتبديل شخصية حبيبها . وإنما استعظمت
وتوسلت وبكت ولكن على غير جدوى . .

حينئذ دب اليأس في فؤادها ، فتغير كل شيء واستحالت العاشقة
المفتونة إلى امرأة أخرى .

أهملت الشاعر إهمالاً خبيثاً قاسياً متعمداً ، فالتبت كبريائه
وكاد يجن .

لم تكترث له . شرعت تخرج مع سواه ، وتتعرف إلى الرجال ،
وتغشى المجتمعات ، وتظيل السهر في الملاهي حتى ساعة متأخرة من
الليل .

وأصبح هو الذي يمكث في البيت بمفرده ، وهو الذي ينتظرها ،
وهو الذي يتلهف عليها ، وهو الذي يأكل الشك عقله وقلبه ، وهو
الذي يمثل دور المرأة المستضعفة المنبوذة المنكودة الحظ . .

وعصفت به الغيرة وبرح به العذاب . ولكن المرأة لم تشفق عليه .
ومضت توفق بين حياة العمل وحياة اللهو ، فرحة بحريتها ، متخففة من
حملها ، سعيدة وطروباً ، كأن الشاعر كان بالأمس عبثاً عليها .
ولم يفهم موسيه أنها أرادت بمسلكها الجديد أن تثيره وتدفعه إلى
الانصراف عنها .

لم يفهم أنها تخلت عنه ليتخلى هو الآخر من تلقاء نفسه عنها .
لم يفهم أنها زهدت فيه ، وأن من واجبه أن يستنهض ميت كرامته
ويرحل . فاستمسك بها ، وازداد تعلقاً بحبها ، وآلى على نفسه أن يسترجعها
مهما كلفه الأمر .

وأحست جورج ساند بثقل وطأة حبه عليها ، فزادته جفاء وإعراضاً
فاحتمل صابراً متجلداً ثم اضطرم حقدته وانتقدت لوعته ، فأنهال عليها
لوماً ولعناً وتقريراً . فثارت ثورتها عليه ، وأخمدت الثورة في قلبها كل
شعور بالرحمة وكل شفقة على الماضي . ثم تطورت الثورة من غضب

إلى كراهية ، ومن كراهية إلى كيد ، ومن كيد إلى رغبة واضحة صريحة
في الغدر والانتقام !

وإذ ذاك أصيب الفريد دى موسىه بحمى خبيثة ألزمته الفراش
وحالت بينه وبين كل مقاومة .

وقع فريسة للمرأة وهو لا يدري .

أسلمته الأقدار إليها وتركتها تفعل به ما تشاء .

ولما رآته صريعاً يجأر ويتلوى ، اصطنعت الحنان ، تكلفت الحب .

تظاهرت بالإخلاص والتضحية ، وأخذت تعنى به في البدء وتسهر عليه
وتعاونه في كبح المرض . ثم تراخت عزميتها ، وفترت همتها ، وعادت
إلى الخروج ليلاً في صحبة أصدقائها ، متناسية ذلك المريض المنبوذ
الذي كان يئن في وحدته عذاباً وبأساً وحسرة .

ولما اشتد به المرض جاءتته ذات يوم بطبيب إيطالي يدعى « باجيلو »

فلم يكده موسىه يبصر هذا الطبيب الجميل ، الأسمر اللون القوي العضلات
ولم يكده يلحظ نظراته إلى المرأة ، ويستبطن حديثه إليها ، حتى ارتعد
وانخلع قلبه ، وأحس الحقيقة المرعبة تنفذ إلى صدره كطعنة سكين .

أدرك والحمى تلهبه ، والمرض يقوضه ، وعقله يوشك أن يختبل ،

أن ذلك الطبيب الجميل يروقها ، وأنها باتت تقربه وتؤثره .

أدرك أنها انتهزت فرصة مرضه لتقضي عليه !

أدرك أنها قد استحالت من ملك في الحب والإلهام إلى شيطانة في

القسوة والكيد . أدرك أنها تعمدت ارتكاب هذه الذنوب لتجهز على البقية

الباقية من أمله ، وتقطع بينهما في المستقبل كل صلة !

أدرك كل هذا إدراكاً عميقاً ساحقاً ، وأيقن أن كل شيء قد انتهى

فاسودت الدنيا في عينيه ، وتاق إلى موت عاجل ينقذه من الحب ،

وينقذه من الغيرة ، وينقذه من الهوان . . ففكر في الانتحار لحظة ولكنه

ارتجف وتراجع . . أراد أن يصارع الحب ويصرعه . . أراد أن يعبد

شيئاً غير المرأة ، وغير اللذة ، وغير الخيال . ففكر في الله . وأسرع من فوره ونهض من فراشه ، وتدثر بمعطفه وهو محموم وانسل من البيت تحت جناح الظلام ، واتجه صوب ذلك الدير الذي لم يكده يدخله حتى ارتجف أيضاً وتراجع أيضاً ولاذ بالفرار . . .

. . .

وها هو ذا الآن في الشارع المظلم الضيق ، يرتعد من فرط الحمى ، ويتقى بمظلتها شآبيب المطر ، ويحدق إلى واجهة الدير ، ويقول في نفسه وهو يختلج : كيف يمكن أن أحتمل الحياة بعد اليوم ؟ كيف يمكن أن أعيش بدون تلك المرأة ؟ يجب ، يجب أن أعود إلى الدير . يجب أن أختنى . يجب أن أموت . .

وهدأت العاصفة فجأة ، وطلع الفجر ، واندفق شعاعه البنفسجي على المدينة الهامدة . فأحس موسيه أنه ينشط ويتوثب ، وأن قواه قد ارتدت إليه ، وأن في بدنه الواهن المتصدع إرادة مغامر وعزم جبار . فتقدم خطوة ، ثم تقدم أيضاً ، ثم تشجع وطرق باب الدير مرة ثانية ودخل .

دخل يترنح كالشارب التمل . وما كاد يبصر رئيس الدير حتى جثا عند قدميه وهتف : ارحمني يا أبت وافسح لي مجالا عندك فأنا إنسان شقي !

فأنهضه الرئيس ، واستفسر عنه من الراهب البواب ثم تفرس فيه ملياً ودنا منه وقال : لقد جئت ثم ذهبت يا بني . وقد تمكث هنا أياماً ثم تعود فتذهب . . أنت حائر وقلق . وأنا لا ألمح فيك صفاء النية وصدق العزيمة وعمق الإيمان . لا يمكنني أن أقبلك ! . . اذهب إلى الدنيا واعرف حقيقة نفسك وعواطفك أولاً ثم عد إلى بعد عام . ومتى عدت هادئاً ثابتاً عازماً رحبت بك . أما الآن فليس في مقدوري ، والأسفاه ، أن أجي سؤلك . أنت متردد يا بني والله لا يجب المترددين ! طاب يومك !

وخرج موسيه ، مطرق الرأس ، محنى الظهر ، متهاكاً محطماً .
ولما احتواه الشارع الضيق ، رفع بصره إلى السماء المصحية ، وانبعث
من صدره أنين ممزق طويل .

أدرك أن الله لفظه كما لفظته المرأة والحياة . قتلت حوله كعتوه .
لم يعرف إلى أين يذهب ، وإلى من يلجأ ، وبأى حطام يتعلق قبل أن
يغيبه اليأس في بلعة العدم .

وجاشت عواطفه واصطخبت ، فحاول أن يكبحها . ولكنه أحس
على الرغم منه أن لا عزاء له ولا خلاص إلا في إلهاها ما استطاع .
فاستند إلى جدار أحد البيوت ، وأخرج من جيبه ورقة وقلماً ، وشرع
ينظم تلك العواطف في قصيدة تسجل مأساة حبه ، وتنفذه من لوعته
وحسرتة ويأسه ، وتقر في نفسه الراحة والطمأنينة ولو إلى حين .

ولما أتم وضع القصيدة أبرقت عيناه فرحاً ونشوة ، وأمهه فيض
عبقريته بسيل طارئ من قوة . فانتهاز الفرصة التي حباه القدر بها .
واندفع يعدو صوب البيت مشبوب الفكر والإرادة والعزم . .

وما إن دخل حجرتة حتى أسرع فحزم أمتعته ، ثم فتح النافذة وألقى
على مدينة البندقية المشثومة نظرة ، ثم تحول نحو مخدع حبيبته المستغرقة
في نومها يود أن يتزود منها هي أيضاً بنظرة وداع . ولكنه تمالك نفسه .
وخنق في صدره وجيب قلبه ، وأبى أن يروقظها بل أبى أن يراها . . وانطلق
من فوره إلى الشحطة راسخ العزم ، ثابت القدم ، وابتاع تذكرة إلى باريس .
وعاد موسيه إلى باريس يحمل شخصية رجل ناضج مكتمل . ولكن
قلبه المشغوف بحب جورج ساند كان قد مات ، مات لتبعث عذاباته
شعراً إنسانياً خالداً على مر الأجيال .

مارينو فوسكاري
أو

السبلة والصفى



« تألق في إحدى القرى الإيطالية في أوائل القرن السابع عشر نجم
موسيقى شعبي فقير يدعى « مارينو فوسكاري » . وهذه صورة حياته التي
توزعت بين حب عميق ومغامرة فذة » .

...

كان يؤلف ألحانه في كل مكان ، لأنه كان يرى ويحس جمال
الطبيعة في كل مكان ... وكان يقضي معظم نهاره في قاربه الصغير ،
يتنقل به في أنحاء البحر ، ويقضي معظم أوقات فراغه في قرينته بين
الحقول والوديان ، ينصت إلى نغممة النسيم ، وحفيف الشجر ، وخرير
الجدول ، وسقوط المطر ، وقصف الرعد ، وهبوب الريح ، وهو يشرب
نفسه جميع هذه الأنغام ، ويعيش منها ولما ، مندجماً في جوهرها ، هائماً
في سرها ، أسعد ما يكون بتأديتها في ألحانه تأدية مختلفة نابضة صادقة .
ولكن ألحانه كانت عنيفة ، وكانت حزينة ، فلم ترق لأهل القرية
الذين نشأوا على سماع الأنغام الراقصة الخفيفة المرححة المطربة .

والحق أن « مارينو » كان يلحن لنفسه ، ويبدع الأنغام لذاته ،
ولا ينشد أبداً إعجاب الناس مكتفياً بأن يكون سعيداً ، وأن يشعر بأنه
قد فر من حياته ، وخرج من عزلته ، ونفس عن صدره ، واستطاع بفضل
فنه ونبوغه أن يتصل اتصالاً وثيقاً بتلك الطبيعة الرائعة التي كان يعبدها
ويرى فيها ملاذته الأول والأخير .

كانت مهنته صيد السمك ، وكان فقيراً بائساً . ومع ذلك فالبؤس لم
يؤثر في طبيعه ، ولم يفسد خلقه ، ولم يخذل في نفسه نور الأمل ، وشعلة الإيمان .
على أن شيئاً واحداً كان يؤلمه . إنساناً واحداً كان يعذبه . وهذا
الإنسان هو زميله وصديقه وغريمه الموسيقي أنطونيو ...

كان « أنطونيو » صياد سمك أيضاً ، وملحناً « كمارينو » ولكنه كان
ثرياً . أما ألحانه فكانت مرحة خفيفة غثة ، تجرى على كل لسان ،

ولا يفتأ يغنيها ويردها أهل القرية جميعاً .

هذه الشهرة المستمدة من صناعة رخيصة ، كانت تحز في صدر مارينو ، وتشعره بجهل الجماهير وجحودها ، وتلقى في روعه أنه لن يقوى على إثبات شخصيته ؛ ولن يقوى على توكيد نبوغه ، ولن يعيش إلا في ظل الصمت واللبؤس والانطواء والحمول .

تلك كانت مأساته الذهنية ، أما مأساته العاطفية ، فكانت أعمق وأفجع بكثير .

وها هو ذا ، وقد احتلت فكره مأساته الثانية ينعم النظر فيها ، ويقلبها على مختلف وجوهها ، وعينه الساخطة المستنكرة ، لا تكاد تحدق إلى البحر لحظة حتى تبرم وتتململ ، وتمتد حانقة إلى الفضاء البعيد ...

وكانت السماء في ذلك اليوم ملبدة بالغيوم ، وصنمحة البحر كمرآة مغبرة ، وقوارب الصيد متناثرة عليها تمايل وتتطوح كلما عصفت بها الريح .

وكان مارينو ينهب الفضاء ببصره ، ويتأمل الأفق المترامي ، ثم يعرض على شفثيه ، ويطرق برأسه ، وينظر إلى قاربه الصغير ، والدمع يوشك أن يطفر من عينيه .

كان يفكر في تيريزا ... في الفتاة الشائقة الساحرة ، ذات العينين الزرقاوين الناعستين ، والشعر المتوهج الذهبي ، بنت الشيخ جوليانو الفلاح الأجير .

كان يحبها أكثر من شبابه ، وأكثر من حياته ، لأنه كان يحبها في فنه الذي يمثل له أجمل صور الشباب وأنضر صور الحياة .

وكانت تيريزا تحبه ، وتعجب بجماله وفنه ، وتتمنى على القدر لو استطاعت أن تصبح زوجة له . بيد أن والدها الشيخ كان يحفوه ، وكان يعيره بفقره ، ولا ينفك بصارحه بأن ابنته لن تكون أبداً له ... وهكذا أدرك مارينو أن السعادة قد تشتري بالمال . فأراد أن يجرب حظه

عساه أن يصبح في يوم من الأيام غنياً . فحاول جهده أن يقترض مبلغاً كبيراً من بعض وجهاء القرية ، ولكنهم أعرضوا عنه ولم يثقوا فيه . فاضطر — وماء نفسه اللاوعة والحسرة — أن يبسط يده إلى صديقه وغريمه ، وأن يقترض المبلغ من الصياد الموسيقي الثرى أنطونيو ... وما إن أصبح المال في حوزته حتى أسرع واشترى شبكة صيد كبيرة ، وقارباً صغيراً جميلاً أطلق عليه اسم تيريزا .

وشرع يجوب أنحاء البحر ، ويلقي الشبكة في أطوائه ، ويجاهد ليقطنص الحظ من جوف الماء . ولكن البحر كان يعانده ، والحظ كان يكايده . والشبكة الملعونة كانت تسخر منه ولا تقذف إليه من أعماق اليم إلا بأسمك صغيرة تلمع كاللآليء الزائفة التي تبهر العيون دون أن تساوى في الواقع شيئاً مذكوراً .

وانقضت أشهر طويلة ، ولم يستطع مارينو أن يني بما عليه لصديقه من دين . يئس من وفاء دين أنطونيو كما يئس كل اليأس من الظفر بتيريزا . فاسودت الدنيا في عينيه ، وآلتهبت حسرته ، واتقد حبه ، وازداد على مر الأيام تأججا واشتعالا .

وكان أنطونيو يغافله كل يوم تقريباً ويسعى إلى تيريزا . كان في مستهتراً عربيداً مولعاً بالخمير والنساء ، وكان يحب تيريزا وكانت تكرهه . كان يخطب ودها وكانت تخشاه . كان يسعى إليها وكانت تنصرف عنه وتروغ منه . فلم طال انتظارها ويئست هي الأخرى من نجاح مارينو ، وأبصرت أنطونيو يلاحقها ويطاردها ويتشبث بها ويغدق عليها فيضاً من الهدايا ، تراخت فجأة وضعفت ، وانصرفت عن الفقير إلى الغني ، وزهدت في الحب وآثرت المال .

وبدأ مارينو يشعر بتحول المرأة وخيانة الصديق . ولكن هذا التحول المنكر المقرون بالخيانة لم يعذبه قدر ما عذبه شعوره بالمهانة والذل . كان مديناً لأنطونيو ، وكان أنطونيو يتعالى عليه ، ويشمت فيه ، ويسخر من

نكد طالعه ، ولا يفتأ يذكره بالدين . وكان مارينو يحس العجز المنزق أمام أنطونيو ، والعار انفضيح أمام تيريزا . وكان يحس أنه مادام فقيراً ، ومادام مديناً ، ومادام فاشلاً ، فلا حق له في الكرامة ، ولا حق له في الحياة ، ولا حق له في تيريزا .

ولقد استبد به هذا الإحساس بالأمس ، عندما أبصر الفتاة تخرج في شوارع القرية متأبطة لأول مرة ذراع أنطونيو .

ثار ثأره . جن جنونه ، أيقن أنه سيفقدتها . فهام على وجهه الليل بطوله ، ومضى يضرب في أنحاء القرية ، ساهماً شاردأً مخبولاً ، لا يستطيع أن يفرج عن نفسه إلا في النغم العنيف الحزين الشجي ، الذي تجمع بغتة في أطواء فكره وقلبه ، ثم وثب من أعماق كيانه ، واندفق من جوهر روحه حاملاً في سيله الجارف حبه التاعس وعذابه الممض الكظيم .

وظل يضع اللحن تلو اللحن في شبه حمى . ولكن سورة الخلق والإبداع لم تنفع غلته ولم تطفيء حرقتها . فارتد إلى سهومه ووجومه . وعاد يلتقي بشبكته في البحر موزع القلب بين التلهف على الأمل وبين اليقين من اليأس .

وفجأة ، وهو في نعمة بؤسه ، ولوعة اضطرابه وحيرته وشقائه ، أشفق عليه القدر ، وهداه إلى بصيص خافت من نور ، ثم بسط أمامه عينيه الذاهلتين شاطئ النجاة !

وها هو ذا يتأمل قاربه الصغير ، ويسرح الطرف في البحر الشاسع ، ويفكر : أيقبل أم يرفض ؟ أيجب أن يتعلق بالحياة فيشتي ، أم يجب أن يغامر بالحياة كي يسعد ويعيش ، أيجب أن يتراجع أم يقدم ، أن يجبن أم يتشجع ؟ كلا ... يجب أن يقدم ! يجب أن يقبل ! يجب أن يغامر ! يجب أن يقهر حظه ويقهر أنطونيو ، ويفوز بتيريزا !

واستحوذت عليه الفكرة ، وتمكنت منه . فلم يتردد ، وأرسل نفساً مستطيلاً ثم نهض من فورهِ ، واستجمع قواه ، ودفع بقاربه الصغير ،

واتجه به صوب الميناء ...

• • •

وكانت قد رست في الميناء سفينة كبيرة ، فصعد إليها مارينو ، وطلب مقابلة قبطانها . وما إن دخل على القبطان حتى ابتدره قائلاً :

— جئت يا سيدي تلبية لدعوتكم . طالعت الإعلان الذي نشرتموه بالأمس في الصحف . فإذا لم يكن قد تقدم إليكم أحد غيري ، فأنا متأهب للقيام بكل ما تطلبون .

فرمقه القبطان بنظرة فاحصة ، وقال :

— لم يتقدم إلينا أحد بعد . ولكن المهمة شاقة ، ونحن في حاجة إلى رجل مغامر قوى .

فهتف مارينو :

— إني هذا الرجل . فتكلم يا سيدي فأنا رهن إشارتك . ما نوع هذه المهمة بالضبط ومتى يجب أن أقوم بها ؟
فتفرس فيه القبطان فترة ، ثم قال :

— تعلم أن بعض رجال العصابات قد أثاروا اضطرابات خطيرة في المنطقة الواقعة خلف الشاطئ المجاور ، وتعلم أن الحكومة قد أرسلت سفينتين حربيتين لإقرار النظام ، سفينتي والسفينة الأخرى التي رابطت منذ أيام في الشاطئ المجاور والتي أوشك أن يحاصرها رجال العصابات . فهذه السفينة يجب أن أخف أنا على الفور لنجدتها ، ويجب أن أعاون قبطانها معاونة فعالة في قمع الاضطرابات . ولكن السماء ملبدة بالغيوم ، والعاصفة لا بد أن تهب بعد ساعة على الأكثر ، وليس في مقدوري أن أغامر بسفينتي وسط العاصفة وأعرضها للهلاك . فالواجب إذن يقتضي أن أسرع وأبعث إلى زميلي قبطان السفينة الثانية برسالة مستعجلة وخطيرة أعين له فيها التدابير الجديدة التي رسمتها الحكومة لمكافحة الاضطرابات . ولقد فكرت في أن أعهد بهذه المهمة إلى أحد من رجالي ، ولكنهم كما تعلم بحارة وجنود مرتزقة

يحترفون صناعة الحرب فقط ؛ ويعتقدون أن من العار عليهم أن يموتوا إلا وهم يقاتلون. فليس فيهم من يقبل أن يكون فداًئياً وأن يخامر بحياته على هذه الصورة . لهذا أعلنت عن حاجتي إلى رجل غريب . فهل يمكن أن تكون أنت هذا الرجل ؛ وهل أنت مستعد لمواجهة العاصفة ومحاربة الخطر ؟

فلم يرتجف مارينو ولم يتأثر ، بل قال في هدوء :

— أين هذه الرسالة ؟

فاستطرد القبطان :

— عليك أن تسلمها إلى زميلي قبطان السفينة الأخرى ، كما عليك أن تسلمه نسخة من الصحيفة التي نشرت الإعلان وذكرت المكافأة . ومتى تسلم القبطان الرسالة وقرأ الإعلان ، سيتمنحك من فوره المبلغ الكبير المقرر لمن يتولى هذه المهمة الشاقة . أكبر ظني أنك ستصل إلى الشاطئ الآخر سالماً ، وتظفر بالمبلغ . ولكن المهم هو أن تعود أيضاً سالماً وتنجو من العاصفة التي لا بد أن تهب بعد ساعة أو أقل . فهل أنت مستعد ؟ فكر ملياً قبل أن تعزم وتتورط .

فردد الشاب في ثبات :

— أين هذه الرسالة ؟

فناوله القبطان الرسالة ، وهو ينظر إليه نظرة ملؤها التقدير والإعجاب ثم بسط له يده مصافحاً وقال :

— حظاً سعيداً يا بني ، وإلى اللقاء .

فدس مارينو الرسالة في جيب صدره ، وخرج من السفينة منصوب القامة ، ملتمع العينين ، مضموم القبضتين ، يهتف في نفسه :

— سأظفر بالمال ، وأقهر العاصفة ، وأتفوق على غريمي ، وأفوز

بتيريزا !

وظفق يجدف كمخبول حتى بلغ الشاطئ . ولما التى برفاقه الصيادين

صارحهم بما اعتزم عليه ، فبيتوا وروعوا وحاولوا أن يشنوه عن عزيمه . ولكنه لم يخجل بهم ، وشرح بره قاربه وهو يضحك ويعنى .
ومن انشاء أماله ، وجلجلة فرجه ، ونشوة أربهاجه . انبعثت من صدره أغنية رائعة ، وضعها على النور ، ونسج في لحظة أنغاميا ، وابتكر كلماتها ، وأودع فيها خلاصة حبه ، وعصارة إيمانه بالنصر العظيم المكشور .

وراح الصيادون يرددون الأغنية ، فازداد مارينو حماسة ، وازداد شجاعة وعزماً ، ثم وثب إلى القارب فجأة وهو يعنى ، ثم لوح بذراعه يودع رفاقه ، ويقول لهم :

— كان جل ما أتمنى هو أن أرى تيريزا قبل رحيلى . ولكنى أريد أن أسبق العاصفة وأنقلب عليها . فقولوا لتيريزا إنى أغامر بحياتى من أجلها ، وإنى لا بد أن أقهر الريح والماء والنساء وأفوز بها !
وولى وجهه شطر الشاطئ الآخر ، وضرب الماء بمجدافيه ، وانطلق يلوح بذراعه ويعنى .

وفى مثل لمح الطرف ، احلواك الجو واسودت السماء ، ثم صفرت الريح ، وماجت القوارب . واستحال البحر شيئاً فشيئاً إلى وحش هائل مسعور . أما القارب الصغير فقد ظل يتحرق الأمواج المتلاطمة حتى غاب في لجة البحر الجائش ، ولاح أشبه بنقطة سوداء تراقص في الأفق البعيد . وأسرع الصيادون ونقلوا الخبر إلى أنطونيو وتيريزا . فذهلت الفتاة وأعجبت ، وأكبرت من مارينو أن يعجزها ويخلص لها ويستمسك بها إلى حد المغامرة بشبابه وحياته من أجلها . فأشفتت عليه من أعماق نفسها ، واستيقظ فجأة حياً له ، وتمنت من صميم قلبها لو استطاع البطل أن يظفر بالمال ويعود إليها سالماً .

وارتجف أنطونيو ، وخشى العاقبة . أيقن أن مارينو لو عاد منصوراً فلا بد أن يقهره ويسلب منه قلب تيريزا . فحزم أمره ، وتقدم إلى الفلاح

الأجير واند الفناة وطلب منه يدا بنته .

ولكن تيريزا ماطلت وراوغت وأبت إلا أن تنتظر .

وانتظر الجميع على أحر من الجمر ، ولكن مارينو لم يعد .

انقضى الليل بطوله ولم يعد . وانقضى اليوم التالى بطوله أيضاً ولم يعد .

فانطلق الصيادون يجوبون أطراف البحر باحثين عنه ، ولكنهم لم يعثروا

إلا على القارب الصغير ، يترنح وحيداً خائراً يائساً بين الأمواج .

ومع ذلك ، وخشية أن يظهر مارينو فى اليوم الثالث فجأة ومعه المائى ،

وحول شخصه هالة من روعة المجد والتضحية ، كشر أنطونيو عن أنيابه ،

وأصر على أن يقترن بتيريزا فى اليوم نفسه وإلا تخلى عنها وقطع كل صلة

له بها .

وروع الفلاح الأجير ، واستهول الأمر وعز عليه أن تفقد ابنته

زوجاً ثرياً لم يكن ليحلم به . فأنتهرها وزجرها وضيق عليها الخناق . فثبتت

الفتاة وقاومت وأرادت أن تنتظر أيضاً . ولكن والدها وقد عيل صبره ،

هددها بالضرب والطرده ، فلم تستطع إلا أن تمثل لأمره وهى تجهش بالبكاء .

وزين الصيادون قواربهم بالمصابيح والأعلام احتفالاً بالعرس ،

وبرزت نساءهم وبناتهم فى أبهى الخلل ، وانسابت القوارب فى اتجاه

الشاطئ تهادى ، وعليها الرجال والنساء والأطفال يغنون ويهتفون .

وراق لنفر من الصيادين أصدقاء مارينو أن يغتوا بعض ألحانه .

ولكن أنطونيو وقد اضطرت فى صدره عوامل الحقد ولعبت برأسه نشوة

الزهو والنصر ، أبى فى يوم عرسه إلا أن يغنى الجميع ألحانه هو . فطفق

بيدر النقود على الصيادين ، فتألبوا عليه بقواربهم ، والتقطوا النقود وهم

يهللون وراحوا يغنون ألحانه الغثة الرخيصة ، وتيريزا تنظر إليهم نظرة ملؤها

الزراية والاحتقار ، وقد انقبض قلبها ، وانسحق حلمها ، وباتت أشبه

بفريسة خانيتها روح المجالدة والكفاح ، فوقعت فى شبكة الصياد خائفة

عاجزة متخبطة .

وارتفعت في الجحوا أغاني أنطونيو ، وشوهدت تفاهتها جمال البحر ، ولكن الصيادين المتكالبين على المال مضوا في إنشادها . فأدركت تيريزا أنهم قد باعوا أنفسهم بالمال مثلها ، فثار ثائرها ، وهمت بأن تصارحهم جميعاً باحتقارها وبغضها ، ثم تلتى بنفسها في البحر وتستريح . ولكن شبابها كان أقوى منها ، فخضعت لسلطانها ، وأسلمت نفسها لحكم القدر .

وكان من عادة الصيادين في تلك القرية الاحتفال بأعراسهم وفق تقليد خاص . فكان العريس يخرج إلى الشاطئ بعروسه قبيل موعد الإكليل ، ثم يهبط بها أحد القوارب ، ثم يطلب إليها أن تلتى بيدها الشبكة في البحر فإذا أصابت الشبكة عدداً وافراً من الأسماك كان حظ العروسين سعيداً ، وإلا فيجب أن يقضيا بعد الزواج أسبوعاً كاملاً في الصوم والصلاة كي يهبهما الله حياة موفقة وذرية صالحة وعمراً مديداً . فلما دنت هذه اللحظة المرتقبة ، تقدم أنطونيو ولوح بذراعه هاتفاً باسم تيريزا ، ثم التفت إلى أحد الأطفال الذين كانوا يحملون سلال الورد ، ورفع بين ذراعيه وقبله ، ثم اختطف من سلته وردة ألقى بها في الفضاء ، فسقطت في قارب كبير هو القارب الذي يجب أن يهبط إليه العروسان وتلقى منه تيريزا بالشبكة في البحر .

وتعالى الهتاف قاصفاً مدوياً ، ثم تلاه نشيد ديني رائع رددته الجميع على حين كان أنطونيو يأخذ بيد عروسه ، ويهبط بها إلى جوف القارب الكبير .

وأمسك أنطونيو بالشبكة ثم عانق تيريزا وهي متجهمة صامته ، ثم انحنى أمامها وسلمها مقبض الشبكة ، وصاح بها الصبيحة التقليدية وهو يتسم :

— كل كنوز البحر ملكك يا عروس البحر الساحرة !
فغالبت تيريزا عواطفها جهدها ، وضمت أصابعها على مقبض الشبكة

ثم طوحت بها بمنه ويسرة ثم أطلقها دفعة واحدة ، وألقت بها في البحر :
وسكنت حركة الصيادين ، وهدأ رقص القوارب ، واحتبست الأنفاس
واشرأبت الأعناق ، وشاع في الجو صمت زافر عميق .

وانحنت تيريزا وجعلت تجذب الشبكة بملء قواها ، ولكن الصيد في
جوفها كان ثقيلاً . فلم تستطع واستنجدت بعريسها ، فضج الجميع
بالهتاف ، وتزاحم الصيادون حول القارب وشرعوا يهتفون :

— صيد عظيم ! اجذب الشبكة يا أنطونيو ! ...

فشمر الشاب عن ساعديه ، وطفق يجذب الشبكة وهو يضحك ،
فقال القارب وأوشك أن يسقط بمن فيه . ولكن أنطونيو أسرع وانتزع الشبكة
في عنف وأتى بها في القارب . فصاح الصيادون يتبعونه النظر :

— الصيد للعروس ! .. لا تلمس الشبكة ...

فتقدمت تيريزا ، وحثت على ركبتها ، ولكنها لم تكد تمد يدها
المرتجفة وتطل برأسها لترى الصيد حتى انخلع قلبها ، واندلعت عيناها :
فتراجعت مأخوذة مسلووبة ، وظلت تمدق إلى الشبكة وقد جمد الدم في عروقها .

أبصرت حبيبها نفسه ، حبيبها مارينو ، جثة هامدة تتقلب بين

الحبال ، جاحظة العينين ، مصفرة الشفتين ، مضمومة اليد اليمنى على

كراسة كانت لا تفارق جيب الموسيقى وكان يدون فيها ألحانه ، ومضمومة

اليد اليسرى على رزمة من الأوراق المالية كانت هي المكافأة التي أعلن

عنها القبطان والتي فاز بها العاشق البطل على غير جدوى !

عندئذ ، تاه فكر تيريزا ، وسحقها الرعب واليأس . فصرخت من

أعماق قلبها المنفطر :

— مات مارينو من أجلى ! ... مات من أجلى !

وتحولت صوب والدها وصاحت :

— هذا العرس لن يتم . لن أكون أبداً زوجة أنطونيو !

فبهت الصيادون ، وذهل الفلاح الأجير لحظة . ثم عصفت به نوبة

غضب هائلة ، فانقض على ابنته ، وأمسك بها من ذراعها ، وجذبها من القارب وهو يصرخ :

— يجب أن يتم الإكليل . الكهنة في انتظارنا ولا بد أن نذهب إلى الكنيسة .

فتملصت الفتاة من والدها جهدها ، فأحتمه عصيانها . فتمكن منها ، وأبى إلا أن يهبط بها من القارب عنوة . فجن جنوبها وغافلته وهو يهدر ، واستجمعت قواها ، وحاولت أن تلتقي بنفسها في البحر . ولكن أنطونيو أسرع إليها ، واحتواها بين ذراعيه ، وطفق يقبل يديها ، ويلثم أطراف ثوبها ، ويوشك أن يخبثو عند قدميها وهو يصيح :

— لن أجبرك على ما تكرهين يا تيريزا !

فهدأت ثورة الفتاة وتطلعت إليه . فطوقها بذراعه ثم رفع رأسه ونظر إلى الجمع المحتشد ، وقال في صوت ثابت واضح جهير :

— لقد مات مارينو بسببي . ومادمت أنا المسئول عن موته فيجب أن أكفر عن ذنبي بأن أبعثه من جديد إلى عالم الأحياء . إنه موسيقى نابغ ، أما أنا فملحن شائع غير موهوب . ولكني رجل ثرى ، وفي وسعي أن أستخدم مالى لإنقاذ عبقرية صديقي ، وإذاعة اسمه ، ونشر ألحانه ، وتخليد ذكراه .

وانحنى على الجثة ، وانتزع الكراسية الكبيرة التي كان يدون فيها مارينو ألحانه ، واستطرد متجهاً نحو الفتاة :

— إسمعى ... إسمعى يا تيريزا ... أنت تحبين مارينو . ولكن أية قيمة لحب عقيم لا يخدم الذكرى . لقد كنت صادقة الحب والوفاء ، فأقبليني زوجاً لك ، أعاونك بقلبي وحيي وندمى ومالى على إحياء ذكرى فقيدنا النابغة الشهيد . الكلمة الآن لك ، وسواء أقبلتني زوجاً أم نبذتني ، فأنا لن أحنث بيمينى ، ولن أعيش إلا لتخليد عبقرية مارينو !

فأجفلت الفتاة ولم تصدق سمعها . وتحولت إلى أنطونيو مبهوطة مأخوذة.

فألفنه وقد أضفت عليه لأول مرة مشاعر النخوة والشهامة والرجولة حلة رائعة من النبيل والشرف ، يبسط إليها يديه مستجدياً ، وينظر إليها نظرات ملؤها الحب والحنان والتعديس . فتأملته لحظة ، وأيقنت من صدقه . فارتمت عليه فجأة وبكت . فأطلق أنطونيو صرخة فرح مدوية ، وتلقى الفتاة بين ذراعيه .

وهمتف الصيادون مهللين . فلم يمهل أنطونيو ، وأمرهم بأن يغنوا جميعاً لحناً معيناً من روائع ألحان مارينو .
وانطلق هو يغنى وتبعه الصيادون . فجاشت نفس تيريزا ، وصاحبهم في الغناء هي أيضاً ، وقلبيها يتفطر سعادة ودمعها يسيل ...

obeykandl.com

جوستاف فلوبر
أو

بين اللبس والحرية



جوستاف فلوبيير هو القصصى الفرنسى الكبير مؤلف «سلا مبو» و «التربىة العاطففة» و «مدام بوفارى» تلك القصة الئى تعد أثراً خالداً من آثار الأدب الإنسانى الواقعى .

كان فلوبيير رجلا يقدر منه ، وىعش من أجله ، ولا ىعتقد أن فى العالم فتنة بالغة ما بلغت من الروعة ىمكن أن تصرفه عن هذا الفن . كان رجلا مصاباً بشبه لوثة ، ىحب العزلة وىكلف بالتأمل وىنفر من الناس ، وىقضى سحابة يومه فى داره ىطالع وىكتب ثم ىتاو على نفسه ما كتب بصوت جهور ىملأ قلبه غبطة وفرحاً .

كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن خىال الفنان هو كل شىء ، وأن الحىاة بأسرها قد جمعت فى خىاله المتقد ، وأن الطبىعة قد حشدت فى ذهنه الخارق من الأشكال والألوان والظلال ما ىغنىه عن المرأة وعن التطلع إلى أى حافز عاطفى .

فالحافز عند فلوبيير كان العمل لا المرأة . ولذا فقد كان ىعمل الساعات الطوال ، وىظل بالعبارة الواحدة ىصقلها وىنحتها حتى تخرج مصقولة كاملة ، أبداعها ىد صائغ فد .

وكان فى نظره إلى المرأة ىقتدى بالروائى العبرى «بلزاك» ، ولا ىفتأ ىردد مثله : «إن أجمل بدن لأجمل امرأة لا ىساوى سطرراً واحداً ىخطه قلمى . . .»

وكان فلوبيير سعیداً كل السعادة بهذا الإیمان ، لا ىتوق فى الحىاة إلى أفة لذة ، ولا ىسعى إلى أى نعم ، ولا ىنزغ إلى أى ترف مادى ، ولا ىطلب من الدنيا أكثر من حىاة متواضعة ىستطیع أن ىستخدمها خىاله لإبداع روائع الأعمال الئى ىزخر بها عقله . ولطالما نصح له أصدقاءه بالزواج . ولكنه كان ىكره أن تسلب منه المرأة ولو جزءاً من

وقته ، وأن تهبط به فتعكر مجرى حياته ، وتفسد جمال وحدتها ، وتملؤها
صخباً وضجة وعبثاً .

ومع ذلك فقد كان فلوبير رجلاً قوى البنية ، مديد القامة ، مفتول
العضل ، جم الحيوية ، يحس من نفسه في أحيان كثيرة رغبة عنيفة في
المرأة . فيتألم في صبر ، ويجاهد في صمت ، ويكبح جماح أهوائه ويلجأ
إلى « البرومور » يقر به الهدوء في حواسه وأعصابه .

وشاء القدر أن يحب هذا الرجل حباً مبرحاً لم يكن في حساباته أبداً .
أولع بسيدة تدعى « لويزكوليه » مديدة القامة مثله ، عريضة
الكتفين ، ناهدة الصدر ، ممتلئة صحة وجمالاً وحياة .

كانت أدبية ، وكانت تعجب بأعماله وتفهمها وتناقشه فيها .
وكانت إلى ذلك ملكة من ملكات الصالونات ، ذات سحر أنثوي
خلاب مقرون بموهبة شعرية نامية ، فأحبها فلوبير ، وخيل إليه أنها
الإلهام والوحى ، وفكر في لحظة من اللحظات أن يتخذ منها زوجة له .
وتوثقت بينهما الصلات . فكانت تكتب إليه رسائل شائقة ، وكان
يُبعث إليها برسائل يتجلى فيها صراعه النفسى العنيف ، ذلك الصراع
الذى قام بين حبه لفنه وإخلاصه له وتفانيه فيه ، وبين حبه تلك المرأة
وهيامه بها وخوفه الشديد من أن يطغى عليه حبه فيفقده حب العمل في
هدأة العزلة والتأمل والتفكير .

ومع ذلك فقد نسي كل شيء في سبيل لويزكوليه .
انطلق من محبسه وشرع يفتنى خطواتها . أهمل فنه وجعل يغشى
الصالونات ليراها . تبرم بكتابة القصص ومضى يكتب لحبيبته رسائل
الغرام .

ولما ازدادت علاقتهما توثقاً ، اتقد الحب في صدر فلوبير وعصف
به الشيطان ، الشيطان الجاثم في نفس كل عاشق مفتون ، شيطان القلق
والتوجس والشك والغيرة . فكان يغار على المرأة من أقاربها ، من أصدقائها

من رهط الأدباء والفنانين المعجبين بها . بل لقد ذهب في غيرته المحبولة الجامعة إلى حد أنه حرم عليها الاتصال بطائفة معينة من الأصحاب ، وحرم عليها الخروج من بيتها إلا بإذنه ، وحرم عليها ارتداء الفساتين الصارحة الألوان والظهور بأثواب تكشف عن الصدر والذراعين وتغرى بها الرجال .

واستفحلت غيرته ، واشتد جبروته ، وبات بين الحب والغيرة شبه مجذوب . فروعت لوزيركوليه ، وضاحت ذرعاً بغيرته ، ولم يعد في مقدورها أن تحتمل وتصبر . فابتعدت عنه أياماً ثم بعثت إليه بالرسالة التالية :

« لماذا تغار على بهذا العنف ؟ . . . »

أجنون أنت يا رجل ؟ . . أتظن أن في وسعك أن تحرمني من التمتع برؤية الناس ، والاتصال بهم ، والتحدث إليهم في المجتمعات والصالونات ؟ . . كيف يمكن أن توفق بين أفكارك السامية ومبادئك الحرة ، وبين هذه الغيرة الطائشة التي تلاحقني بها ، وتحاول أن توقعها على كحكهم الإعدام ؟ !

أنا لا أفهم الحب على هذه الصورة ، ولا أستطيع أن أتصور السعادة في صحبة رجل إلا إذا كان صدرى عامراً بالكرامة ، ونفسي زاخرة قبل كل شيء بنعمة الحرية .

الحرية عندي فوق الحب ، والكبرياء فوق السعادة ، واحترام النفس وتقدير الشخصية فوق كل متعة وكل نعيم .

وإني لأسألك أية قيمة للحب بدون ثقة ، وأية قيمة للقبلة بدون إيمان ، وأية قيمة للهبية الروحية والجسمانية الكاملة إن لم تقترن براحة في النفس ، وسلامة في النية ، وبراعة في الفكر والقلب والضمير ؟ . . . أن الثقة المتبادلة هي التي تولد الراحة . ولا ثقة بدون خبرة ، ولا خبرة بدون معرفة . وإقد عرفنتني وخبرتنني ، ونفذت بعقلك الثاقب إلى أعماق نفسي . فكيف تريد اليوم أن تستعبدني ، وكيف يطاوعك ضميرك على أن تجعل مني ، أنا المرأة التي تزعم أنك تحبها ،

مخلوقاً لا شخصية له ولا كرامة ولا إحساس ؟ ! .
 إنك بغيرتك المجنونة تنزل عن عرشك ، وتحط من قدرك ، وتجرد
 نفسك من كبرياء الرجولة التي من أجلها أحبتك ! .
 والحق أنك بهذه الغيرة تعلمني الحبث ، وتدفعني إلى الكذب ،
 وتسوقني إلى الدهاء ، وتزين لي أن أهدعك انتقاماً منك وجزاء لك على
 عدم الثقة بي .

فهل يرضيك أن تنتهي علاقتنا هذه النهاية ؟ ... هل يرضيك أن
 تذلي وتمتھني ، أنا التي كنت أصعبو إلى الحرية على يدك ، وإلى التفوق
 في ظلك ، وإلى السمو الروحاني والفكرى أستمدده من نبوغك وعبقريتك ؟ !
 لا ... لا تجردني من ثوب كرامتي . لا تنتزعني من مقدس كبريائي .
 لا تنتهك بغيرتك الطائشة حرمة نفسي .

فتب إلى رشذك واهداً . اكبح جماح غيرتك وفكر . كن ماشئت
 ولكن لا تهور . اقتلني ولكن لا تهمني في شرقي ، فإنه لأحب إلى أن
 أموت مرفوعة الرأس عزيزة النفس مكفولة الكرامة من أن أعيش يرمقني
 الناس بالنظر الشزر ، ويجلني من أحب بشبهة الخزي والعار .

ففكر طويلاً وتأمل . إما أن تخنق غيرتك وإما أن تتركني . إما أن
 تثق بي ، وإما أن تنصرف عني . إما أن تحترمني وإما أن تفقدني !
 وينبغي أن تفهم يا أعز الناس عندي ، أن المرأة لا تحب الرجل
 بقدر غيرته عليها ، بل تحبه بقدر إخلاصه لها ، واحترامه إياها ،
 وتنزيهه قلبها ونفسها عن جميع الشبهات .

هكذا أريد أن تحبني . فإن طاوعتني فأنا لك ، وإن أودعت الثقة في
 نفسك ونفسي ، فأنا متأهبة للزواج بك منذ الغد ، وإلا فليس في
 مقدوري إلا أن أقول لك والحسرة تملأ نفسي كلمة واحدة هي : الوداع
 الوداع إلى الأبد يا حبيبي . «

وانخلع قلب فلوبيير بعد أن طالع هذه الرسالة . هاله أن يفقد

المرأة كما هاله أن يظل فريسة لمتعة الحب والغيرة؛ لمتعة الفرح والألم؛ لمتعة النعيم الذي يعقبه نى هوس الغيرة جحيم . فالتمس إلى المرأة أن تصفح واستسلم لها مكرهاً ، بل نزل على حكمها صاغراً ، وكف عن غيرته ووثق فيها وآمن بصدق إخلاصها وولائها .
وعندئذ تبدلت المرأة نفسها . . .

لم تكاد تشعر أن الرجل قد استلان لها ، ومكنها من قلبه ومشاعره ، حتى ارتدت إلى غريزتها النسوية الغاشمة .

أصبحت هى التى تغار نى عنف على حبيبها ، وهى التى تضيق عليه الخناق ، وهى التى تحرم عليه استقبال أية امرأة فى بيته ، وهى التى تنتشى خيلاء وعجباً كلما أحست بسلطانها واستوثقت من تأثيره العميق . وأرادت أن تستأثر بالرجل ، أن تتحكم فيه ، أن تحوزه الحياة التامة وتخضعه وتطويه . فاختبل الرجل أول الأمر . فقد حكمه على نفسه . تشبث بالمرأة جهده . فأحدقت به ، وضربت الحصار حوله ، وأغرقتة فى لجة من الحب كان يجب فيها وهو تائه ومذهول .
بيد أنها كانت لا تفكر ولا تشعر ولا ترى . لا ترى مبلغ العذاب الذى يعانيه فلوبير .

استسلمت لأنوثتها وأسرفت نى السيطرة على الرجل كى تبقية لها وحدها وتحفظ أبدأ به وتجعل منه متاعها . فاستفاق فلوبير بغتة ، وحدق إلى المرأة وارتعد . . .

أبصرها مخلوقاً نصفه ملك ونصفه وحش ، وأبصر نفسه إنساناً مستعبداً ، مسلوب الكرامة والحرية ، ضائعاً شريداً متخبطاً ، موزعاً بين الكسل والهوى ، بين النشوة والهمود ، بين الشهوة والاشمئزاز ، بين المتعة والعدم . ثم تلفت حوله وارتمى على مكتبه ، وجعل يقلب نى أوراقه . فتبين له أن ما كتبه نى تلك الفترة كان غثاً ، وما اعتقد أنه طريف كان شائعاً . فثار ثأره . خشى أن تصيبه المرأة بعقم مروع نى ملكاته ومواهبه

فلم يحتمل . عزت عليه نفسه . كبر عليه أن تخنق هذه الأنثى الدخيلة
المستبدة عبقريته . فاستجمع قواه وصد عنها . تذرع بشئ الوسائل وفر
منها ، ثم أغلق بابه في وجهها آخر الأمر وأبى أن يستقبلها . فاستهولت
قسوته وجفاءه ، وأحقتها منه أن يطعمها في كبرها وفي صميم أنوثتها وأن
تغدو هي المهزومة بعد أن كانت هي الظافرة . فراحت تغتابه في المحافل
العامة ، وتعرض به ، وتسخر من أعماله الأدبية ، وتأمل - ولذة الحقد
والانتقام تهشها - أن يضعف الرجل ، وتفتر إرادته ، ويكل عزمه ،
ويرتد من تلقاء نفسه إليها .

بيد أن فلوبيو ظل في ثباته راسخ العزم قوياً . فتاه عقل المرأة وبرز
بها الحق ولم تردد .

غافلت ذات مساء واقتحمت داره ودخلت عليه وهو يكتب . فما
إن رآها حتى رأى فيها صورة الآدمي الوحش الذي أوشك أن يفترسه .
فأهاب بها أن تنصرف فلم تتحرك . ففقد بغتة صوابه ، وانقض عليها ،
ومد ذراعه وأطلق أصابعه كأنها المنجالب وكاد أن يخنقها .

وفي تلك اللحظة أدركت المرأة أنه قد بات يكرهها وأن كل شيء
بيئها قد انتهى . فحنت رأسها مقهورة وذليلة ، وضمت معطفها على
ثوبها الحريري الأحمر ذي الصدر المكشوف ، وأرسلت نفسها مستطيلاً
يشبه الأئين وخرجت .

وإذ ذاك : إذ ذاك فقط ، تنفس فلوبيو الصعداء : وأسرع وتناول
جرعة من « البرومور » ، ثم ارتقى على مكتبه ، وشرع يكتب وهو يردد
عبارة المشهورة « الإنسان لا شيء . العمل الفني هو كل شيء ! ... »

obeykandl.com



ماريا بتروف
أو

عقبك تریکے اُسے



« وقعت هذه الحادثة الغربية في عهد التقيصر إسكندر الثاني ، وكانت حديث روسيا كلها . وقد أشار إليها المؤرخ الفرنسي جاك موران في كتابه عن حياة الثمنين الروس في عهد القيصرية » .

• • •

كانت الريح تزار ، والرعد يقصف ، وميض البرق ينخطف
الأبصار ، ومدينة بطرسبرج منكشمة وهامدة ، ينهمر عليها المطر
كسيل ليس له من نهاية .
وكان المستشفى الكبير الواقع في إحدى ضواحيها ، منطوياً هو
الآخر على نفسه ، جاثماً فوق ربوة عالية تهزه الريح ، ويضربه المطر
من كل صوب .

وكان في إحدى حجراته شاب جميل الصورة ، أسود الشعر ،
واسع العينين ، ملتهب الوجنتين ، ممدداً على فراشه ، ينظر من نافذة
صغيرة إلى السماء المكفهرة ، ويعض شفتيه ويتلوى ، ويوشك أن يصرخ
ويبكي من فرط الألم .

وأجال الطرف حوله ، وهم بأن يدق الجرس ويدعو الممرضة
لإسعافه . ولكنه هز رأسه يائساً متحسراً ، وآثر أن يتحمل الألم متجلداً ،
ولا يزعج في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل أى إنسان .
اختلج بغتة . أرقه جهد المقاومة والاحتمال . فلم يستطع أن يكبح
ألمه ، وانفجرت الدموع من عينيه .

ظل يبكي وفكره عالق بدائه ، حتى زابله نوبة المرض فأرسل زفرة
ثم انكفاً على نفسه ، خائر الأعصاب ، محطم القوى .
ولبت مستغرقاً في نشوة الراحة لحظة ، ثم فتح عينيه . سرح البصر
في الغرفة . مد ذراعه في رفق ، ودسها تحت وسادته ، وانتزع صورة

صغيرة ما كاد يتأملها حتى أشرق وجهه ، وأبرقت أساريره ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة عذبة قريرة هائلة .

وكانت الصورة لفتاة رائعة الجمال ، ذات شعر متهدل غزير ، وعينين مرحتين صاحكتين ، وجبهة عريضة ساطعة وفم صغير نائىء تلمع ثناياه البراقة ، ويشبه ثمرة شبيهة أو زهرة متفتحة .

وظفق الشاب ينظر إلى الصورة ويرتجف .

وغلبته عواطفه ، فقبل الصورة قبله طويلة محمومة ، ثم أجهش ثانية بالبكاء .

أين هي ؟ . . أين سونيا الفتاة التى سلبت لبه ، وغزت قلبه ، وأيقظت عقله ، وأحالته بين عشية وضحاها من إنسان خامل مغمور إلى موسيقى نابغ مبدع يشار إليه بالبنان ؟ . . أين المغنية العظيمة والفنانة الموهوبة والمرأة التى فى مقدورها أن تهبه القوة والشفاء والحياة .

أجل . . إنها فى خياله ، فى حلمه ، فى عمق أعماق نفسه ، ولكنه يريد أن يراها ، يريد أن يلمسها ، يريد أن يودعها ، يريد أن يتوسل إليها أن تمنحه بيدها المعبودة الراحة الكاملة والشفاء الأبدى . .

وانجباب طيفها بعض الشيء عن ذهنه ، ومثل أمامه طيف أمه العجوز . فتمزق قلبه شفقة ولوعة . ولكنه ما إن تذكر مرضه ، وفكر فى حالته ، ونظر إلى بدنه الواهن الحائر الهزيل ، حتى عاودته شجاعته ، فهتف من أعماق نفسه وهو ينتفض : كن رجلا يا فيدور . تفوق على ضعفك . تفوق على جيبك . احتقر الحياة وانبذها فهى سلسلة آلام قاسية لا جدوى لك من احتمالها ما دام الموت المحتم يكمن خلفها . ويقف لك بالمرصاد ! . .

ولم يروعه شبح الموت . بل روعه شعور الخوف . خاف أن ترفض سونيا ما سوف يلمس منها أن تقوم به . . . خاف أن تمتنع عن زيارته .

خاف أن تضعف وتحجم وتستخذى وتتركه فريسة هذا الألم الذى لا يطاق .
وتحامل على نفسه ، ونهض من فراشه . دنا من النافذة وطفق يحدق
إلى السماء الخالكة ، والمطر المتهمر ، والحليد المتساقط على الربوة العالية ،
والنور الخافت المنبعث من محطة الضاحية ، والمراقص عن بعد كبصيص
من الأمل المشود .

وفجأة . هلع قلبه واتقدت عيناه ، إذ طرقت سمعه صوت زحافة
صغيرة يصهل جوادها . فاستجمع مدخر قوته ، وأتجه بخطى وثيدة
صوب الباب ، وهم بأن يفتحه . وعندئذ ترائى إليه الصوت الساحر
الذى يجلجل كأجراس العيد ، فلم يصدق سمعه ، وأوشك من فرط
الفرح أن يهوى على الأرض . ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة ودخلت
منه المريضة مصحوبة بأمه العجوز وسونيا .

وأخذ الفرع بمخنته . فاستند إلى حافة السرير ثم أسرع فتسدد
عليه خشية أن تفاجئه نوبة المرض فتصرعه وتحول بينه وبين توديع
سونيا . غير أن النوبة لم ترحمه بل اشتدت بغتة عليه وأشاعت التشنج
فى أعضائه . فأخذ يصرخ ويتأوى ويجار ، وسونيا تضمه فى جنون
إلى صدرها ، وأمهم العجوز تولول وتندب حظه وحظها ، والمريضة
الملهوفة تسرع إلى نجدته بحقنة من المسكن الذى أشار به الطبيب .

ولم تستطع الأم رؤية ابنها يتعذب على هذه الصورة . فانهارت قواها .
فنقلها إلى غرفة بعيدة ، وأبوا إلا أن تظل فترة طويلة بمعزل عن ابنها ،
وتركوا سونيا فى حجرة المريض تفرج عنه ، وتسعفه ، وتقضى الليل
بجواره .

• • •

وفتح فيدور عينيه المتقرحتين ، ونظر إلى سونيا وعمهم :

— أين أمى ؟ . . .

فأجابت :

— إنها تستريح في الغرفة الخجورة .
 فاستوى المريض على فراشه ، وحدث في الفتاة المعبودة التي يعقد
 عليها كل أمل . ثم تناول يديها وقبّلهما في خشوع ، ثم استنهض ميت
 قوته . وقال في صوت هادئ غائر أجش : وهو يحضن الفتاة وهي تهدهده
 بين ذراعيها الرقيقتين كأنه طفلها : اصغى إلى جيداً ياسونيا . لولاك
 ما كنت شيئاً مذكوراً . أنت التي قدرتي ، ورفعتني ، وغنيت بصوتك
 الساحر ألحاني فغننتها معك روسيا بأسرها . لقد بعثني من الظلمة إلى
 النور ، من ظلمة الجمول إلى نور المجد ، من ظلمة القلب إلى ضياء
 الروح ! . . لقد منحتني نعمتين العظيمتين اللتين يهبك عليهما الناس :
 المجد والحب ، فأصبحت بفضلك إنساناً يحالفه القدر وتحسده الآلهة . . .
 ولكن القدر يا معبودتي لا يحالف إلا ليغدر ، والآلهة لا تعطى إلا لتأخذ .
 ولقد أبت تلك الآلهة إلا أن تأخذ مني فجأة كل شيء وتحرمي من كل
 شيء . لن أستطيع أن أتزوج . ليس في وسع القدر أن يبدل حكمه وأن
 يهبك لي ويهبني لك . . . يجب ، يجب أن تموت سعادتنا قبل أن تولد ،
 ويجب أن تموت عبقريتي قبل أن تنمو وتؤتي ثمارها . ذلك هو الحكم
 المرصود لي !

فصاحت سونيا وشعرها الغزير يطوقه ، وعيناها المرحتان تفيضان
 بالثقة والأمل : ولكنك ستشفي . لا بد أن تشفي ، ولا بد أن أمثل الدور
 الأول في مسرحيتك الغنائية التي تم إعدادها ، ولا بد أن أكلل هامتك
 بالنصر .

وأردفت وهي تبسم لترفه عنه :

— كنت أراجع دوري بالأمس مع والدتك . لم تنس تلك المرأة
 الطيبة أنها كانت هي الأخرى ممثلة ومغنية شهيرة . أوكد لك أن صوتها
 ما يزال بديعاً . لقد اختطفت مني الكراسة ، وشرعت تمثل وتغني دوري ،

وتمدنى بالنصائح والإرشادات ، وتؤدى الحانك فى رقة وحرارة وحماسة
أدهشتنى . إنها فنانة بالفطرة وإولا شيخوختها لنصحتها بالعودة إلى أضواء
المسرح !

فتمم فيدور :

— لقد أصبحت أى هيكل الفن العظمى . أما أنت ياسونيا فروحه

ولحمه ودمه !

وأناد لحظة ثم رفع إليها بصره الحاد ، وقال فى صوت عميق وهو
يواجه عينيه المرحتين :

— وأما أنا ، أنا الذى كنت أثق فى نفسى ، وفى حظى ، وفى نجمى ،
وأنظر إلى المستقبل بعين الفاتح الظافر ، فقد انهارت كل أحلامى
يا سونيا ، وقضى على القضاء المبرم .

فارتعشت الفتاة ، وحمقت فيه مستفسرة . فقبض على يدها وصرخ
وقد اندلعت عيناه وشاع فى قسامته اليأس والذعر : لن أعيش يا سونيا .
الموت يتربص بى . الموت يرفرف على . الموت يطوينى منذ الآن بين
أجنحته وإن كنت لا أعرف ساعى ولا اللحظة التى سألفظ فيها النفس
الأخير !

وانحنى عليها وهمس فى أذنها وهو يختلج : أتعلمين ما هو اسم
المرض الذى أشكو منه والذى اتفق فى تشخيصه جميع أطباء المستشفى؟ ..
أنه السرطان . . . أجل أنا مصاب به . مصاب فى معدتى ، ومن الجمال
أن أشفى . . . وسواء أأجريت لى عملية جراحية أم عولجت بالعقاقير ،
فوتى محتم ياسونيا ولن أخرج من هنا إلا إلى مثواى الأخير .

فجحظت عينا الفتاة ذهولا ورعباً وحاولت أن تتكلم . ولكن فيدور
استطرد صارخاً : الموت لا يخيفنى ولكنى لا أريد أن أتالم . . . لا يمكنك
أن تتصورى الألم الذى أعانيه . إنه ألم ممزق ساحق فظيع . أية فائدة من
تحمل هذا الألم ما دام الموت هو القدر المحتوم . لو انى كنت واثقاً من

شفائى ، ولو بعض الثقة : لرحبت بأقصى الآلام عن طيب خاطر
 وكنت سعيداً . ولكنى يائس من الشفاء ، وجاهل بالساعة التى سيهبط
 فيها الموت على . فأنا لا أريد أن أظل فريسة لهذا الأُم المروع حتى
 أموت . كلا . . . لا أريد أن أصبر عبثاً ولا أريد أن أحتمل عبثاً . . .
 لهذا كتبت إليك ودعوتك . . . دعوتك وحدك . . . ما كان يجب أن
 تصحبى أمى يا سونيا . كان عليك أن تأتى بمفردك . ولكنى أشكر الله
 وأحمده لأنها ليست بيننا . . . فاصنى إلى الآن يا سونيا ولا تضعنى . . .
 شجاعينى ولا تخذلينى . اخننى الحب والرحمة فى قلبك وساعدينى ، بل
 انصتى لصوت العقل واعلمى أن الحب والرحمة يقضيان عليك بأن
 تعجلى بمرتى وتنقذينى !

وحدق إليها تحديقاً ثابتاً ، وأردف :

— هل جئت بالحقيبة الصغيرة التى طلبتها منك ؟

فتلفتت سونيا حولها كمخبولة ، وأومأت بأصبعها إلى الحقيبة التى
 كانت قد ألقت بها فى إحدى زوايا الغرفة عندما دخلت . ثم أشرق ذهنها
 بغتة ، فاندفعت ، واختطفت الحقيبة ، وصرخت :

— إن مفتاحها معك . إنها ثقيلة . ماذا يوجد بداخلها ؟ . . . أجبينى
 وإلا فلن أسلمك إياها أبداً .

فهتف فيدور من أعماق قلبه :

— الرحمة يا سونيا . لقد شاهدت عذابى ، فإذا كنت حقاً تحبيننى
 فلا تعترضى طريق خلاصى .

فضمت الفتاة الحقيبة إلى صدرها وتمتمت وهى تزفر :

— أبداً . . . هذا محال . . . إن مسدسك فى هذه الحقيبة ولا ريب

لن أعطيك إياها مهما توصلت . . . لن أقتلك بيدي ا

فصاح فيدور :

— احذرى فقد يفوت الوقت وقد تستفيق أمى أو قد تدخل الغرفة

إحدى المرضيات . . . إعطاني الحقيبة إذا كنت حقاً تحبيني .

فردت وهي تهدر :

— أبدأ .

فقال بصوت حازم قاطع وهو يقطب حاجبيه :

— إذن فسأنتحر بأى شئ . . . بأية وسيلة . . . سأنتحر بعد رحيلك

وسأموت وأنا أكرهك !

فانخلع قلب سونيا ، وارتجت على السرير ، وقالت ملتزمة متضرعة

وهي تنفجر بالبكاء :

— ارحم نفسك وارحمنى . هذا فوق طاقتى ، بل فوق طاقة البشر .

أنت فى مستقبل عمرك ومن المحتمل أن تشفى . فنب إلى رشذك ولا تيأس .

فأشار بيده نحو الباب وقال وهو يرتعش :

— اخرجى .

وفاض سخطه واستنكاره وحنقه ، فناء عليه المرض . أصابته نوبة

مفاجئة طاغية ، فعض أسنانه على منديله ، وأمسك بطنه بيديه ، ومضى

يئن ويتأوى ، ثم طفق يصرخ ويستغيث ، وهو محتمن الوجه ، زائف

العينين ، مغفور الفم ، شبه معتوه فندلت سونيا ، وملكها الرعب .

وإذ ذلك دخلت الأم العجوز متهافئة ومدعورة وفى صحبتها الطبيب

وبعض المرضيات . دخلت متوكئة على عصاً ، وصاحت وهي تضرب

صدرها بقبضتها وتبكي :

— فيدور . . . ولدى . . .

وأحاط الجميع بالشاب ، وحاولوا أن يسعفوه . ولكن النوبة كانت

ساحقة ، والمقاومة شديدة وبائسة . أما سونيا فلم تكذب تخلو بالطبيب ،

وتضيق عليه الحناق ، وتستوثق منه أن فيدور مصاب حقاً بذلك الداء

المروع ، حتى هاذا عذاب حبيبها ، وهجس فى روعها أن ترك له

الحقيبة كى ينقذ نفسه ويستريح . ولكن الأم العجوز التى اعتقدت أن

في الحقيبة فطائر وحلوى صنعتها سونيا لفيدور ، تحولت صوب الفتاة واختلطت منها الحقيبة وطلبت إليها أن تفتحها . فارتعدت فرائص سونيا خشية أن تبصر الأم المسدس ، ونظرت إلى فيدور . نظرت إليه وهو يجأر ويبيكى ، فتقطع فؤادها ، ولم تطق أن تراه يتعذب عذاباً فوق طاقة إنسان . فدنت منه وهي في شبه لوتة وهمست :

— أعطنى المفتاح . . .

فناولها إياه ملهوفاً . فأسرعت واسرّدت الحقيبة من الأم العجوز ، وفتحتها وانتزعت منها المسدس . وعندئذ أبصرت فيدور وقد حطمته النوبة ، مرتجياً على الفراش ، أصفر الوجه ، مغمض العينين ، مضموم الشفتين ، مستنزف القوى ، صريعاً صرعة لا بد أن تعقبها صرعات وآلام . فتاه عقلها ، ومزقها الحب بل مزقتها الشفقة . فلم تتردد . وفي مثل لمح الطرف رفعت ذراعها وأطلقت النار .

فصرخت الأم العجوز وهي ترمى عليها وتنشب فيها أظافرها :

— قتلت ولدى !

فصاحت سونيا :

— قتلته لأنى أحبه . . . أحبته أكثر من حياتى وأكثر منك أنت

أمه !

وخارت قواها فسقطت على مقعد مغشياً عليها .

° ° °

وقبض على سونيا ، وأودعت السجن ، ثم بدأت محاكمتها . وكانت مشاعر الأم العجوز قد تبدلت خلال هذه الفترة تبدلاتاً . أدركت وهي ترى الخطر الذى يهدد حياة الفتاة ، أن سونيا لم تقتل فيدور إلا بدافع من الحب والرحمة ، وأنها بهذه الجريمة الصادرة عن القلب والعاطفة قد غامرت بشبابها وفنها ومستقبلها وحياتها كى تنقذ فيدور من آلام مبرحة وحياة شقية كان هو نفسه يتوق ويسعى إلى الخلاص منها .

وذكرت عذاب ولدها ، واستشعرت الراحة الأبدية التي أنقذته بفضل سونيا . فزايئها حقدتها على الفتاة ، وأحست على دهش منها أن ابنها لم يموت ، وأنه حي بروحه وفنه في شخص سونيا . فأحبتها أضعاف ما كانت تحب وحيدها ، وهالها أن تفقدتها هي أيضاً ، فاستجمعت كل قوى حسرتها ولوعتها وحبها ، وآلت على نفسها أن تبذل المستحيل لتنقذ سونيا .

ونوديت لنأدية شهادتها . فلما مثلت أمام المحكمة أذهلت القضاة بالموقف العجيب الذي وقفته . لم تحمل على الفتاة ، بل دافعت عنها ، والتمست لها الرحمة ، ومضت تقول وتصرخ إنها هي أم القتييل تفهم نفس القتائلة ، وسلامة نيتها ، وتصفح عنها من صميم أمومتها ومن أعماق عذابها .

وبهت القضاة ، واكنهم لم يتأثروا . روعتهم الرحمة في مثل هذا الموقف خشية أن تعتبر سابقة مشجعة . فاتهموا سونيا بالقتل العمد مع سبق الإصرار وأدانوها وحكموا عليها بالإعدام . ووقع الحكم على الأم العجوز وقع الصاعقة . أحست أنها على وشك أن تفقد كل شيء ، روح ابنها ، ومجده ، وجهاده ، وآيات نبوغه الممثلة في فن سونيا ، فحزمت أمرها ، واعتزمت أن تذهب إلى القيصر نفسه ، وأن تلمس منه أن يضع الرحمة فوق العدل .

وكان أهم ما يشغل الأم فوق رغبتها الصادقة في إنقاذ حياة سونيا ، هو أن تخرج الفتاة أيضاً إلى النور كي تسترد جهاد فيدور ، وتؤكد نبوغه ، وتؤدي الدور الأول في المسرحية الغنائية الوحيدة التي كتبها قبل مرضه والتي أجل مدير المسرح تمثيلها بعد أن أتم إعدادها . وكانت الأم العجوز تعتقد اعتقاداً راسخاً ، اعتقاداً متعصباً عنيداً يشبه الإيمان ، أن هذه المسرحية كي تخلد اسم ابنها ، وتظهر في الحلة الفنية الخليقة بها ، وتحدث في نفوس الجماهير والنقاد الأثر المنشود

منها ، يجب أن تكون سونيا على رأسها ، تؤدي الدور الأول فيها ، وتبرز بسحر صوتها ، وفتنة أوضاعها ، ودقة تمثيلها ، كل ما حوته المسرحية من حقيقة وفن وجمال .

فهذه الغاية العظيمة المزدوجة : إتماذ حياة سونيا وتخليد ذكرى فيدور هي التي كانت تضطرم في نفس الأم العجوز ، وتلهب عزمها ، وتحفز إرادتها ، وتدفعها إلى التقدم بخطى ثابتة نحو البهو القسيح الذي كان فيه القيصر ينتظرها .

وكان يحكم روسيا في ذلك العهد ، أي في عام ١٨٦٢ ، القيصر إسكندر الثاني . وكان رجلاً واسع الذهن ، كبير القلب ، ألغى الرقيق وأعتق العبيد ، وحاول أن يستكمل رسالة بطرس الأكبر وأن يجلب إلى بلاده حضارة الغرب .

وكان يعرف الأم العجوز حق المعرفة ، ويذكرها أيام كانت مغنية شهيرة ، ومثلة ذائعة الصيت ، تحمل اسم روسيا وفيها في مختلف أقطار العالم المتمددين . فلما دخلت عليه ، رحب بها ، وقربها إليه ، وشرع يستمع لها .

وبذلت الأم العجوز من ماء قلبها وذهنها ، ما شاءت لها عزيمتها الراسخة ، وأملها العنيد ، وأوعتها الحارقة . ولكن القيصر لم يتحرك .

بكت وانتحبت وتوسلت ، ولكن القيصر لم يتأثر . جثت أمامه على الأرض ، وقبلت قدميه ، وبللتهما بالدموع ، ولكنه أشاح عنها بوجهه ولم يتكلم .

كان يستهول فكرة الرحمة بمجرمة تحدث مشيئة الله واستعجلت حكمه ، كما كان يستهول اعتراض القانون الذي ينص صراحة على أن القتال المتعمد يجب أن يقتل . فرفع رأسه فجأة ، وتأمل المرأة المسكينة وقال :
— ليس في مقدوري أن أخفف تلك العقوبة العادلة ياسيدتي .
كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك هو السماح لسونيا بأن تغادر السجن

وتظل حرة طليقة شهراً واحداً يمكنها في خلاله أن تمثل دورها في المسرحية التي كتبها ولدك . . . إنها مغنية وممثلة موهوبة . وأنا أفهم أن فيها الحارق سيعاون على إبراز الجوانب الرائعة من مسرحية موسيقى روسي نابغ . فمن أجل الفن وحده ، ومن أجل مجد ولدك ، وفي سبيل تخليد ذكراه ، أهبك هذه المنحة التي هي أقصى ما يمكن لحاكم في مثل هذا الموقف أن يعطيه . . . طاب يومك ياسيدتي .

ونقص القيصراً ، فهضت الأم العجوز ، ساهمة شاردة يسحقها أمل خائب ويحفظها أمل أخير ، وتبعث الجندی الذي أمره القيصر بأن يرافقها ، وذهبت في صحبته إلى السجن لتطلق سراح سونيا فترة الأجل المحدود .

بيد أنها ما كادت تدخل الحجرة الضيقة المظلمة وترى الفتاة حتى بهتت وذهلت وانهار أملها . . . أبصرت سونيا غائرة العينين ، شاحبة الوجنتين ، هزيلة وضعيفة وخائفة ، ترقد على فراش أشبه بمحففات الجرحى ، وقد تحطمت أعصابها وزايلها كل ما كان في شبابها الغض من قوة وحيوية ونشاط .

وتفطر فؤاد الأم العجوز حزناً عليها . فلما أنهت إليها رأى القيصر ، ابتسمت الفتاة ابتسامة ممزقة ، وأشارت إلى بدنها المضطجع ، وعز عليها ألا يكون في وسعها أن تخدم بنفسها ذكرى حبيبها . ثم اختلجت اختلاجاً عنيفاً ، وانفجرت من عينيها الدموع .

وخرجت الأم من السجن وقد عراها من فرط اليأس شبه خبال . . . أين تجد المغنية والممثلة العظيمة التي في وسعها أن تنقذ مسرحية ابنها ، وتضرم فيها شعلة الجمال والفن ؟ . . . المسرحية تنتظر من يخلقها ، وهي الآن هيكل في حاجة إلى روح . فمن أين تجيئها بالروح ، وكيف تنفث فيها الحياة ، وبأية وسيلة تبرزها إلى النور بحيث تتألق من خلالها عبقرية ابنها الذي لا يجب أن ينسى ، ولا يجب أن يموت ! . . .

واستعرضت في ذهنها جميع أسماء المغنيات اللامعات ولكنها رأت أن أقدرهن وأشهرهن أعجز من أن تؤدي الدور الكبير الذي كانت ستؤديه سونيا . فخشيت على المسرحية من السقوط ، بل خشيت أن تهمل إهمالاً نهائياً تضيع معه ذكرى ابنها . فارتعدت فرائصها ودب فيها جنون اليأس والحب ، ثم استحال هذا الجنون في عقلها إلى إرادة عاتية روعتها وفتنتها .

أجل ، قام في نفسها أن تنقذ هي مسرحية ابنها ! قام في نفسها ، وهي العجوز المشرفة على السبعين ، أن تغالب سنّها ، وتغالب ضعفها ، وتستعيد مجد شبابها ، وتمثل هي وتغني الدور العظيم الذي كانت ستقوم به سونيا .

وقصدت من فورها إدارة المسرح ، وصارحت المدير بعزمها . ثم عرضت عليه من مالها الخاص مبلغاً كبيراً يعوضه خسارته فيما لو قدر للمسرحية السقوط .

ونخيل إلى الرجل أنها جنت . ولكنها كانت مثال الإرادة والعقل ، فما زالت به تلتمس إليه ، وتلح عليه ، حتى قبل في النهاية مشروطاً عليها أن تعلن في الناس أنها هي التي نظمت الحفلة ، وهي التي جمعت أفراد الفرقة ، وهي وحدها المسئولة عن إخراج مسرحية ابنها .

وتم الاتفاق وأعلنت الصحف أن المغنية والممثلة القديمة العجوز « ماريا بتروف » ستقوم بالنور الأول في مسرحية « عذراء الربيع » التي وضعها ابنها الموسيقي « فيدور بتروف » وأنها ستحل محل الفنانة الشابة الموهوبة « سونيا إيفانوفنا » التي أحبت الموسيقى وقتلته . . .

واستغرب الجمهور هذا الحدث العجيب واستملحه ، فتزاحم على المسرح مدفوعاً بعامل الفضول ، فبيعت التذاكر كلها في يوم واحد . . . وبلغ القيصر النبأ ، وأدرك أن عذاب السجن قد أرهق سونيا وحال بينها وبين تأدية دورها ، فراق له أن يشهد الأم العجوز وهي تمثل دور

الشابة ، فحجز في المسرح ممتصورة دون أن يعلن عن شخصيته .
وجاءت الليلة المنتظرة ، وغص المسرح بالنظارة ، ورفع الستار .
وبدأ التمثيل .

وما إن ظهرت الأم العجوز ، مكحلة العينين ، مطلية الخدين ،
مخضبة الشعر ، تهادى وتخطر كأنها صبية في العشرين ، حتى تململ
الجمهور وانبعثت منه دمدمة واضحة أوشكت أن تطغى على صوت
المغنية . ولكنه سرعان ما هدأ وصمت ، واستمهل الأم العجوز
تفضلاً عليها . وامتدحاً لتقدرتها ، وإحراجاً لها .

ومضت « مارييا بتروف » نصطنع عواطف الشباب ، وتمثل وتغنى
لأول مرة منذ ثلاثين سنة . فاضطربت بالرغم منها ، وتعثرت ، وتلعثمت
ومازج الشذوذ أنغامها . فأهاب بها الجمهور فجأة أن تنبه ، فتضاعف
اضطرابها ، فقابلها على الفور بصفير التهكم والسخرية والاستهزاء .
وظل الجمهور يصنم وهي تمثل . وظل يضحك وهي تغنى .
وأحست المرأة التعسة أن الدوار يطوح بها ، وأن الفشل الذريع
يطوقها ، ويوشك أن يقضى في لحظة واحدة على حياتها وعلى فن ابنها .
فصارعت ضعفها جاهدة ، واتخذت من الضعف قوة ، وراحت تمثل
وتغنى في حماسة مشبوبة لم تعهدها في نفسها أبداً .

وفجأة ، لمع صوتها كالبرق ، وقصف كالرعد ، وهدر كال موج ،
ثم تمايل وتراقص وتثنى ، ثم ترقرق كالماء ، وانساب كالهواء ، وغمغم
كحفيف أوراق الشجر ، ثم تماسك وتدافع وتعالى ، وانتهى في المقطع
الأخير من الأغنية بصرخة يأس صادقة ممزقة تشبه قعقة الأخشاب في
ال نار . . . فذهل الجمهور وضج بالهتاف . ثم تعالت صيحاته المهللة ،
وظفق يلقى بطاقات الزهر على المسرح ، وهو يحيى العجوز النابغة ،
ويهتف باسمها واسم فيدور ! .

وأسدل الستار على الفصل الأخير وسط عاصفة من التهليل والهتاف

أثارت إعجاب وحماسة القيصر . فهض لفوره من مقصورته ، وكشف عن شخصه ، وطرق باب الممثلين ، ودخل مقصورة « ماريا بتروف » . وما إن رأت الأم العجوز القيصر نفسه يقبل عليها مهنتا حتى ارتمت عند قدميه وقبلت يده ، وصرخت من أعماق قلبها تنشد استكمال سعادتها وجهادها :

– لقد أنقذت أنا مجد ولدى ، فأنقذ أنت يامولاي سونيا !
فتأملها الرجل لحظة ، ثم أقبل عليها ومد ذراعه وأتهضها ثم حدق فيها طويلا ، ثم قال في صوت هادىء ثابت عميق ؛
– لقد قمت بعمل خارق يا ماريا ، ويجب أن أكافئك . لن تظل سونيا في السجن أكثر من خمس سنوات . . . هذه إرادتى !
فاحتنق صوت العجوز في صدرها من فرط الفرح وهوت على يد القيصر تقبلها وتغمرها بالدموع ، ثم تمالكت نفسها ، وخرجت مسرعة ، وشقت زحمة الجماهير ، وانطلقت إلى السجن تحمل إلى سونيا البشرى .

obeykandi.com

مأساة فنان مصرى
أو

الوجه اللؤلؤى



« حياة الفنانين في مصر لم تنزل مجهولة منا ، ولم يحاول أى باحث أو ناقد أن يكشف عنها النقاب . وقد عرفت رساماً مصرياً نابغاً ، وكنت صديقاً حميماً له . فأفضى إلى بقصة حبه التي أحدثت أبلغ الأثر في حياته كإنسان وفنان » .

* * *

كان ذلك في حي الزمالك ، في ليلة من ليالي الشتاء ، وفي منزل وجيه من وجهاء القاهرة .

وكان هذا الوجيه قد أقام ، بمناسبة عيد ميلاد ابنته ، حفلة شائقة دعا إليها جمعاً كبيراً من الأهل والأصدقاء .

وكانت زينة الحفلة وبهجتها رسام نابغ يدعى « الأستاذ عماد » ، أحرزت لوحاته الرائعة شهرة كبيرة ، واستطاع لأول مرة في تاريخ النهضة الفنية في مصر أن يبدع فناً شائقاً طريفاً يجمع بين دقة الصناعة الماثلة في الفن الغربي وبين ما تمتاز به الروح المصرية من طابع خاص وجوهر مستقل . ولم يكن الأستاذ عماد رجلاً جميلاً ولكنه كان رجلاً ساحراً . كان كهلاً في نحو الخامسة والخمسين ، حلو الحديث ، جم الفاكهة ، سريع البادرة ، ذا عينين واسعتين ملتفتين ، وجبهة عريضة ساطعة ، وأنف كبير وفم عريض ، وأسنان ناتئة منفرجة يلمع بياضها الناصع لمعاناً غريباً ، ويتم تكاملها عن قوة بدنية راسخة تمازجها طيبة أصيلة ، وبراعة فائقة .

وكان يتحدث ويتلفت في اتقاد عجيب في الحركة والإشارة ، يقترن بليونة في الأعضاء ، وعدوبة في الصوت ، وتوقد في الذهن ، وحيوية غامرة جارفة تأخذ بمجامع القلوب .

وكانت عبارات الثناء تنهال عليه ، ونظرات الإعجاب تنبعث في

لطفة وحرارة من عيون النساء وتتصاعد إليه ، فلا تظفر منه بغير نكتة لطيفة : أو رنوة رقيقة : أو ضحكة عابثة . يلطف من وقعها تحفظه المعتدل وأدبه اللحم .

ودارت على المدعويين كؤوس الشراب ، ولعبت برؤوسهم نشوة الخمر . فجلس أحدهم إلى البيانو . وطفق يعزف ، وسرعان ما نهض بعضهم وشرعوا يرقصون .

وفجأة دخلت « سميرة هانم » ترفل في فستان أسود بديع ، عارية الذراعين : مكشوفة الصدر ، يزين جيدها الناصع عقد أبيض ، ويتهدل من أذنيها الصغيرتين قرطان من الماس على شكل هلالين ، يترنحان ترنحاً ساحراً ، ويبرقان بريقاً يخطف الأبصار .

وكف القوم عن الرقص ، وهللاوا لمقدم سميرة هانم . فحيثهم شاكرة باسمه وارتمت على مقعد وهي تلهث . فأحاطوا بها ، وقدموا إليها كأساً من الخمر ، وأبوا إلا أن تشاركهم في رقصهم . ولكنها نحت الكأس عنها ، واعتذرت بأنها متعبة ، وتوسلت إليهم أن يدعوها تستريح فترة وتأتنس بصديقتها الحميمة ربة الدار .

وانصرفوا عنها وعادوا يرقصون ، وأقبلت هي على صديقتها التي قدمتها إلى الفنان الأستاذ عماد ، وأجلستها بجواره ، ومضت تبالغ في إطرائه وتفخخر بأنه قد تنازل وشرف صالونها .

ورمق الفنان سميرة هانم بنظرة ، فراعته منها جمالها الباهر ، وتولته لأول مرة في حياته رعدة خوف عقدت لسانه وأذهلته .

وكانت سميرة بنت المهندس الكبير حسنى بك ، أرملة صبية في نحو الخامسة والعشرين ، توفي قرينها بعد زواجها بعام واحد ، فأصيبت بصدمة نفسية مروعة هدت قواها ، وأذهلتها عن نفسها . فعافت الطعام والشراب ، فضعفت وهزلت ، وأصابها داء الصدر . فعاشت بجوار امرأة أبيها منطوية على ذاتها ، منكمسة في عزلتها ، تتمثل

حفظها العاثر فتهب الذكريات خيالها ويمزق المرض صدرها فلا تستطيع إلا أن تدفن حسرتها وهمها في مطالعة الشعر والقصص أو التمرس بالعزف على البيانو . أو الاستغراق في شغل التريكو . أو الاهتمام بتقليم وري النباتات والأزهار التي تزين حديقة البيت .

وظلت سميرة لائذة بعزلتها أشهراً طويلة ثم ضاق صدرها ذرعاً بالمرض والوحدة ، فخرجت إلى المجتمع . فارتد إليها بعض نشاطها ، وعاودها الأمل في الدنيا . فأحست أن المرض يترقق بها . فتجدد أملها ، وعز عليها شبابها وجمالها ، فمضت تغالب حسرتها وبأسها ، وتتبع في دقة أوامر الطبيب عسى أن تسرد صحتها شيئاً فشيئاً وتشفى .

وعرف الأستاذ عماد كل هذا من ربة الدار بعد لحظات ، فازداد اهتماماً بسميرة هانم ، وطفق يتأملها من طرف خفي . فألفاها جميلة جمالا تقترن فيه الرقة بالأسى ، والدماثة بالحلم ، والسكينة باللاوعة ، والمرارة بالتواضع والانكسار .

وكانت مديدة القامة ، ممشوقة القد ، ينعقد شعرها المموج حول جبينها الوضاح أشبه بإكليل ، وتتأجج في عينيها السوداوين شعلة التلهف على الحياة ، وتستعر في خديها الغائرين الشاحبين تلك النار المتوهجة الملحوظة عادة في وجنات المصدورين .

ولحها تسعل سعالا جافاً متقطعاً . فلم ينفر منها بل أشفق عليها ، وأحس على دهش منه أنه يتوق إلى مؤاساتها ، ويتمنى لو أن في مقدوره أن يحمل عبء المرض عنها . كما أحس أن المرض يضاعف سلطان جمالها ، ويجعل منها مخلوقاً شاذاً غريباً يلتقي فيه الأمل باليأس ، والقوة بالضعف ، والشباب بالعذاب .

وهكذا أحبها . أحبها عماد حباً مازج فيه بين نزعة الفن وعواطف الإنسان ومشاعر الألم . حباً قوامه العطف والرعاية والحنان والإعجاب ، ملك عليه عقله بغتة ، وأفقده اتزانه ، وذهب بتحفظه ، وأحاله في

لحظة من رجل عاقل مجرب إلى قبي ساذج حديث العهد بعالم الحب والهوى .

وكان الأستاذ عماد قد انقطع لخدمة فنه ولم يتزوج . فلما أيقن من حبه الطارئ العميق لسميرة هانم ، فكر بالرغم منه في الزواج وهو يرتجف . فتقرب إلى المرأة ، وتودد إليها ، وافتن في إطراء محاسنها ، دون أن يذكر أنها مريضة ، وأنها شابة ، وأنه يكبرها بثلاثين سنة . . . وراقها منه حديثه الساحر وعطفه الغامر وأدبه الجم . فاطمأنت إليه ، واجتذبتها فتنة الأمن المنبعثة من كهولته ، وبهالة المجد الخيطة به . فاسلست له قيادها ، ودعته لزيارتها ، أسعد ما تكون بالاتصال برجل طيب ومهذب ومثقف ومشهور .

وتآلف كالعادة الفن والمرض ، وتحاب عماد وسميرة ، وأصبحت المرأة الحميلة المصدورة هي المادة الإنسانية الحية التي يستلهم منها الفنان وحيه ، والتي لا يستطيع أن يستغنى عنها أو يعيش لحظة بدونها . وعرض عليها الزواج ، فتناست مرضها ، وخذعها ترفق الداء بها . فلم تحفل بفارق السن بينها وبين عماد ، وذهلت وانتشت ولم تعد تسعها الدنيا .

وتمت حفلة الخطبة ، وارتمت سميرة هانم في غمرة الفرح وشرعت تعد معدات الزفاف .

وخيل إليها أن الحظ قد عاد فابتسم لها . ولكنها كانت واهمة ، إذ على قدر حلاوة الحلم كانت مرارة اليقظة ، وعلى قدر لطفة الأمل كانت لوعة اليأس والعذاب .

استفاقت سميرة ذات صباح وإذا بالحمى تساورها والسعال يقطع صدرها والدم المروع يلوث منديلها الأبيض الناصع . فجن جنون عماد . أرغمها على ملازمة فراشها . ودع الفن والدنيا وانقطع لخدمتها . آلى

على نفسه أن يكافح ويجاهد ويبدل المستحيل ليرد عنها عادية الموت وينقذها .

كان لا يفارقها لحظة واحدة . يسعفها بالدواء في الميقات . يدون درجات حرارتها . يعنى بغذائها . يسهر الليل بطوله عند فراشها . يغافل أهلها ويطمئنهم ثم ينسل إلى الحمام ويغسل يديه مناديلها المطلخة ببقع الدم !

وأحدثت تضحياته في نفسها أبلغ تأثير . فقاومت المرض من أجله ، وتشبثت بالعلاج وتهاقت على الغذاء ، حتى تماثلت للشفاء رويداً رويداً ، وامتلاً خذاها الغائران ، وارتدت إليها بهجة الصحة ونضرة الشباب . وأحس الفنان وهو مشدوه أن حبه قد خلق ملححة رائعة من جمال يعجز فنه عن إبداع مثلها ، وأنه قد انتزع الحياة انتزاعاً من برائن الموت . فازداد تعلقاً بسميرة ، وشغفاً بها ، ورغبة ملهوفة عنيدة في الإسراع بوصول حياته بحياتها .

وخيل إليه هو الآخر أنه على وشك أن ينعم بانتصاره في عزة الطمأنينة وزهو الثقة . وعندئذ تنكرت له الدنيا ، ووقع فجأة ما لم يكن في الحسبان .

كانت سميرة تزوره في مرسمه ذات مساء ، فدخل عليهما رسام ناشيء من مريديه يدعى « ممدوح » ، والتمس من أستاذه أن يصارحه برأيه في بعض لوحات كان الرسام الناشيء قد عرضها في معرض عام . وكان « ممدوح » شاباً في نحو الرابعة والعشرين . بل كان رجلاً مكتمل الرجولة وفي الوقت نفسه شاباً في ريعان الصبا . كان عريض المنكبين ، مفتول الساعدين ، دقيق الفم والأنف ، رصيناً إلى حد التجهم متزناً إلى حد الكبر والشموخ ، تناقض دقة تقاطيعه صرامة مظهره ويتألق وجهه الأسمر الحمري تألقاً عجبياً كلما انعكست عليه أضواء عينيه الزرقاوين الساحرتين .

ولم تكد تبصره سميرة حتى بهت . . . بهت على الرغم منها
وتراجعت وارتجفت .

تولتها نفس الرعدة التي تولت عماد عندما أبصرها هي لأول مرة .
أصابها ضربة الصاعقة كما أصابت الفنان بالأمس . فلبثت ساهمة
حائرة واجمة ، تحدى إلى عماد تارة وإلى الشاب الغريب تارة أخرى ،
وتحاول عبثاً إخفاء اضطرابها ، وكبح جماح الانفعالات العنيفة التي
انقضت عليها بغتة وتخطفتها .

كان عماد هو الكهولة ومدوح هو الشباب . كان الشاب المتفجر
من « مدوح » يمثل في ذهن سميرة شباب زوجها المتوفى ، ويبعث أمام
عينها أطياف سعادتها الأولى ، ويطلق في مسرح خيالها المحروم صور
الساعات الجميلة التي كانت تعيشها في صحبة زوجها ، موفورة الصحة
والنشاط ، مغمورة بحب متكافئ سليم يقترن فيه الفرح بالقوة .

وهكذا استجاب الشباب للشباب ، وأحبت سميرة « مدوح » :
أحبه وهي تأمة . أحبه وهي مذعورة . أحبه وهي ساخطة
مستنكرة : ومع ذلك فقد اندفعت إليه ، وطفقت تستفسر عنه ، ومضت
تتحين الفرص وتزور المرسم كي تراه . وكانت كلما رآته ازدادت
ضعفاً أمامه ، وخضوعاً له ، وهياماً به ، وخوفاً منه .

وبدأت تتأرجح وتتخبط وتتعذب . لم تنس إخلاص عماد . لم تنس
تضحياته . لم تنس أنه أقدم على خطبتها وهو يعلم أنها مريضة . لم تنس
أنها مدينة له بالحياة . ولكن هذه العاطفة نفسها ، عاطفة عرفان الجميل ،
كانت تحنقها ، كانت تذللها ، كانت تثير أعصابها ، وتشيع في نفسها
ضرباً من الحجل العميق يضاعف حبها قوة وعنفاً واتقاداً .

ولم تجسر على مكاشفة « مدوح » بهواها . لم تجسر على أن تقدم
الهازل والضعف لمن هو رمز القوة والشباب . أوجست منه . لم تستطع
أن تتصور أنه يمكن أن يقبلها زوجة له . لم تجد في سلامة بنيتها

ما يشجعها على الإقبال عليه . خشيت أن يهزأ بها ، أن يصددها . فلعلت حظها ، وكرهت نفسها : وعادت بفكرها إلى عماد ثم عادت بقلبها وحواسها إلى « ممدوح » ثم استهولت موقفها ، واستفظعت إحساسها ، وأشفقت على خطيبها ، وكبر عليها أن تغرر به وتخدعه وتطعنه في الصميم . فأثرت أن تصمت وتبريث ، ولا تكاشف عماداً بتحولها دفعة واحدة بل تبدى له الفتور شيئاً فشيئاً ، بحيث يفهمها ، ويقدر عذابها ، ويتخلى في النهاية من تلقاء نفسه عنها ، فتبقى على صداقته الثمينة ، وتحاول بعد ذلك أن تكافح كفاح المستميت علماً تظفر بمن تهوى . . .

وأبت أن تستعجل موعد الزفاف . أخذت تماطل بحجة أنها ما تزال تعد جهازها . أما عماد فكان قد تنبه لكل شيء ولاحظ كل شيء ، وأدرك ببصيرته الوقادة كل شيء .

رأى الحب الكامل العميق يغزو سميرة ويحتاجها . رأى نية الغدر وروح الخديعة تحوم حولها ، وإرادة التحرر والانطلاق تستحوذ عليها بالرغم منها وتستبد بها . فتفطر قلبه ، تمزق حلمه ، عز عليه أن يكون قد وهب الحياة لإنسان عزيز ثم يراه يمنح تلك الحياة خالصة لغيره . فثارت ثورته . استنكر الغدر ونكران الجميل ، وارتد إلى نفسه . فأحس وهو يكاد يخبث أنه كهل منبوذ ، وأن الوحدة مقدره أبداً عليه ، وأن الشباب أقوى منه ، وأن هذا الشباب الذي برز أمامه فجأة ، قد يذهب بلب سميرة ، وقد يقصدها عنه ، ويحرمه منها إلى الأبد .

وبات في صراع مع الحنق والكبر ، وأوشك أن يكره ويبغض ويفكر في الانتقام . ولكن حبه كان أعمق من أنانيته ، وطيبته أعمق من غيرته ، وكرامته أقوى من حبه . فأنكر ذاته ، وحنق عذابه في صدره ، ولم يعترض مشيئة المرأة بل أسلمها لحكم ضميرها ، وتركها تنساق في تيار حبه الجديد .

كان بوده أن يتشجع ويقطع ، أن يفسخ الخطبة ويخلى « لمدوح »
 السبيل ، ولكنه كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن « مدوح » الشامخ المتكبر
 لا يكثرث لسميرة ، وأنه لا يمكن أن يحب ويتزوج امرأة علية مصدورة
 وأنه يجهل حبها الطارئ الشديد له . فخشى عماد إن هو تخلى عنها أن
 تفقده وتفقد أيضاً «مدوح» فيتحطم مستقبلها وتتعرض حياتها . فأثر
 هو الآخر أن يصبر ويتتظر ، وملء نفسه الأمل أن تثوب سميرة إلى
 رشدها ، وتصفي إلى نداء ضميرها ومصلحتها ، وتعود من تلقاء نفسها
 إليه .

وانتظر . . . انتظر طويلاً . . . انتظر وهو يتألم ويتحمل ويصمت
 ويخفى . ولكن سميرة لم تفهم ، لم تحفل ، لم تشفق ، ختم الهوى على بصرها
 وزادها فتوراً وإعراضاً وقسوة ، فتزعزت أعصاب عماد ، واكتأب وتجهم
 وتبلد . جف ينبوع عبقريته وزايلته القدرة على العمل والإنتاج . اختفى
 بريق وجهه . انطفأ لمعان عينيه . أحاطت بحدقتيه هالة زرقاء . شحب
 وضمير وانطوى واستحال إلى شبه روح حائر يهيم في فسحات المرسم
 وينشد الراحة والخلاص على غير جدوى .

• • •

وعندئذ تحرك قلب سميرة واستفاق ضميرها .
 لمست الألم البالغ الذي أحدثته . واجهت الحرم المروع الذي اقترفته .
 أشرفت على الهوة السحيقة التي احتقرتها بيدها والتي يوشك أن يتردى فيها
 الرجل الذي كان بالأمس حبيبها ومنقذها . فجاشت عواطف الرحمة
 الكامنة في طبيعتها . كبر عليها أن تخضع لنذالة إحساسها . التهمت فيها
 عوامل الشهامة والنخوة والكرامة والعزة ، وأصبح قلبها ميداناً يتصارع
 فيه الماضي والحاضر ، والحب والواجب ، والشفقة والأنانية ، ودعوة
 الشرف ونداء الحياة .

ومع ذلك فقد كان حبها الحديد أقوى من نزاهة طبيعتها ، وأبلغ من

لوعة خجلها ، وأعمق من مرارة تحولها . فراحت تتخبط بين سحر الشباب ونبيل الكهولة ، ولم تعد تدري ماذا يجب عليها أن تفعل . أتصارع « ممدوح » بحبها وتقربه إليها وتسهّد لنفوره المحتمل من امرأة مريضة فتقضى على نفسها وعلى عماد ، أم تظل وفيّة لحبها الأول المتقلص فتقضى على نفسها أيضاً ثم تقضى في الوقت ذاته على عماد ؟ !

واحتدم الصراع في نفسها ، وأرهقها . وكان صراعاً قاسياً مريباً عجيباً لأنه كان صراعاً من أجل أمل مخيل وحب غير مكفول . صراعاً عجيباً في سبيل شاب تريد سميرة أن تظفر به ، ويزين لها خيالها أن في مقدورها أن تتزوجه ، وهي تشعر في قرارة نفسها أن المرض قد جردها من كل ثقة في نفسها ، وأن المرض لا بد أن يقصّي الشاب عنها ، وأن من المحال على أي شاب أن يرضى بها ويغامر بصحته وشبابه فيتخذ منها امرأة له .

هذا الصراع الجاحد ، هذا الصراع اليائس ، هذا الصراع الباطل المبدول في دائرة التصور والوهم ، والمسدد نحو هدف مستحيل التحقيق ، ومقرون بخيانة حب صادق نبيل ، هذا الصراع أنهك سميرة واستنفد منها كل ما كانت قد ادخرته من صحة وقوة . فعادت الحمى تساورها ، وعاد السعال يقطع رثتها ، وعاد الدم ينزف من صدرها . فتملكها الرعب واستبد بها اليأس . فكفت عن انتهاز الفرص لرؤية « ممدوح » ، وتباعدت عن عماد شيئاً فشيئاً ، ولم تصارحه بعودة المرض إليها ثم لزمته دارها ، ولاذت بعزلتها ، وطفقت في هدأة العزلة وعلى ضوءها الغامر ، تفكر وتتأمل وتروى .

وكان عماد يستفسر عنها ، ويصدع بأمرها ، ولا يقتحم عليها عزلتها . أما هي فقد ارتمت في غمرة هذه العزلة ثلاثة أسابيع ، ثلاثة أسابيع بطولها ثم خرجت منها ذات يوم مختارة . خرجت منها عازمة . خرجت منها ثابتة ومتفوقة ومستبسة ، وقد استقر رأيها على حل آمنت أن فيه وحده راحتها وخلصها .

قالت في نفسها : « ربما يكون الزمن قد فعل فعله وغيرني وأضعف من سلطان العاصفة التي استبدت بي ... وإذن فيجب أن أمتحن نفسي . يجب أن أرى « ممدوح » مرة أخرى ... مرة واحدة فقط ... فإذا شعرت أنني أصبحت أقوى منه وأن في وسعي أن أستغنى يوماً عنه ، بادرت من فوري إلى عقد قراني على عماد . أما إذا شعرت بنقيض ذلك وأن « ممدوح » ما يزال أقوى مني ، وأن حبه ما يزال متفوقاً على عقلي وإرادتي ، فلن أتزلف إليه ولن أستجدي من شبابه الرحمة ولن أسمح لنفسي بأن أصارحه بحبي وأستهدف لإعراضه عني ونفوره مني واشمئزازه من مرضي ! لا... لن أسلك هذا المسلك المخزي ! .. سأحزم أمري وأذهب ! .. أذهب راضية النفس مرتاحة الضمير دون أن أهدر كرامتي ودون أن أخدع عماد الذي أحبني وأخلص لي ووثق في ! ...

واستحوذت عليها هذه الفكرة ، فتحنيت كعادتها فرصة وجود ممدوح في المرسم ، ولم تتجمل ، واستجمعت قواها وذهبت إلى عماد ... وما إن دخلت المرسم ووقع بصرها على ممدوح حتى تولتها نفس الرعدة الساحقة وأصابها من فرط الحنق شبه ذهول .

لم يكن الشاب أبداً جميلاً كما كان في تلك اللحظة .

لم يكن أبداً ظافراً وقوياً كما كان في تلك اللحظة .

لم يكن أبداً صورة رائعة لما كان يجب أن يكون عليه عماد ، كما كان في تلك اللحظة ! ...

أحست سميرة أن العزلة لم تبدلها ، وأن الزمن قد غدر بها ، وأنها ما تزال تحب « ممدوح » . أحست أنها لا تحبه فقط بل تعبه . أحست أنه هو وحده حبيبها وزوجها وسيدها . فغشى الظلام بصرها ، وكادت تترنح وتسقط . ولكنها تماكنت نفسها جهدها . ومكثت فترة طويلة تشاهد بعض اللوحات وتعلق عليها ، ثم اعتذرت بأنها يجب أن تنام مبكرة . وتقدمت .. تقدمت وصافحت الرجلين ، وهمت بالخروج . بيد أنها

تباطأت وتعثرت وتوقفت لحظة وهي ذاهلة . توقفت لحظة أمام ممدوح وجعلت تحديق إليه تحديقاً ساهما طويلاً غريباً وهي تبتسم . فامتقع وجه عماد ، وخيل إليه أن حياته كلها تستخلص منه في تلك اللحظة وتعتصر وتدوب .

وشيع المرأة حتى الباب دون أن يتكلم . فالتفتت إليه ثم دنت منه ثم لاطفت نحوه بأناملها . فجاشت عواطفه وأمسك بيدها ، فركته يقبلها ثم جذبها منه في رفق ، وابتسمت له هو أيضاً ، وخرجت مسرعة لا تلوى على شيء .

واندفعت إلى الشارع واستقلت الترام وهي تختلج ، واتجهت صوب منزلها ، مشبوبة العزم ، خاوية العقل من كل شاغل ما خلا الفكرة التي ملكتها ، واستغرقها ، وأصبحت بعد رؤية « ممدوح » أشد بطشاً بها وطغياناً عليها .

ولم تردد وأوصدت على نفسها باب مخدعها ثم نضت عنها ثيابها واستلقت على الفراش . ولكي لا تضعف حولت بصرها ولم تنظر إلى صورة عماد التي كانت مثبتة على الحائط أمامها . ثم مدت يدها ، يدها الناعمة الهزيلة الثابتة ، يدها التي أوى القادر إلا أن تمنحها مرة واحدة في حياتها لرجل واحد ، وانتزعت من درج « الكومودينو » علبة صغيرة مخنومة ، قلبتها في يدها لحظة ثم أسرعت وفضتها ، وشرعت تبتلع كل ما فيها من أقراص الأسبرين .

• • •

وكان عماد وممدوح قد مكثا في المرسم يتحدثان عن فنهما دون أن يجسر أحد منهما على ذكر اسم سميرة أو الإشارة إليها بكلمة .

ولأنهما ليتجاذبان أطراف الحديث في سهوم وشروء ، وإذا يجرس التليفون يدق . فهب عماد واقفاً ، وأسرع وتناول السماعة . ولم يكذب ينطق

الكلمات المهذجة المتقطعة الممزقة التي كان ينطق بها والد سميرة حتى انتفض رعباً ، وتراجع واجماً مأخوذاً ، وأطلق صبيحة مدوية وطفق يردد كمجنون :

– ماتت ؟! ... انتحرت ؟! ...

وأتى بالساعة ، وجحظت عيناه . وفجأة وبينما هو ذاهل عن نفسه ، غائب عن وعيه ، استشعر وجود ممدوح بقربه . فأشرقت بصيرته إشراقاً طاغياً . فانفجر في الشاب وصرخ :

– ماتت ! .. ولكنها ماتت بسببك ! .. انتحرت بسببك أيها الأعمى ! .. انتحرت لأنها كانت تحبك !

فغمغم الشاب وهو كالتائه :

– كنت أعرف أنها تحبني ! .. وكنت أنا ... أنا أيضاً أحبها بل أعبدها ! ...

فاندفق الدم إلى وجه عماد ، وانقض على ممدوح بغتة وأمسك به ، وجعل يهزه هزاً عنيفاً وهو يصيح :

– ولماذا لم تصارحها إذن ؟ ... لماذا لم تتكلم ؟

فقال الشاب والدمع يوشك أن يخنقه :

– لم أشأ أن أخونك وأنت أستاذي !

فصرخ عماد وهو يهدر :

– كان يجب أن تخونني لتنقذها ! ... كان شبابك وحبك قوة

لا بد أن تشفيها . كان يجب أن تصارعني أنا الكهل الغرير وتصرعني

وتفوز بها . كان هذا حقك بل واجبك مادمت قد شعرت أنها تحبك

وأيقنت أنك أنت أيضاً تحبها . ولكنك استمسكت بشرف مثالي لا أستحقه

أنا ، فخسرت كل شيء ، وأشقيتني ، وقتلتها ! .. نعم ، أنت .. أنت

الذي قتلها !

وانهارت قوى عماد ، وارتدى على مقعد ، وأحس أنه لن يستطيع أن

يتحرك وينهض ويمشي . ولكنه كان يجب أن ينهض . كان يجب أن يتحرك ويمشي . فهض وهم بالاتجاه نحو الباب . ولكنه أبصر ممدوح رازحاً محطماً منسحقاً ، يخلج اختلاجاً عنيفاً وتتقبض عضلات وجهه وتهمر من عينيه الدموع . فتأمله فترة ثم اقترب منه ثم قال له في صوت غائر أجش :

— تعال معي . . . تعال معي نودعها الوداع الأخير !

وتأبط ذراع الشاب ، واستقبل الرجلان فسحة الشارع وهما مذهولان . وكان عماد يمشي مطرق الرأس متعثر الخطى ، ويأبى مع ذلك إلا أن يمالك نفسه ، ويتجلد ويتصلب ويقاوم .

فلما ودع المرأة الوداع الأخير وعاد إلى مرسمه ، طافت به الذكريات . فالتببت مشاعره ، واضطربت لوعته ، ولم يجد راحة لقلبه ومتنفساً لأشجانته إلا في فنه . فاختطف من فوره لوحة بيضاء ، وثبتها أمامه ، وانكب على العمل ، وطمق يرسم في لطفة وحرارة واندفاع صورة لسميرة يبعث فيها المرأة التي كانت هي حبه الأوحده وأمله العظيم .

• • •

وكانت هذه الصورة أروع وأكمل أعمال الفنان المصري عماد .

« تم الكتاب »

محتويات الكتاب

صفحة

٧	.	.	(مورييس ماترلنك) أو بين الحب والواجب الأعلى
١٥	.	.	(ألفريدو كاتالانى) أو وثبة قلب جريح .
٢٧	.	.	(ليون تولستوى) أو العبقرى تجاه زوجته .
٣٥	.	.	(هيلينا سيكورسكى) أو النور المفتقد .
٤٧	.	.	(إيزادورا دنكان) أو بين خريف وربيع
٦٣	.	.	(فردريك نيتشه) أو بين إرادة القوة وسطوة الحب
٧٣	.	.	(روزينا موار) أو وحى الأمومة فى الفن .
٨٧	.	.	(مكسيم جوركى) أو القلب فى مغرب العمر
٩٣	.	.	(ماريا جارسيا) أو صراع الحب والمجد .
١٠٧	.	.	(جورج هرويج) أو العاصفة الملهمه .
١٢٣	.	.	(مارت فلورى) أو تفوق بعد تضحية .
١٣٥	.	.	(روبرت شومان) أو عبقرى يهذب امرأة
١٤١	.	.	(بلزك) أو حب وجهاد وعذاب .
١٤٩	.	.	(لرمنتوف) أو الكبرياء القاتلة .
١٥٩	.	.	(ألفريد دى موسيه) أو فى مهب النار .
١٧١	.	.	(مارينو فوسكارى) أو الشبكة والصيد .
١٨٥	.	.	(جوستاف فلوبير) أو بين الاستعباد والحرية
١٩٣	.	.	(مارياتروف) أو عبقرية أم .
٢٠٩	.	.	(مأساة فنان مصرى) أو الوديع الأخير .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧٥/٢٨١٤

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥

١/٧٥/٣١